الموت على طريقة تارانتينو

مصطفى جمال هاشم

رواية

الرواق للنشر والتوزيع

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

توطئة

فينسنت: ما رأيك في ما حدث لأنطوان؟

ميا: من أنطوان؟

فينسنت: توني، الصخرة المرعبة!

ميا: لقد سقط من النافذة.

فينسنت: آها، هذه طريقة لقولها، هناك طريقة أخرى هي أنه قد أُلقي به، وهناك طريقة ثالثة هي أن مارسيلاس هو الذي ألقاه، وطريقة رابعة هي أن مارسيلاس قد ألقاه بسببك.

ميا: هل هذا حقيقي؟

فينسنت: لا ليس كذلك لكن هذا ما سمعته، هذا ما سمعته.

ميا: من أخبرك؟

فينسنت: هم.

ميا: «هم» يتكلمون كثيرا أليس كذلك؟

fb/mashro3pdf

فينسنت: بالتأكيد يفعلون، بالتأكيد.

ميا: لا تكن خجولا يا فينس، ماذا يقولون أيضا؟

فينسنت: أنا لست خجولا...

ميا: هل الكلام يتضمن الكلمة التي تبدأ بحرف الـ «F»؟

فينسنت: لا لا لا، لقد قالوا أن أنطوان قد قام بتدليك ساقيك.

ميا: و...؟

فينسنت: لا شيء، هذا فقط.

ميا: هل سمعت أن مارسيلاس ألقى توني من النافذة لأنه دلك ساقي؟

فينسنت: آها.

ميا: وصدقت؟!

فينسنت: حسنا، في الوقت الذي أخبرت به كان الأمر منطقيا!

ميا: مارسيلاس ألقى بالرجل من أربعة طوابق لأنه قام بتدليك ساقي يبدو لك منطقيا؟!

فينسنت: لا، يبدو مبالغا، لكنه لا ينفي أنه ما قد حدث، أنا أتفهم أن مارسيلاس يبالغ في حمايتك.

ميا: زوج يبالغ في حماية زوجته شيء، وزوج يقتل رجلا لأنه لمس قدم زوجته شيء آخر.

فينسنت: ولكنه حدث؟

fb/mashro3pdf

ميا: الشيء الوحيد الذي لمسه أنطوان كان يدي، حينما صافحني يوم زفافي.

فينـــت: حقا؟!

ميا: الحقيقة أنه لا أحد يعلم لماذا أقدم مارسيلاس على إلقاء توني من أربعة طوابق غير مارسيلاس وتوني، عندما يلتقي الحثالة يكونون أسوأ من دائرة الخياطة!

أوما ثورمان ـ جون ترافولتا من فيلم (Pulp Fiction 1994) تأليف واخراج Quentin Tarantino

fb/mashro3pdf

زغلول

(١)

تركض عيناك وراء الكلمات انتظارا للحظة الحاسمة التي ينتهي معها كل شيء، ولا يبقى إلا الخواء وبعض من تأنيب الضمير الذي لا تعرف من أين ينبع بالأساس، أنت تعرف أن الأمر معك لم يعد يطول، دقيقتان وينتهي كل شيء، فجأة كلمات الرواية التي تمسكها بيدك العاطلة تتخذ بُعدا أكثر وطأة على أعصابك من كونها مجرد حروف قرر الكاتب أن يجمعها مكونا بها كلمة وسط جملة اتخذت من تلك الرواية ملاذا لها، تهمس البطلة في أذن البطل وتحتضنه من الخلف، وتتصبب أنت عرقا وأنت تقرأ كل هذا وتتخيلك هناك مكان البطل، يذوبان في قبلة طويلة لم يعرفا كم طالت، وتتحســس أنت شفتيك انتظارا لقبلتك التي تأخرت أكثر من ٤٢ عاما، ولا تجدها، يحرك يديه على وجهها فتلفح وجهه أنفاسها الملتهبة، وتذوب أنت وسط اللهيب المتخيل والذي لم تطأه قدماك من قبل، ولن تفعل غالبا، تقترب نهاية رحلتك مع العذاب،

fb/mashro3pdf

الجمرة تتحرك من داخلك في طريقها للخروج فقط لتلعنك، وتذوب الجدران من حولها ويلتحم جـداهما وتئن الأريكة المتهالكة من وطأة الحركة المحمومة، تسرع يدك اليمنى خطاها وتلهث أنت، نقطة النهاية في السـباق تلوح في الأفق أمامك، ينتهي السـباق ولا يربح أحد، وتنتهي لحظتك التي دأبت على تكرارها لأكثر من ٢٥ عاما، هنا يلفظ جسدك النار، أم تراها هي التي تلفظك؟ تنتهي النشوة الخادعة ويتملكك شعور جارف بالخواء وبعض من تأنيب الضمير الذي لا تعرف من أين ينبع بالأساس، جمرة مشتعلة تقلب كيانك للحظات قصيرة ثم تحولك إلى كتلة لزجة أو مجموعة مكعبات من الثلج، ترجع بظهرك إلى الخلف ويعود عضوك مترنحا إلى جرابه من جديد، وتحدق للحظات لاهثا نحو اللاشيء.

أنت عاشق للروايات الرخيصة، أنت تعرف ذلك، وعم محمد البائع عند سور الأزبكية يعرف ذلك أيضا، حينما يراك تتلفت حولك داخل السوق التي امتلأت بالكتب الخارجية والمجلات الأجنبية يشير لك بيديه، تذهب إليه ويعطيك بعضا من تلك الروايات والتي يبدو أنه قد جهزها سلفا من أجلك، يضعها لك داخل حقيبة بلاستيك قذرة تشبهك، تعطيه بضعة جنيهات وتفترقان، هكذا يتم الأمر، ربما تلمح ابتسامته الساخرة وربما لا، أنت فقط من يقرر ذلك، في المساء وبعد أن تقلب الصفحات الأولى سريعا تاركا ديباجة الرواية السخيفة الأقرب إلى المقدمة الكليشيهية لأي «فيلم سكس» يحترم نفسه، محاولا الوصول إلى الخلاصة التي تريدها، وحينما تصل إليها تبدأ رحلة الدقيقتين إياهما، لهاث وعرق وخيالات ضبابية تصل بك إلى مرحلة النشوة الخادعة، هكذا تقضي سهرتك، وهكذا تقضي هي عليك.

fb/mashro3pdf

لا تتذكر منذ متى أصبحت تكتفي بالروايات الرخيصة ملاذا للعتك الأبدية، وكأن رحلتك مع المجلات والأفلام الجنسية قد انتهت من دون رجعة، لا تعرف أصلا سر تلك المتعة التي تتملكك خلالها، ربما سئمت رؤية الأجساد التي لن تطولها يوما، أو وجدت في الخيال طريقا سريا ساحرا نحو واقع مشوه لا وجود له، لا تعرف، ولا تروم المعرفة أصلا.

تقف متثاقلا ثم تتجه ناحية المنضدة التي أصبحت مرتعا للحشرات الأليفة، والتي صرت تعتقد أنها تمتلك ملامح تشبهك، فاعتبرتها جزءا من العائلة، تملأ غلاية المياه الرخيصة التي تهشمت منها مواضع عدة واكتفيت أنت بترميمها مستخدما اللاصق البلاستيك الرخيص، تشعل سيجارة وتمسك كوبا اصفرّ لونه بصورة مدهشة، تضع داخله بعضا من السكر والكثير من الشاي، وتحدق ناحية الغلاية التي تترنح الآن معلنة عن وصول المياه إلى مرحلة الغليان، تصب الكوب وتمسكه وتذهب بأوصال مرهقة ناحية الكنبة الإسطنبولي التي تستند إلى جدار، تمسح قطرات العرق العالقة على نتوءات وجهك بطرف القميص وتحتسي الشاي سارحا ناحية الفراغ، الفراغ المحيط من حولك، والفراغ المستوطن داخلك.

يدق الباب فتنظر ناحيته متساءلا أعليك فتحه أم لا؟ قرار مصيري آخر، لكنك تقرر أخيرا أن تفعل، تفتح الباب لتجد صبحي أنتيكة واقفا ينظر إليك ببلاهة، أنت تعرف لرَجاء، وهو يعرف أنك تعرف لرَجاء.

يقول لك:

- الاصطباحة وجبت.

تعرف أن الاصطباحة بالنسبة إلى أنتيكة ما هي إلا وقود للمعركة

fb/mashro3pdf

السريرية المقبلة للرجل، تحدق قليلا في جثته الضخمة والتي تهدلت بعض مناطق منها، ثم تنظر قليلا في عينه شبه النائمة من أثر الحشيش، وتتجه مرغمها ناحية المنضدة إياها وتخرج نصف شريط ترامادول من كيس بلاستيك تعرف أنه المراد، تتجه ناحيته تعطيه المطلوب ويقرضك نصف الثمن كعادته، ولا ينسى بالطبع أن يضربك على قفاك بكفه الغليظة على سبيل التحية، فترد عليه بأحسن منها بابتسامة بلهاء أقرب للشكر منها للامتعاض، يتركك وتغلق الباب ثم تبصق عليه، في خيالك.

تضع النقود في جيبك وتتجه ناحية الكيس البلاستيك مرة أخرى لتعاين التموين المتبقي، حسنا، لديك ما يكفي لأسبوعين على الأقل، وتتساءل: هل كان يظن مخترع الترامادول وهو قابع في معمله محاولا الوصول إلى التركيبة النهائية للمعادلة، أن اختراعه سوف يصل إلى شقتك في الوراق ليكون سلعة تبيعها إلى أنتيكة ومن على شاكلته، من أجل استخدامه في إطالة المدة الزمنية لممارساتهم السريرية الغراء؟ تبتسم للخاطر وتكتشف أنك لم تجربه من قبل ولن تفعل غالبا، وتعترف بأنك لا تبيعه فقط من أجل المال، لكنه ـ وهو الأهم في نظرك ـ وسيلتك النافذة التي تساعدك على الانتقام من الآخرين.

تعرف جيدا تأثير الترامادول، لقد سمعت الدكتور فؤاد يوما في المصحة وهو يقول إن الترامادول يقتل الإحساس لدى البشر، فماذا عن بشر لا يعرفون للإحساس طريقا بالأساس؟ لا يهمك، أنت فقط تتلذذ برؤية أنتيكة وأمثاله وهم يتألمون مع كل نسمة هواء قوية تتحرك بالقرب منهم، ليلا يزيد من القدرات ونهارا يدمرها، حسنا، دعهم يظنون أنها حبوب السعادة، ودع السعادة تشير لهم بإصبعها الوسطى إن كان لها واحدة!

fb/mashro3pdf

تعود مرة أخرى إلى كوب الشاي والكنبة الإسطنبولي ووحدتك الأبدية، تشعل سيجارة جديدة وأنت تحدق في جدران منزلك الملأى بالشقوق، يخرج لك بُرص ليحييك فتهز له رأسك فيكمل طريقه مطمئنا، وتتساءل فيم أضعت ٤٢ عاما هي عمرك المدون في بطاقتك الشخصية فلا تجد إجابة شافية، مجرد لحظات متفرقة تبعث داخلك إحساسا عاما بالخواء، أنت تشبه حشرات غرفتك، الفارق أنها تعرف أنها كذلك أما أنت فتصر على أنك غير.

تقرر أن تنام، في الصباح سوف تعرف أن أنتيكة قدمات نتيجة توقف مفاجئ لعضلة القلب، سوف يبلغك جيرانك بالخبر وأنت في طريقك صباحا إلى عملك في المصحة النفسية، لن يحرك الخبر داخلك أي مشاعر، خصوصا وأنك تعرفه مسبقا، لقد بدلت بالشريط المعتاد آخر له تأثير السحر، لقد تخلصت من واحد ممن تركت بصماتهم أثرا عميقا غائرا في خلايا قفاك العتيقة، لكنك تعرف أن القائمة ما زالت ممتلئة بآخرين لهم ذات البصمات ويستحقون ذات المصير.

* * *

fb/mashro3pdf

(٢)

تطأ قدماك أرض المصحة كعادتك كل صباح، تلقي تحية مقتضبة على حسنين وضاوي عاملي الأمن، وتتحرك في الممر الطويل الذي تحيطه بعض الأشجار والنباتات لزوم الأناقة المصطنعة، وصولا إلى الباحة الصغيرة التي تحتوي عددا من المقاعد الحجرية الفارغة من الرواد في هذا الوقت من الصباح، تلقي نظرة عابرة على المبنى الصغير، تحديدا على نافذة فريدة علك تنعم باصطباحتك الخاصة، فلا تجدها، تمني النفس بها تعرف أن الزمان لا يجود به لأمثالك وتكمل طريقك إلى البوابة الداخلية للمصحة، فيلا صغيرة في التجمع الخامس خصصت من أجل المرضى النفسيين ومرضى الاكتئاب وضحايا الإدمان، ملتقى السادة «المحوكين» الذين يظنون أن حالتهم النفسية بتلك الأهمية، أو الذين يظنون أن علاجهم من الإدمان سوف يفرق في شيء، حسنا، هذا موطن رزقك فلا بأس بالقليل من التبجيل والكثير من السخرية! تمر على كاونتر الاستقبال وتنحرف ناحية مملكتك الخاصة، غرفة الممرضين، تدخل وقد رسمت على وجهك بعضا من الجدية وكثيرا من الصرامة، أنت هنا غير!

fb/mashro3pdf

هنا تستطيع أن تفرض سيطرتك على بعض الغلابة أمثالك، أنت كبير المرضين وأقدمهم وهو ما يعطيك ميزة مهمة، هي أن هناك شخصين أو ٣ في العالم يعاملونك ببعض الاحترام، تعرف أنه احترام متكلف أساسه مركزك وليس شخصك، لكن ماذا في ذلك؟ «سلو بلدنا كده» تقولها لنفسك مبتسما وأنت ترتدي البالطو الأبيض وتبدأ في مهمتك المعتادة مثل كل يوم.

تتأكد من توزيع الأدوية الخاصة بالمرضى كما هو مدون بالكشف الذي تمسكه بيدك، كل مريض يكون له علبة بلاستيك مدون عليها اسمه وتحتوي على عدد من أقراص العلاج، تتأكد أن كله تمام وتشير إلى المرضين ليتحركوا فيفعلوا صاغرين، كم أنت مهم في هذا العالم التعس!

يدخل عليك الدكتور فؤاد ساحبا طنا يخفيه داخل ملابسه، تحيه بصورة مبالغ فيها فيهز لك رأسه كالعادة من دون أن يرد، ويقول لك:

ـ وزعت الأدوية؟

ـ تمام يا دكتور.

ـ طيب اعمل حسابك انك هتستلم مجموعة «ب» من حسن.

ترتسم ابتسامة سعيدة على ملامحك، هدية متأخرة جلبها لك القدر بعد أن كنت قد نسيت معنى الكلمة وسئمت انتظارها! هذا في المطلق، فماذا إذا كانت تلك الهدية تعني أن المسافة الشاسعة التي تفصلك عن فريدة سالم سوف تتقلص قليلا؟ أنت تعرف أن فريدة تعاني من الاكتئاب على الرغم من تخلصها من وطأة الإدمان على جسدها المثير، كل هذا لا يهمك، المهم أن استلامك لمجموعتها سوف يجعلك تقترب قليلا علك تنعم ببعض مما تملك، تلك «الملفاية» ذات الأربعين ربيعا، كم طاف شبحها

fb/mashro3pdf

حولك وأنت وسط غمار رحلاتك مع المتعة الخادعة، كانت صورتها ترتسم في مخيلتك لتتقمص هي دور بطلة الرواية صاحبة قميص النوم الوردي القصير، تحرك يدك اليمنى سريعا وعينيك تركض بين الكلمات، وأنت تسمع رنين صوتها ذا البحة المثيرة! كان خيالك يكفل لك امتلاكها بما في ذلك من متعة غامضة قصيرة الأمد، تراها تتحرك عارية في غرفتك الكئيبة فتغلبك مشاعر متضاربة، الاشتهاء الممزوج بالغيرة على جسدها من جدران غرفتك القذرة، وربما الشعور بضآلة قيمة المكان غير الجدير باحتواء هذه المرأة، كان كل هذا يتشكل في خيالك، فماذا عن فرصة امتلاك الحقيقة ببعدها المادي الملموس؟ الطريقة الوحيدة للتخلص من سطوة الروايات على أعصابك، تتحقق بكتابة روايتك الخاصة، فهل بدأ الطريق يتشكل للشروع في تحقيق ذلك؟ تتذكر كم كنت تقف طويلا لتتابع جلسات استماع مجموعتها فقط لكي تطيل النظر إلى ملامح فريدة وإلى صدر فريدة وإلى تفاصيل فريدة، وتتخيلها هناك بين ذراعيك تتأوه من المتعة، إنها فرصتك لتملك الحقيقة، بعد أن قضيت عمرك كله تناضل وسط صراعات متخيلة لا وجود لها بالأساس، لنرَ.

تدلف إلى الحمام علك تتمكن من إزالة ركام السنين الساكنة ملامحك بالقليل من الماء، وتتساءل: لماذا لم ترتد القميص الأحمر عله يعطيك سمتا لا تملكه؟ ومنذ متى لم تلمع حذاءك اللعين ذا السنوات الخمس؟ أسئلة عدة تحوم حولك فلا تجد لها إجابة، فلتواجه الواقع إذن بركام السنين وقميصك الأزرق ذي اللون الباهت وحذائك المهترئ وخوفك من المواجهة، لكن ماذا ستقول لها في البداية؟ تنظر إلى ملامحك في المرآة فتكتشف فراغا يملأ روحك، كنت قد قررت الانزواء وحيدا مكتفيا ببضعة كلمات في أي رواية رخيصة لتخلصك من عناء البدايات، فلماذا

fb/mashro3pdf

قررت التراجع الآن؟ وهل يستطيع المرء بعد أكثر من ٤٠ عاما من الانزواء وحيدا هاربا بإرادته أو من دونها من البشر وخصوصا النساء، أن يهدم كل هذا فجأة متحركا ولو سنتيمترا واحدا إلى الأمام؟ أنت كنت ترى العالم من حولك يتحرك إلى الأمام، في حين كنت تصر على الحركة في مكانك، والآن تكتشف أنك نسيت الحركة في وقت كان فيه الكل يركضون.

تخرج من الحمام متجها إلى غرفة الاستماع الخاصة بالمجموعة «ب» تقابل أحد المرضين فتسأل: أمن حقك أن تطبع بصماتك على قفاه مثلما يفعل الجميع معك؟ وتتذكر أنتيكة للحظات فتشعر بسعادة مختلطة ببعض من الحزن! تطرد الخاطر الجديد عن ذهنك وتدلف إلى الغرفة الواسعة التي تعتقد أنها ستحرك قصة حياتك إلى الأمام قليلا.

الغرفة ما زالت فارغة، هناك فقط ٧ مقاعد وضعت في شكل نصف دائرة، لزوم جلسات استماع المجموعة «ب» هنا يجلس المرضى ليتقيأوا حكاياتهم، عسى أن يساعد هذا في علاجهم وعلاج الآخرين، المقاعد التي احتوت العديد والعديد من المرضى بحواديتهم وهرائهم وصراخهم، تئن بما تحمل من تأوهات السادة «المحسوكين» الذين يظنون أنهم محور الكون، ساكنة الآن في انتظار روادها الجدد.

تتأمل المقاعد ويمر بك خاطر غريب، هذه المقاعد تحوي تاريخا فعليا لجمع من البشر احتكت مؤخراتهم بها يوما ما، وكأنها - أي المقاعد - صندوق يحوي العديد من القصص لبشر عانوا في وقت ما من الحدوتة، مرضا نفسيا كان نقطة فاصلة في قصتهم الصغيرة التي تتكون منها الحدوتة الكبرى للكون، منهم من مات بجرعة زائدة، ومن انتحر، ومن

fb/mashro3pdf

معاق واكتملت رحلته في المفرمة الهائلة التي لا تستثني أحدا، أسماء وأسماء لم يبق من أصحابها إلا سجل محايد كتب على ورقة منسية وضعت في درج لن يفتحه أحد.

تتحرك ناحية المكتب المنزوي في ركن الغرفة، وتمسك الملف الموضوع عليه والذي يحتوي على تفاصيل مجموعتك الجديدة، ٧ أشخاص، ٤ رجال و٣ نساء تتمنى أن تكون إحداهن بطلة قصتك الوحيدة، مجموعة البشر الجدد ذوي المؤخرات التي تحتك بالمقاعد الأثيرة، يحمل كل منهم جزءا صغيرا من الحدوتة الكونية على كتفيه، وتتساءل: ما دورك في هذا الجزء من الحدوتة؟ وكيف سيكون مكانك في تاريخ هؤلاء؟ لا تعرف، فقط تتمنى ألا يكون عليك القبول بأن تكون مجرد حلوف جديد لا يعبأ به أحد.

المجموعة الجديدة ليست غامضة عليك كما تعرف، دعك من أنه لا يوجد شيء تغفله في تلك المصحة أصلا، أنت منتشر في جميع الأركان بصورة تدهشك شخصيا، وكأن اهتمامك بالعمل بتلك الصورة المبالغ فيها، يعوض الكثير مما ينقص حياتك الكئيبة وشخصيتك المشوهة وماضيك الفارغ، لقد سمعت الدكتور فؤاد يوما وهو يتحدث بخصوص شيء مماثل، لكن لا تذكر المصطلح العجيب الذي استخدمه لوصف تلك الحالة، الخلاصة أن اهتمامك الزائد هذا ما هو إلا وسيلة تعويضية تشبه استخدامك للروايات الرخيصة بدلا من محاولة الحصول على امرأة حقيقية لها أبعاد مادية ملموسة، يصفونه البعض بالتعويض، ويعرف الباقون ـ وأنت منهم ـ أنه مجرد هروب جديد.

تفتح الملف وتحاول تذكر شكل الجلسات السابقة، التي كنت تحضرها

fb/mashro3pdf

متلصصا أيام كان حسن المرض هو المسؤول الفعلي عنها، حسنا، في هذا المقعد كنت تشاهد سامح زكي صاحب الأربعين عاما بجسده الذي يقع بين مملكتي النحافة والسمنة، ونظراته التي تقول إنه مغرور بامتياز، يقولون إنه مخرج سينمائي، ومن أسماء الأفلام التي قالوا إنه أخرجها ـ من مؤخرته في الغالب ـ عرفت أنه أحد السادة مروجي الدعارة في محروستنا العزيزة، أنت تعرف نوعية الأفلام التي أتحدث عنها فلا داعي لاصطناع العكس، إذا كنت قد شاهدت فيلما يحتوي على راقصة ومطرب شعبي وعدد من الإفيهات الجنسية، فأنت تعرف عمن أتحدث، الغريب أن يدخل شخص كهذا في دوامة الإدمان وأن يعاني اكتئابا حادا يؤدي إلى وجوده هنا، كنت تظن أن من يتخذون من الدعارة عملا دائما لا تطرق الكآبة لهم بابا، لكن يبدو أنها فعلت مع هذا.

المقعد الآخر كان يجلس عليه الأخ رشدي السيوفي، العجوز المتصابي القريب من عمر الخمسين، تقول أوراقه إنه رجل أعمال، وهو كما تعرف وصف من لا وصف له! لا تشعر بالراحة لرؤيته، وكأنه صندوق مغلق لا مفتاح له، مجموعة جدران محايدة من الخارج لكنك تعرف أنها تحوي الكثير، غير أنك على الأقل تعرف أن ما يزيد من كراهيتك له، هو أنك رأيته أكثر من مرة وهو يحاول التودد إلى معشوقتك الأبدية فريدة سالم، فقط تتمنى ألا تكون متجاوبة معه وإلا اضطررت إلى قتلها!

ما زلت تنظر إلى الملف في يدك وقد وصلت إلى المقعد الرابع ـ المقعد الثالث تجلس عليه معشوقتك ـ والذي يجلس عليه كمال مندور، وهو شاب رقيع لو أردت رأيي، بجسده النحيل وشعره الذي عقصه إلى الخلف بشكل يجعلك تتساءل بشأن ميوله الجنسية! أما المقعد الخامس فيجلس عليه عبد السلام يوسف، الغريب أن ورقته لا تحوي معلومات

fb/mashro3pdf

كافية عنه مثل الباقين، السن ٣٥ عاما مواليد محافظة الشرقية، ولا شيء آخر إلا صورة لوجه أبله يبتسم للكاميرا.

المقعد السادس تجلس عليه سلمى صبحي، ومن بعض المواقف والنظرات استطعت أن تدرك أنها على علاقة ما بالشاب الرقيع كمال مندور، هي تشبهه على العموم فلا غرابة في ذلك، لن تُدهشك إذا كانت تقضي كل ليلة في غرفة كمال ليلعبا معا اللعبة التي حرمت أنت منها طويلا، أما المقعد الأخير فهو لماهيتاب رفعت وهي في نحو الخامسة والثلاثين وأوراقها تقول إنها كانت صحفية أو شيئا كهذا.

الخلاصة أنك أمام مجموعة أخرى من ضحايا الإدمان، أغلبهم قد تعافى منه لكن يظل الاكتئاب الحاد هو عدوهم الأول والأخير، وبما أنك تصف الاكتئاب بأنه مرض السادة المحوكين فأنت تعرف وصفك لهم الآن، ما عدا فريدة بالطبع.

يُفتح باب الغرفة عن عبد السلام يوسف أول الوافدين، ينظر ناحيتك مستغربا ثم يكمل طريقه إلى مقعده، وتضع أنت الملف مرة أخرى على المكتب في انتظار بقية المجموعة، يدخل سامح زكي ومعه كمال مندور ويبدو أن هناك نقاشا ما بينهما فلا يلمحانك، يليهم رشدي السيوفي مجاورا لمعشوقتك الأبدية، تشعر أن عليك أن تلكمه في وجهه لكنك تتراجع كالعادة، هل لاحظت ابتسامة فريدة له؟ وبدخول سلمى صبحي وماهيتاب رفعت تكون المجموعة قد اكتملت، تنظر إليهم ويبدو أن لا أحد يشعر بوجودك بالأساس، حسنا، يبدو أن رحلتك سوف تكون صعبة بعض الشيء، كالمعتاد.

قليلا ويدخل الدكتور فؤاد ويغلق الباب خلفه، لتبدأ الرحلة إذن.

* * *

fb/mashro3pdf

(٣)

تتابع خلجات أفراد المجموعة فتشعر أنك تراهم للمرة الأولى، كم الإحباط العالق بين ثنايا ملامحهم والحالة العامة من اللامبالاة التي تغمرهم لم تلحظها من قبل، يقولون إن عليك أن تقترب أكثر من الصورة حتى ترى التفاصيل بدقة، وأنت كنت دائما تنظر إليها - أي الصورة - وتفصلك بينها مسافة كافية تمنع عنك تلك التفاصيل، الآن أنت قد اقتربت، فهل تمكنت من التعرف بدقة على تلك التفاصيل؟

تنظر إلى معشوقتك فيضيق صدرك وتبرد أطرافك، هل لاحظت يوما وأنت تتلصص عليها، تلك الهالات السوداء التي تحيط عينيها، والتي تحكي لك تفاصيل لم تحضرها؟ وماذا عن ارتعاش شفتيها ونظراتها الزائغة التي تفضح كم الألم الذي تعانيه؟ وتكتشف أنك كنت ترى الصورة كما تريد أن تراها، وليس كما هي في الواقع، هذه المرأة تعاني الوحدة، مثلك تماما.

يأتي دورها في الكلام فتبدي خوفا وتوترا عظيمين، وتشحذ أنت

fb/mashro3pdf

انباهك وأنت تراها تنظر حولها بخجل، وكأنها تريد أن تختفي الآن، تدعك يديها بتوتر وكأنها تبحث عن كلمات لا وجود لها، الدكتور فؤاد ينظر إليها مشجعاً فتتبادل معه نظرة حيرة ورجاء أن اتركني وشأني! دقائق من الصمت وسنوات من الألم والعذاب.

يقول الدكتور فؤاد:

ـ مش مهم نفكر كتير في الحاجة اللي هنقولها، المهم إننا نطلعها من جوانا وخلاص، ممكن يبقى مجرد كلام فارغ مايهمش حد، لكن مجرد خروجه بيمثل راحة نفسية مهمة، احكي عن حد كان في حياتك أو موقف مريت بيه أو حتى نكتة جديدة سمعتها، المهم إنك تكسر الجدار اللي إنت بنيته جواك.

يزيد كلامه من توترها، في الوقت الذي ظن أنه يساعدها كان يزيد الأمور صعوبة، لكن مهلاً، هل لاحظت نظرة السيوفي إلى معشوقتك؟ حاول أن تفهم ما وراء تلك النظرة ولك عندي ثمن علبة سجائر امريكاني، حسناً، كانت نظرته خليطاً من الشفقة والاشتهاء وقد تم تغليفهما بإطار من السخرية! لقد خسرت الرهان إذن!

ينقذها الشاب الرقيع كمال بأن قال محدثاً المجموعة بسخرية فاضحة:

ـ خلونا نتكلم عن إبداعات الأستاذ سامح زكي، معقول يبقى معانا مخرج ومتكلمش عن شغله؟

ينظر الجميع إلى سامح الذي وصلته الرسالة الساخرة فبدا أثرها جلياً على ملامحه، رشدي السيوفي يبتسم بخبث في حين يبدو القلق على سلمى وماهيتاب، أما عبد السلام يوسف فبدا للحظة وكأنه يدرس الموقف، هذا الشخص غامض، لا شك في هذا.

fb/mashro3pdf

يقول الدكتور فؤاد:

ـ فكرة كويسة يا كمال.

أما سامح فنظر إلى كمال بتحد وقال بصوت مرتفع:

ـ طالما إنت مصرّ تفضل بهيم من غير ما تفهم يبقى ماتفتحش الموضوع ده!

ـ والله البهيم هو اللي بيبقى شايف الحقيقة قدامه وبيضحك على نفسه.

ـ تعرف إيه إنت عن النط من منتج للتاني، عشان تخليه يدفع لك فلوس تعمل بها الشغل اللي على مزاجك انت مش اللي على مزاجه هو؟ هه؟

ـ اللي أعرفه إني مش هعمل حاجة مش مقتنع بيها.

ـ إنت اللي زيك بق وبس، رغي كتير من غير حتى ما تحتكوا بالواقع، حاولوا تقفوا على الأرض شوية يمكن الجزمة القديمة اللي في دماغكم دي تختفي!

كمال أخذ فوق رأسه الآن، ملامحه تقول إن كلام سامح مس لديه جرحا ما، سلمى تنظر ناحيته بإشفاق من يعرف الحقيقة.

يواصل سامح:

ـ وبعدين ده عرض وطلب، أنا مش بجبر حد إنه يدخل يتفرج على أفلامي، كل واحد حر في اللي بيتفرج عليه.

يتدخل الدكتور فؤاد محاولا تلطيف الأجواء:

fb/mashro3pdf

ـ خلونا نناقش وجهتين النظر بهدوء يا جماعة، إيه رأيك يا مدام فريدة؟

تنظر ناحية فريدة فتشعر وكأن نطق فؤاد لاسمها، كان وقعه أشبه بوقع قنبلة ألقيتها بين ساقيها وركضت! تبحث فريدة عن كلمات تشفع لها للتخلص من الموقف برمته، فلا تجد، ثم تقول بصوت لم يصل في الأغلب إلى من يجاورها:

ـ أنا مش متابعة السينما قوي، بس أعرف إن حال الصناعة دلوقتي مش كويس.

فيرد سامح وكأنه وجد طوق النجاة أخيرا:

ـ إنت واحد بتملك صناعة لو مشغلتهاش بأفلام جديدة هتموت الصناعة دي.

لكن كمال لم يمهله بالطبع، وقال:

ـ على اعتبار ان الأفلام اللي إنت بتعملها بتنمي الصناعة؟

ـ لأ، بس بتخليها موجودة، كأنك بتاكل أكل عارف إنه مش نضيف بس مضطر تاكله عشان تقدر تعيش.

ـ حتى لو الأكل ده هيمرضك؟

ـ يمرضك أحسن ما تموت.

يبتسم الدكتور فؤاد وتنظر أنت ناحيته، هو يرى أن هذا التفاعل مهم في العلاج حتى لو انتهى بلكمة في أنف أحدهما! وتتدخل ماهيتاب للمرة الأولى بصورة تفضح ترددها:

fb/mashro3pdf

ـ أنا كنت عملت تقرير من فترة عن تأثير وسائل الإعلام في عقول الناس، ولو قسنا التأثير ده على الأفلام كمان، أعتقد النتيجة هتكون واحدة.

يقول فؤاد:

ـ ووصلتي لإيه؟

ـ اكتشفت إن الفكرة اللي كنت مقتنعة بيها عن إن وسائل الإعلام هي اللي بتمشي الناس وتسيطر على عقولهم، كانت غلط، أو على الأقل ماينفعش تكون حقيقة مطلقة.

بالطبع كمال لا يعجبه هذا الكلام، ويقول بسخرية:

ـ ازاي يعني؟

رشدي السيوفي يضحك بصوت مرتفع ويوجه حديثه إلى كمال:

ـ إنت إيه حكايتك يا عم؟

الدكتور فؤاد يلوم رشدي بهزة من رأسه، ثم يشير لماهيتاب أن تكمل، فتقول:

ـ اشتغلت على أكتر قنوات فضائية مختلفة في المبادئ والأفكار والتناول، وعملت شريحة بتتكون من اتنين ستات بيوت أعمارهم فوق الخمسين ومستواهم الفكري تقريبا واحد، وكانت كل واحدة مقتنعة تماما بالأفكار المعروضة على القناة اللي بتتابعها، وضد كل اللي بيتعرض على القناة التانية.

تقول سلمى:

fb/mashro3pdf

ـ وده كان معناه إيه؟

تنظر ماهيتاب إلى سلمى وتقول:

ـ معناه إن كل واحدة فيهم اختارت بنفسها الأفكار اللي تتفرج عليها، من غير ضغط أو غيره، وبما إن مستواهم الفكري واحد، يبقى مش هنقدر نحكم على أي واحدة منهم بإنها مضحوك عليها أو بتعرض لتأثير. لو اختلف شخصين مستواهم العقلي واحد على حاجة، يبقى كل واحد فيهم لقي الفكرة اللي بيؤمن بيها أو اللي مصدقها، في الحاجة اللي بيتابعها، يعني اختار، والاختيار إرادة.

كمال لا يبدو عليه الاقتناع بالطبع، أما السيوفي فأخذ يتابع الموقف بلامبالاة حقيقية، وتنظر إلى المدعو عبد السلام يوسف وتملكك شعور غريب تجاهه، هذا الشخص لم يتدخل في النقاش لكنه يركز فيه بصورة مدهشة كما لو كان يسجل تفاصيل اللقاء لغرض ما في نفسه، أما الدكتور فؤاد فراح يدون شيئا ما في أوراقه، ورحت أنت تتابع ملامح معشوقتك عسى أن ترى منها التفاتة أو تتقابل عيونكما، وهو ما لم يحدث بالطبع.

* * *

fb/mashro3pdf

(٤)

بعد أن انتهت جلسة الاستماع كان كل ما تفكر فيه هو أن تذهب إلى فريدة وتتحدث معها، لا تعرف عن أي شيء، لكن فكرة الحديث معها تتملكك بصورة جعلت ترددك وعجزك لا أثر لهما على أعصابك اللينة، تتجه ناحية الممر الذي يصل بالغرف في الطابق الثاني، هناك بالقرب من غرفة المعشوقة، تراها واقفة تتحدث مع عبد السلام! الآن فقط اكتشفت أن عبد السلام لا يعاني الخرس! تتابع الموقف من بعيد متساءلا عن كنه حديثهما، الآن صار لك غريمان إذن، السيوفي وعبد السلام، وكلاهما لا يريحك أصلا. يبدو أنهما أنهيا حديثهما، تدخل فريدة غرفتها وتغلق الباب، في حين تبدو على عبد السلام سعادة غامضة من السهل تخيل مصدرها!

يتحرك عبد السلام ويمر بك ويلقي عليك نظرة لا معنى لها، ثم يكمل طريقه وكأنك غير موجود، إطار منسي معلق على حائط من دون صورة تزينه! تتابعه وهو ينزل الدرج وتعاود النظر إلى غرفة فريدة،

fb/mashro3pdf

حسنا، سوف تطرق الباب وتقبلها مباشرة! يا لك من مغفل، عليك أن المق السلام أولا، تعدل من مظهرك وتطيل النظر إلى باب الغرفة.

* * *

أنت الآن داخل غرفة فريدة، هي تجلس على السرير وتنظر إليك وكأنها تنرجاك أن تأتي إليها، الخيال أصبح حقيقة الآن فحرك ساقيك قليلا أيها الغبي، تتجه إليها وتتذكر كم المقاطع الجنسية التي قرأتها في رواياتك إياها، تتمنى أن تعرف المعنى الفعلي لعبارة «تئن الأريكة المتهالكة من وطأة الحركة المحمومة!» خيالك كان يترجمها فماذا عن الواقع؟

تتجه ناحيتها وتحتضنها، وتغيبان في قبلة لم تعرفا كم طالت، وتحرك يديك على ظهرها فتشعر بالحرارة تتصاعد إلى وجنتيها، الآن صارت الغرفة قطعة من الجنة، لا جدران ولا أثر لمخلوق حولكما، أنتما فقط، وتتنهد فريدة وهي بين ذراعيك وتسمعها وهي تقول لك...

ـ إنت يا زفت.

متى دخل الدكتور فؤاد إلى الغرفة؟ ألا حرمة في تلك المصحة؟ وتكتشف أنك ما زلت على حالك واقفا بالقرب من غرفة فريدة، تنظر إلى الباب المغلق ببلاهة، يا لخيالك الأحمق، حتى في أكثر لحظاتك بحثا عن الحقيقة، تجده قد اقتحم واقعك وحوله إلى رحلة جديدة في الخيال.

تنظر إلى الدكتور فؤاد الذي يبدو أنه قد أطال النداء عليك.

ـ أؤمر يا دكتور؟

ـ إنت واقف متسمر هنا كده ليه؟

ـ لا أبدا، أصل...

fb/mashro3pdf

ـ عايزك تروح لدكتور شريف هيديك شوية تقارير تجيبها لي على طول.

يتركك ويمضي وتنسى أنه جاء، سوف تدخل إلى فريدة وليحدث بعدها ما يحدث.

تطرق باب غرفتها فلا تسمع أنت نفسك صوت الطرق! وكأنك تريد التراجع من دون أن تقدم على ذلك فعليا! اضطراب يشوبك لكن لا مجال للتراجع، إما الآن وإما لا للأبد، وتطرق الباب من جديد لكن تلك المرة يصل إليك صوت فريدة من الداخل وهي تقترب من الباب، تفتح لك وتسمر أنت في مكانك محدقا في ملامحها، هلت شمس النهار على قرص من «الجِلة»! تنظر هي إليك باستغراب متسائل، وتلاحظ أنت أن أرضية الغرفة في حاجة إلى تنظيف! لا تقوى على النظر إليها وتتخيلها بين أحضانك، يا لك من مغفل.

تقول لك:

ـ نعم.

تتلعثم أنت كأنك فتاة بضفائر تعيش في عصر الحريم! وتقول لها:

ـ كنت عايز أتكلم مع حضرتك شوية!

حضرتك؟ لكم أنت تعس ومظهرك يغري بالعديد من الإفيهات الإباحية الساخرة!

ـ تتكلم معايا؟ في إيه؟

ـ أنا كنت حاضر الجلسة معاكم ولاحظت إنك كنتي متوترة قوي!

ـ أفندم؟

fb/mashro3pdf

لقد قلت جملتين كاملتين وهو إنجاز كما تعلم، قل الجملة الثالثة واركض بسرعة إذن!

ـ أبدا بس حسيت إني ممكن أساعد في حاجة.

ـ لا متشكرة.

تهز لك رأسها وتغلق الباب، يخبو ضوء النهار ويجف قرص «الجِلة»! وتقول لنفسك معزيا إنها بداية جيدة لشيء لن يحدث في الغالب! على الأقل شعرت بنظراتها وهي تجوب ملامحك، فأشفقت على عينيها من آثار رؤيتك! تنظر قليلا إلى الباب المغلق ثم تعود أدراجك خالي الوفاض، وتشعر كأن هناك بصمات جديدة قد اتخذت لنفسها مكانا حديثا على خلايا قفاك العتيقة!

* * *

تنهي ما طلبه منك الدكتور فؤاد سريعا، ثم تخرج إلى الباحة الخارجية للمصحة، علك تنعم بسيجارة تنسيك هزيمتك الجديدة.

عند المقاعد الحجرية ترى السيوفي وعبد السلام جالسين معا فتبتسم، وكأن الكون قرر أن يؤطر الصورة النفسية لك بهذا المشهد، تبتسم وأنت تشعل السيجارة، على مقعد آخر ترى سامح جالسا مع ماهيتاب ويبدو أنهما مستغرقان في حوارا ممتد، لعلهما يتحدثان بخصوص ما دار في الجلسة، لا يهم، في الناحية الأخرى ترى سلمى ويبدو أنها تحاول إقناع كمال بشيء ما، لكنه لا يعبأ بما تقول وكأنه لا يراها أصلا، وتنظر أنت ناحية نافذة غرفة فريدة فترى أنها تنظر ناحية السيوفي وعبد السلام وكأنها تفاضل بينهما، عليك أن تنصحها بأيهما عسى أن تتمكن من توفيق راسين في الحرام!

fb/mashro3pdf

يأتي إليك جمعة عامل البوفية يسألك إن كنت ستأكل معهم، تمنحه ثمن علبة كشري وتكمل تدخين سيجارتك، وتتساءل: إذا كان مقدرا لك أن تظل منبوذا فلماذا تكمل حياتك بالأساس؟ قطعة من القماش اهترئت وغابت ملامحها بفضل الأوساخ منسية بجوار صفيحة قمامة! تطرد الخاطر عن ذهنك وأنت تلمح السيوفي وهو ينظر ناحيتك! ماذا تريد أيها المغفل؟ تشيح بوجهك أكثر من مرة لكنك حينما تعاود النظر إليه من جديد تجده ما زال ينظر إليك! يا لأثر نظراته في أعصابك، تطفئ السيجارة وتقرر أن تعود إلى الداخل، لكنك تجده يتجه ناحيتك مبتسما، لترَ ماذا يريد أولا قبل أن تلكمه في وجهه!

يقول لك:

ـ اسم الكريم إيه؟

ـ زغلول.

ـ صباح الفل يا زغلول، بقولك إيه، لو احتجت حاجة خصوصي ممكن أطلبها منك؟

ـ تؤمر!

ـ أنا عارف إنك برنس هنا، من قبل ما تيجي مجموعتنا كمان، عشان كده جيت لك.

ـ أي خدمة.

ـ حبيبي!

يتركك عائدا من جديد إلى عبد السلام لتتساءل في حيرة عن كنه ما سيطلبه منك، ولماذا لم يفعل أصلا، فقط يتأكد لديك شعورك الأول،

fb/mashro3pdf

ا ، تكره هذا الرجل، وتودده إلى فريدة ليس السبب الأساسي، أنت ، ره مثلما يفعل الجميع معك وفقط! ومن دون إبداء أسباب منطقية.

ننظر ناحيته فتجده هو وعبد السلام ينظران إليك فتعرف أنهما ، حدثان بخصوصك! حسنا، عليك أن تبرح مكانك وإلا أحدثت .طرانهما ثقوبا جديدة في جسدك.

تعود مرة أخرى إلى غرفة الممرضين لتتأكد من تجهيز الجرعة الجديدة ،ن الأدوية، ولا بأس طبعا بالقليل من التأنيب للممرضين الأقل منك ،رتبة، حالتك النفسية تحتاج إلى بعض من التعويض، تنتهي من وصلة الردح فتشعر بالقليل من الراحة، ويشغلك طلب السيوفي الغامض، ماذا يريد منك هذا العجوز؟ ما رأيك لو رفضت الطلب أيا كان نوعه؟ سيكون انتصارا جيدا بالنسبة إليك، وأنت تمثل مساحة جيدة للهزائم المتكررة، لكن ربما لا يكون كذلك بالنسبة إليه؟ قد يطلبه من أي ممرض اخر؟ تطرد عن ذهنك كل هذا منتظرا أن تعرف ماهية الطلب أولا لتقرر بعدها.

* * *

fb/mashro3pdf

(٥)

في غرفة الطعام ترى أفراد المجموعة حول الطاولة يلتهمون عشاءهم، وكنت أنت واقفا على مبعدة منهم تتابع حركاتهم وسكناتهم، كان ينقصك فقط أن تمسك «دورق» المياه لتتقمص دور عبده السفرجي الأثير، معشوقتك سارحة في الفراغ وتلاحظ أنها لم تمس طبقها، وترى السيوفي الجالس بجوارها وهو يتقمص دور عمر الشريف راسما على وجهه ملامح رومانسية تقطر رقة وهو يدعوها إلى أن تأكل، فلتطعمها في فمها مباشرة أفضل أيها العجوز، فريدة تبتسم له وتمسك الشوكة وتحاول أن تنسجم مع الجو، أنت تخاطبها بحضرتك وتظن أنك غريم لهذا الرجل؟ يا لحماقتك!

تتركهم للحظات لإنجاز شيء ما، وحينما تعود تفهم أنهم يتناقشون بخصوص أمر لا تدري كنهه، وتلاحظ أن السيوفي كما بدا لك من حركاته، يقترح عليهم فكرة ما لكنها لا تصل إلى مسمعك، بعضهم يبدي استحسانا لما يقال، والبعض الآخر يعترض بتردد مشوب بقلق، تدفع ما تبقى لك من عمر لتعرف ما الذي يدور بينهم الآن، تشعر أن

fb/mashro3pdf

معشوقتك هي الأكثر اعتراضا، ما الذي تخشينه يا عزيزتي؟ قليلا وترمي فريدة المنشفة على المنضدة وتخرج من الغرفة في حين يتابعها الجميع في صمت. إن كان فضولك قيراطا قبل هذا الموقف فقد صار فدانا الآن!

في اليوم التالي جاء إليك السيوفي، أعطاك علبة سجائر لزوم عربون المحبة وابتسم في وجهك! كنتما في الباحة الخارجية للمصحة، وكنت تراه قبل أن يجيئك وهو جالس وحوله المجموعة كلها، معشوقتك كانت تجلس بجواره وكأنها تمكنت أخيرا من المفاضلة بينه وعبد السلام، واختارت عدوك العجوز، وكنت أنت تتابع جلستهم مرتابا مما يدور، بالتأكيد ما زالوا يناقشون ما بدأوه بالأمس، لكن فريدة لا تبدي هذه المرة اعتراضا مثلما كانت من قبل، يبدو أن العجوز استخدم معها أسلحته كلها، عليك أن تأخذ دورة تدريبية لدى هذا الرجل من أجل تحسين أداء لا تملكه! يتحدثون بصوت خفيض لا يصلك منه إلا الهمهمات، ويبدو أن هناك موجة خفيفة من الاعتراض بخصوص الأمر الذي لا تدركه. بعد أن هدأت عاصفة المناقشة قرر السيوفي أن يأتي إليك، حسنا يا عزيزي هات ما عندك.

يقول لك:

ـ إنت فاكر امبارح قلت لك إني هحتاجك في طلب.

ـ فاكر طبعا.

ـ إحنا عايزين نخرج كام ساعة برة المصحة.

تنظر إليه وتشعر للحظة أنك لم تسمعه جيدا، يبتسم لك بتودد وكأنه يترجاك لكن في صمت، حسنا فلتعتبر هذا الرجاء هدفا لك في شباكه.

fb/mashro3pdf

تقول له:

ـ مش فاهم.

ـ عايزينك تظبط لنا الدنيا عشان نخرج برة المصحة كام ساعة كده ونرجع تاني.

ـ ليه؟

ـ بلاش تسأل أسئلة مانخصكش.

النتيجة تعادل الآن.

ـ أيوة اللي بتطلبه ده...

ـ ٥ آلاف جنيه.

يصدمك الرقم، ونبرة صوت الرجل، هذا الرجل سيفعل ما يريد حتى وإن لم تساعده أنت في هذا، يبدو أن هذه هي الفكرة التي كانوا يتناقشون بشأنها منذ الأمس، لكن لم يا ترى يفكر السيوفي بالذات في اقتراح شيء مثل هذا؟

ـماينفعش.

ـ لأ هينفع، وخليك حلو عشان أحبك.

ـ يا باشا إنت في مصحة، مش في سينما وعايز تخرج قبل الفيلم ما يخلص.

ـ لو إنت مش هتعرف تظبط لنا الموضوع ده هشوف غيرك، فكر ورد عليا.

يتركك ويعود إلى المجموعة من جديد، وتستمر أنت في مكانك،

fb/mashro3pdf

،مخر في عرض الرجل، ليست الأزمة لديك في خروجهم، فليذهبوا
جميعا إلى الجحيم ما عدا فريدة، لكن لماذا يريدون الخروج من المصحة
بهذا الشكل؟ لاحظ أنهم يستطيعون ترك المصحة أصلا وأن يعودوا إلى
ديارهم ولينتهي الموضوع، فقط يأتي كل منهم بضامن لاستلامه، فهذا
ليس سجنا كما تعلم، في الأمر لغز يتوقف على صاحب الاقتراح، وإن
كان السيوفي هو هذا الرجل، فالأمر في حاجة إلى تفكير فعلي قبل أن تتخذ
قرارا بالقبول أو الرفض، أنت مطالب بقرار ما يخص جمعا من البشر، هذا
انتصارا في حد ذاته أيا كان ردك عليه، فلتسعد قليلا أيها التعس!

* * *

fb/mashro3pdf

(٦)

لم تستطع أن تكف عن التفكير في طلب السيوفي، وكأنه صار محورا جديدا في حياتك تدور حوله كل التفاصيل، حتى في لحظات المتعة الخادعة كان يقفز صوته إلى ذهنك فيفسد عليك اللحظة.

الغريب أن ترددك لم يكن له أي علاقة بمدى صواب أو خطأ تسهيلك خروجهم من المصحة، قدر ما كان محاولة منك لأن تقول «لا» وبالأخص في وجه السيوفي، أنت في حاجة إلى تلك اللحظة وهذا الشعور، تعرف أن إشكاليتك الكبرى أنك لم تملك يوما حق الرفض في وقت كان الكل يرفضون، والآن فقط جاءت إليك الفرصة، يا لها من متعة! أنت أيها السيوفي، فلتذهب بنقودك إلى الجحيم! تتخيلك هناك وأنت ترمي النقود في وجهه مثلما يفعلون في الأفلام، فتغمره الهزيمة وتتلحف أنت ثوب الانتصار! ما يعذبك في كل هذا هو أنك تعرف أنه سيتمكن من تحقيق ما يريد، بك أو من دونك، والخمسة آلاف جنيه رقم جدير بالمحاولة، وإن كنت تبحث عن انتصار بلا قيمة فماذا عن هزيمة لها ثمن؟

تطوف بك الكآبة كلما تقابلت عيونك مع السيوفي، ابتسامته تقول

fb/mashro3pdf

الك إن «الوقت ينفد فافعل قبل أن يغمرني الملل»! وتساءل: إذا كان الرجل يملك تلك النظرات القوية والقدرة على التأثير في من حوله، فكيف يعاني الاكتئاب؟ أحيانا تشعر أنه أقوى من الحياة! لكنك تعرف أن ضعفك هو السبب الحقيقي لقوة الآخرين، هذا الرجل يشكل كل ما كنت تتمناه ولم تستطع الوصول إليه يوما، فكيف تجرؤ على رفض طلب له؟ إنه بالنسبة إليك الإله الجديد بعبوديتك، فهل تجرؤ على الإلحاد؟

مع الوقت استطعت التوصل إلى حل يرضي الطرفين، العبد والإله! إن كنت لا تملك من الرفض بدا فمن العار أن توافق بلا ثمن! تتجه ناحيته وقد وضعت يديك في جيبي معطفك فبدوت أشبه برجال المافيا حينما يصورونهم في أفلام البارودي الساخرة! وتقول له:

- بكرة الساعة ١١ بالليل، أنا هاخد وردية ليل عشان الموضوع ده، والساعة ٦ بالدقيقة تكونوا في المصحة.

تقولها وتتركه ظنا منك أنك ربحت، لكنك لم تستطع أن تنكر إحساسك بالبصمات الجديدة التي اتخذت من خلايا قفاك العتيقة ملاذا جديدا لها!

* * *

fb/mashro3pdf

(٧)

لم يكن تبديل الوردية صعبا بالنسبة إليك، حسن مسؤول وردية الليل حبيبك كما تعلم، حتى وإن كان عدوك فللموافقة ثمن، وأنت تعرف كيف تقدر هذا الثمن.

اتجهت ناحيته وقلت له:

- صباح الفل يا حسن، عايزك في خدمة.

- أؤمرني.

- نبدل ورديات بكرة.

- اشمعنى؟

- عارف إنك لما تنام مع مراتك بالليل بتبقى حاجة تانية.

فينفجر ضاحكا ويقول لك:

- لأ وانت برنس في الحكاية دي.

fb/mashro3pdf

ـ اسمع مني ماتتريقش، أنا بقول لك الصح.

ـ أيوة بس افرض اني مش عايز أنام معاها؟

ـ هو في واحد ميقاش عايز ينام مع مراته برضه؟

ـ والدكتور فؤاد؟

ـ أنا قلت له خلاص متقلقش.

ـ قلت له إيه؟

ـ إنك عايز تنام مع مراتك!

ـ نعم؟

ـ يا عم بهزر.

ثم تخرج من جيبك نصف شريط ترامادول وتعطيه له، فتصيبه الدهشة، متى كانت الكلاب تهدي بعضها شيكولاتة؟

ـ جرب وادعي لي.

ـ إنت إيه حكايتك؟

ـ يا عم مفيش حكاية، عايز أقضي وردية بالليل.

ـ عموما ماشي، بس شكلك وراك مصيبة.

ينتهي الأمر بسهولة كما توقعت، وستكون المرحلة التالية مع الضاوي عامل الأمن الذي يبيت ليله يحرس البوابة، هو على كل حال يبدأ رحلة نومه مع الساعة العاشرة والنصف، لا داعي للقلق بخصوصه، هنا لا يبقى إلا شيء أخير.

fb/mashro3pdf

تقول للسيوفي:

ـ فلوسك.

فيخرج من جيبه المبلغ ويعطيه لك، وتلاحظ وأنت في وسط نشوة عد النقود أنه لم يشكرك، عموما أنت لا تنتظر من الرب شكرا، أنت الأحرى بهذا!

* * *

في الليلة الموعودة تأتي المعازيم من أجل حضور فرح لا تعرف تفاصيله.

ترى معشوقتك وهو تسير بجوار السيوفي، يميل عليها ويقول لها شيئا لم تسمعه لكن خيالك تكفل بترجمته لك، العجوز يعد «الملفاية» بليلة سوف تخرجها من غمرة الاكتئاب، كم أود أن أراك يا عزيزتي وأنت تتأوهين من المتعة! سامح يسير بجوار ماهيتاب وسلمى تتأبط ذراع كمال، يبدو أنها حفلة جنس جماعي كنت تود أن تشارك فيها ولو بإحضار المشروبات أو حتى بتغيير ملاءات السرير!

عبد السلام بدا أكثرهم ترددا، يقدم ساقا وتتلعثم أخرى، لكنه في النهاية كان معهم هناك، بعد أن غابوا عن نظرك في الظلام.

تغلق البوابة وتُرجِع المفاتيح إلى جثة الضاوي النائمة، ثم تعود إلى داخل المصحة محاولا الغياب عن الوعي حتى ما قبل السادسة بقليل، تخرج من جيبك سيجارتي الحشيش اللتين جلبتهما معك من أجل حرق الوقت ولإخماد لحظي لأعصابك، تشعل واحدة وأنت تجلس وحيدا وتغمزك كآبة سريعة، ماذا لو لم يعودوا إلى المصحة؟ ليست المشكلة

fb/mashro3pdf

الأساسية في ما سيحدث معك إذا افتضح الأمر، بقدر ما أنه يعني أنك لن ترى المعشوقة مرة أخرى، وتفكر أن تصعد إلى غرفتها علك تستمتع بعبق أنفاسها التي تملأ الغرفة لكن التردد يمنعك.

تطوف بك ملامح أنتيكة فتترحم عليه، وتتساءل: إن كنت قويا بما يكفي للإجهاز على حياة أحدهم فأين مشكلتك أصلا؟ قاتل يعاني الوحدة ولا يجرؤ على الدخول في علاقة مع إحداهن، هو قاتل يستحق الشفقة لو أردت رأيي، وتشعر بقشعريرة خاطفة مع وقع كلمة «قاتل» ربما لو قرأت الكلمة بالعكس لتمكنت من الوصول إلى تفسير واضح لشخصيتك يريحك إلى الأبد، وتحاول قراءة الكلمة معكوسة فلا تصل إلا إلى شهادة جديدة على بلاهتك «اسم نهر في النرويج - قاتل معكوسة» لا أنت تعرف اسم النهر ولا أنت تحب الكوسة!

تشعر أن سيجارة الحشيش بدأت تلعب لعبتها معك فتغفو قليلا، وترى في ما يرى النائم ذو المؤخرة العارية، أنك تتحرك في أحد الأزقة تنادي باسم لا تدركه، هناك أطفال يركضون خلفك ويصفعونك على قفاك (ليس قفاك لو أردت رأيي) على الجدران من حولك عشرات الجثث معلقة وكلها تملك ملامح أنتيكة، على مبعدة منك ترى جمعا غفيرا من البشر يشيرون إليك بإصرار، وتستمر أنت في مكانك تحاول أن تفهم ما يدور، الرمال تعلو فتفهم أنهم يركضون ناحيتك، ١٥٠ فريقا يتكون كل منهم من ١١ لاعبا يركضون ناحية الكرة، وتكتشف متأخرا أنك تمثل الكرة في هذا الحلم، قربة من القماش يملأها الهواء، ويقترب الجمع منك أكثر فتجدهم جميعا نسخا مكررة من معشوقتك الأبدية فريدة، وتبتسم مناديا «تعالي يا فريدة» ركلة تأتيك من الخلف فترى السيوفي هو صاحبها، عبد السلام وباقي المجموعة يضحكون بهيستيريا، وتكتشف أنك

fb/mashro3pdf

لا ترتدي بنطالك، أين ذهب هذا اللعين؟ بعد قليل ترى جثث أنتيكة وهي تبدأ في التحرر وتتحرك ناحيتك، ضحكات هستيرية تختلط بصراخ يأتي من مكان لا تدركه، وتضحك أنت للمشهد منتظرا كلمة النهاية التي تأتيك وأنت تسقط من على المقعد في غرفة المرضين، فيصطدم رأسك بالأرض وتغلبك موجة هيستيرية من الضحك.

تتأكد أنك ما زلت ترتدي بنطالك وتنظر إلى الساعة، إنها السادسة إلا قليلا، تلم بقايا الحشيش في جيبك وتهرع إلى الحمام، تغسل وجهك بقليل من الماء وتأخذ نفسا كان كفيلا بأن تفهم أين أنت بالضبط، تخرج من مبنى المصحة متجها ناحية الضاوي الذي ترى أنه نائم كالأموات، تأخذ المفاتيح من جيبه وتفتح البوابة وتنظر إلى الشارع أمامك في انتظار وصول السادة المعازيم.

الساعة الآن السادسة والربع فهل حدث ما كنت تخشاه؟ يتملكك الهلع بعض الشيء وتندم أنك لم تقض ليلتك في غرفة المعشوقة، ولا تنسى أن تترحم على أنتيكة ثم تعترف أن سيجارة الحشيش لم تكن جيدة، جو الصبح النقي يزيد من توترك ويدفعك إلى السعال الميت، صوت الصلصلة يأتيك من داخل صدرك فتبتسم للونس الذي كفله لك، سوف تنفجر رئتاك الآن.

يختفي هلعك بمجرد أن ترى أشباحهم تلوح في الأفق، يتحركون ناحية مبنى المصحة، يجرون أجسادهم وكأنهم محملين بمزيد من الألم والإرهاق، ٧ أفراد بالتمام والكمال فلا خسائر في الأمر، وتغمرك الراحة وتنزاح الكآبة عنك ولو إلى حين، تدلف المجموعة المصحة ناظرين ناحيتك وتبادلهم أنت النظرات، ما لهم وقد ارتسمت على ملامحهم تلك الحالة من الكآبة والقلق؟ تنظر ناحية فريدة فتفهم أن هناك أمرا ما قد

fb/mashro3pdf

،فم بالخارج قد أثر فيها سلبا، يبدو أن العجوز لم يشبعك كما يجب يا م،رزقي. السيوفي يسير بمفرده ويبدو أنه كان سببا في هذا الأمر الذي وقع ،الخارج، لا غرابة في هذا، أما عبد السلام فبدا وكأنه يلوم نفسه على قرار مروجه معهم، ماذا حدث بالخارج؟ فليخبرني أحدكم والثمن إصبع من الحشيش؟ تتأكد أن المصحة قد احتوتهم فتغلق الباب وتضع المفاتيح في •يب الضاوي من جديد.

لقد انتهت الليلة الموعودة بالنسبة إليك، فهل فعلت بالنسبة إليهم؟

* * *

fb/mashro3pdf

(٨)

اختلفت العلاقات بين المجموعة منذ ذلك اليوم، السيوفي أصبح شبه منبوذ من الجميع ما عدا فريدة طبعا وهو ما زاد من حنقك، خصوصا وأنت لا تعرف له سببا، كمال وسلمى أصبحا يقضيان معظم الوقت معا، وكذا سامح وماهيتاب، وأنت والحشيش، أما عبد السلام فلم يزده الأمر إلا غموضا بالنسبة إليك، وكنت أنت تحاول التودد إلى السيوفي إعمالا لمبدأ إن لم تستطع أن تضرب أحدهم على وجهه فلتقبله إذن، وقد نجحت في هذا إلا قليلا.

أما حسن المرض فقد أعجبه أمر تغيير الورديات، وجاء إليك أكثر من مرة من أجل التبديل إياه وكنت أنت ترفض بالطبع، حينما أحتاج إليك سوف ألجأ! يبدو أن نصيحتك له كانت في محلها، لست مغفلا تماما إذن.

بعد هذا بنحو أسبوع، جاء وافد جديد لينضم إلى المجموعة التي صارت تتكون من ٨ أفراد الآن، شاب في نحو الثلاثين يدعى توفيق

fb/mashro3pdf

المصري، يعاني اكتئابا حادا حاول بسببه الانتحار أكثر من مرة، وتعاملت المجموعة معه بقليل من التحفظ في البداية، وبكثير من الود بعد ذلك، ..ه. كان شخصا جديرا بالمحبة بالفعل، ملامح طيبة وروحا خفيفة، آثر الانزواء وحيدا في البداية، لا يتحدث إلا لماما ولا يتحرك إلا بطلب من أحدهم، يقضي وقته وكأنه في انتظار الموت فلا يجيئه، إلا أنه مع الوقت تمكن من الانسجام مع المجموعة فصار كما لو كان واحدا من المرضى القدامى في المصحة.

قال لهم توفيق يوما في جلسة استماع:

ـ هو ليه الواحد ميقدرش يرجع شريط حياته لورا؟ يمكن ساعتها يقدر يغير حاجات كتير في اللي حصل.

فيقول له السيوفي بسخرية:

ـ أصل الحياة عاملة زي التليفزيونات القديمة، مالهاش ريموت.

ينهره الدكتور فؤاد بنظراته، لكن توفيق يبتسم ويقول:

ـ يا ريتها تكون عاملة حتى زي التليفزيونات القديمة، على الأقل وقت ما تحب، تقدر تطفيه أو تفصل عنه الكهرباء.

السيوفي تتملكه الدهشة، وتقول أنت للدكتور فؤاد:

ـ أجيب مهدئ؟

ـ لأ مافيش داعي.

تلاحظ نظرة الشفقة في عيني معشوقتك وهي تنظر إلى توفيق، في عيون الجميع في الحقيقة، لكنك تشعر أن فريدة هي أكثرهم رقة وعذوبة

fb/mashro3pdf

وتأثرا بما يحيط بها، هذه امرأة شفافة حاولت الحياة أن تمحو جميع تفاصيلها فما استطاعت، على الأقل بالنسبة إليك.

يقول توفيق وكأنه يحدث نفسه وليس المجموعة:

ـ كنت راجع أنا ولبنى مراتي وملك بنتي من مرسى مطروح، متهيألي لو كانت الدنيا وقفت عند اللحظة السعيدة دي، كان الواحد قال انها جديرة بإنها تتعاش، لكن واضح اني كنت مغفل.

يقول كمال بإشفاق:

ـ إيه اللي حصل؟

ـ عملنا حادثة، هم ماتوا وأنا كملت.

ثم ينظر مبتسما ناحية السيوفي وكأنه يرد على سخريته السابقة:

ـ الظاهر إن بطارية الريموت بتاعي كانت لسه ماباظتش.

فيغلب الصمت الأجواء وتشعر كما لو كان السيوفي يملك شعورا مثل باقي البشر، ملامحه تقول إنه ندم على ما قال، سامح وكمال وعبد السلام تغلبهم الكآبة، وترى ماهيتاب وسلمى وهما تبكيان بلا صوت، أما فريدة فكان لها واحد «ما الذي تذكرتيه يا عزيزتي وجعلك تنهارين بهذا الشكل؟» تركض إلى غرفتها محاولة أن تختفي من هنا الآن، سلمى وماهيتاب تلحقانها ويتبادل الجميع النظرات في صمت.

* * *

fb/mashro3pdf

(٩)

تحاول أكثر من مرة أن تتخذ قرارا بالذهاب إلى فريدة علك تنعم بالقليل من نظراتها ناحيتك، لكن البصمات إياها تمنعك من تكرار الهزيمة، وتتلحف بثوب اللامبالاة تجاهها، ظنا منك أن هذا سيلفت انتباهها، وحينها أسبك تغضب! لكنك تعرف أن تلك الوسيلة ناجزة فقد جربتها كثيرا، ما لا تطاله يداك تحاول نسيان حاجتك إليه، تنسى فترتاح، مطرب في بلد يعاني أهله الصمم، لا حاجة لديه لأن يتذكر موهبته أو بكيها، فعلتها طوال حياتك، فما الذي يمنعك من هذا الآن؟

تعود إلى رحلات المتعة الخادعة بعد فترة من الانقطاع، فتغرق في دوامة من الاكتئاب لم يعد لديك دافع حتى للخروج منها، وتغرق همومك في إطالة فترة عملك في المصحة، فلا تذهب إلى دارك إلا لتنام ساعتين أو ٣ حتى لا تترك لنفسك وقتا للتفكير في أمر لا تعرفه، وتتساءل: أما آن لخرقة القماش أن تجد لها منظفا؟ فلا تجد الخرقة وتعترف بكرهك للمنظفات.

يقف سامح عقب انتهاء إحدى جلسات الاستماع، وبعد أن خرج

fb/mashro3pdf

الدكتور فؤاد من الغرفة يود أن يقول شيئا للمجموعة، وتلاحظ أن ماهيتاب تنظر إليه مشجعة فيدو وكأنها اتفقا على أمر ما.

يقول سامح:

ـ أنا بافكر نعمل فيلم سوا.

تبادل المجموعة النظرات وكأنهم لم يفهموا ما يريد، وتتمنى أنت أن يكون فيلما إباحي أنت بطله، ويقول السيوفي:

ـ مش فاهم.

ـ نعمل فيلم عن وجودنا هنا، وهنفكر سوا نعمل إيه فيه، وكل واحد هيكتب شخصيته زي ما هو عايز يشوفها على الشاشة.

فيتدخل عبد السلام بحماسة استغربتها:

ـ أنا موافق جدا.

ويقول كمال:

ـ رياليتي شو؟

ـ مش بالظبط، تقدر تقول إنها شوية ريالتي على شوية روائي، الإسكريبت اللي هيحدد.

وتتدخل سلمى:

ـ ومين اللي هيكتب الإسكريبت؟

ـ هنقعد سوا نتفق على الشكل اللي عايزينه وهكتب أنا الإسكريبت، ومعايا ماهيتاب.

fb/mashro3pdf

فتدهش ماهيتاب، يبدو أن هذا الأمر لم يتضمنه اتفاقهما، وتقول:

ـ أنا؟ أنا عمري ما كتبت حاجة زي دي.

ـ كل حاجة وليها بداية، ولا انتي نسيتي إنك صحفية؟ على الأقل تعرفي تمسكي القلم.

ـ بس...

ـ مفيش بس، المهم يا جماعة إيه رأيكم؟

و تقول فريدة محاولة مجاراة الجو:

ـ بس هنا هيوافقوا على الموضوع ده؟

ويتدخل عبد السلام:

ـ نقدر نكلم الدكتور فؤاد، وهو يكلم الإدارة.

يقول السيوفي محاولا تثبيط الحماسة التي دبت في المجموعة:

ـ بس هو التصوير ده حاجة سهلة؟

فيضحك سامح ويقول:

ـ إنت نسيت إني مخرج؟ معدات التصوير أنا هبعت أجيبها، كاميرا فايف دي، كام مايك لتسجيل الصوت ومعدات بسيطة للإضاءة، وكمبيوتر عليه برنامج مونتاج، بس كده... الفيلم كله هيتصور هنا، وكل المراحل بتاعته هتخلص برضه هنا.

يتدخل الوافد الجديد للمرة الأولى:

ـ أنا بره الموضوع ده يا جماعة.

fb/mashro3pdf

فتعلو همهات الاعتراض من الجميع، وتقول معشوقتك:

ـ لو إنت مشتغلتش يا توفيق أنا كمان مش هشتغل.

ـ أرجوكي متعمليش كده، مش هكون مبسوط لو ده حصل.

وتقول سلمى:

ـ وإحنا مش هنكون مبسوطين لو فيه حد ماشتركش.

ـ معلش يا جماعة.

يتدخل سامح:

ـ إيه مشكلتك في الموضوع؟

ـ ماعنديش مشكلة بس مش هقدر أساعد فيه.

ـ مين قال لك؟ مش يمكن أخرجك من هنا وتبقى ممثل محترف؟

يبتسم توفيق، ويقول كمال:

ـ خلينا نشوف الإسكربت لما يتكتب، شوف نفسك الأول على الورق وبعدين قرر.

أما السيوفي فلم يفوت الفرصة وقال:

ـ وبعدين يا عم ده فيلم هيشوفه ١٠ أو ١٥ واحد، ومتقلقش هنعمل لك ماكياج يظبط سحنتك شوية.

فينفجر الجميع في الضحك، وتوفيق معهم، وتتمنى أنت أن يكون لك دور في هذا الفيلم، أنت تعرف بالضبط ما تريد أن تفعله، سوف تتبول على الجميع أمام الكاميرا وسط تصفيق حاد يليق بموهبتك العظيمة في

fb/mashro3pdf

ا ول على الآخرين، جربته كثيرا في خيالك فماذا عن الواقع؟

* * *

نرى عبد السلام واقفا يتحدث مع الدكتور فؤاد في الباحة الخارجية المصحة، صوتهما الخفيض أرهقك حتى وصل إليك بعض منه.

قال عبد السلام:

ـ صدقني ده هيفيد المجموعة كلها.

فؤاد يفكر ثم يقول:

ـ دكتور شريف مش حابب الفكرة.

ـ اتناقش معاه وحاول تقنعه.

تستغرب أنت لهجة عبد السلام في الحديث مع فؤاد، وكأنهما زميلان وليس مريضا وطبيبه، ويتأكد لديك شعورك الأول تجاه عبد السلام، إنه الرجل الغامض بسلامته.

يقول فؤاد:

ـ هرد عليك بكرة.

ثم يفترقان.

* * *

في اليوم التالي زف عبد السلام إلى المجموعة خبر موافقة إدارة المصحة على الهراء الذي يريدونه، سامح وماهيتاب كانا الأكثر حماسة، خصوصا وأنهما كما فهمت سوف يتشاركان في كتابة أحداث الفيلم، ولا

fb/mashro3pdf

تكر أن الأجواء في المصحة قد اختلفت بعض الشيء بعد هذا الاقتراح، جلسات الاستماع صارت أكثر حيوية وتفاعلا بين المجموعة، حتى السيوفي بدا وكأنه قد أعجب بالأمر، توفيق بدا متحمسا على غير ما بدر منه في جلسة الاقتراح الأولى وبصورة أدهشتك، معشوقتك تبدي ملاحظاتها وتلاحظ أنت أن الهالات السوداء بدأت في الانحسار عن وجهها المقدس، ابتسامتها نفسها تغيرت كثيرا، كمال وسلمى أصبحا أكثر قربا كما لاحظت، خصوصا بعد أن صرت ترى سلمى أكثر من مرة وهي تدخل غرفة كمال ليلا فتتخيل ما يدور بالداخل، أما عبد السلام فكان على ما عهدته عليه، جلسات مناقشة تفاصيل الفيلم كان في أغلبها صامتا ولا يتدخل إلا إذا لاحظ الجميع صمته، وكأنه يؤدي دور جهاز التسجيل للحدث وليس أحد المشاركين فيه، دعك طبعا من ذهاب سامح كل ليلة إلى ماهيتاب في غرفتها بدافع العمل على إنجاز الفيلم! الكل داعرون يا عزيزي وأنت الناسك الطاهر الوحيد في هذا الكون، الجميع يتحرك من حولك إلى الأمام في حين تصر أنت على الحركة في مكانك، أنت الناسك الطاهر الكسيح في هذا الكون، وقد بدا أنك رضيت بالمقسوم فلا مجال للسعي نحو تغييره.

انتهت مرحلة كتابة الفيلم كما فهمت، والتي أكدت لك عددا من التفاصيل الخاصة بعلاقات شخوص المجموعة بعضهم مع بعض، والتي صارت معها أقرب لجمع من العشاق يتسكعون معا في نزهة وليس في مصحة للعلاج النفسي، فريدة تجاور السيوفي وسامح يهتم بماهيتاب وسلمى تهيم بكمال، وأنت تبصق عليهم جميعا ما عدا فريدة! وتتابع كل هذا بقليل من السخرية وكثير من الاكتئاب، أنت بمفردك في عالم يعج بالعلاقات المتشابكة، وكأنك قد قُدر لك أن تصير متفرجا على

fb/mashro3pdf

الدوام، وما أشد ألما للمتفرج من لحظة حاجته المشاركة في ما يرى، العين ، صر والقلب يعشق، لكن اليد أقصر من أن تطول، والقدم أضعف من أن تسير، والعقل أغبى من أن يفهم، والنفس أضعف من أن تقدم.

بعد هذا بفترة قصيرة، أرسل سامح في طلب معدات التصوير، غرفة الاستماع بدت أقرب إلى إستديو صغير لا ينقصه إلا المنتج الذي يصرخ .ألما من خراب بيته، تنزاح عنك الكآبة قليلا وأنت تبصرهم على ـالتهم الجديدة من الخبال الرسمي، تارة يتبادلون الضحكات وتارة ،علو صيحاتهم غضبا فتبتسم أنت لكل هذا، سامح تقمص دور المخرج القدير الذي عليه أن يوجه الجميع أمام الكاميرا، ولا مجال لمناقشته في ،ؤيته الإخراجية الغراء، كمال لا يعجبه الأمر فينصاع تارة وينفجر ،غضبا تارة أخرى، وكأنه ممثل من الصف الأول لا يليق به الدور المقترح، السيوفي اعتبر نفسه «مليجي» العصر الحديث، فلا يتحدث إلا وقد وضع يديه بين أزرار قميصه منبها في أكثر من مناسبة أنهم «كانوا رجالا ووقفوا وقفة رجال»! توفيق وعبد السلام كانا الأكثر هدوءا في تلك الجلسات، ماهيتاب وسلمى متعايشتان مع الأجواء كممثلات محترفات من عصر ما قبل السينما! أما فريدة، المعشوقة الأبدية المنتشرة في ثنايا قلبك العقيم، تنظر إلى كل هذا من عل، إنها الكيان المقدس في هذا المكان، واشتراكها في تلك الجلسات كان شفيعك للاهتمام، وهل يأبى الناسك أن يكون في حضرة معشوقته المقدسة؟

* * *

يقول لك سامح وهم في غمرة انشغالهم بالتصوير:

ـ تعالى يا زغلول.

fb/mashro3pdf

فتحرك ناحيته مدهوشا في البداية وخجلا في الأثناء، المجموعة كلها تنظر ناحيتك الآن فتتمنى أن تختفي فجأة.

- إيه رأيك تعمل دور في الفيلم؟

تتـــمر لحظات متـسائلا أما زلت في الواقع أم في خضم لحظة خيالية كعادتك دائما؟ وينعقد لسانك فلا تتمكن من الرد، وتفكر في المبلغ الذي ستطلبه مقابل بطولة فيلمك الجديد، لـست أقل حظا من دي نيرو أو جاري أولدمان أو أحمد زكي لو أردت رأيي!

وينظر سامح ناحيتك متـسائلا، فتقول:

- دور إيه؟

- اقف قدام الكاميرا وقول اللي ييجي في نفسك.

- زي إيه؟

فيقول السيوفي ليزيد من كراهيته في قلبك:

- أي حاجة يا عم، إنشالله تقول انك بتشكر الجماهير اللي بتساند فريقك النهاردة، وإنكم الحمد لله عملتوا اللي عليكم وإن اللعيبة طلعوا رجالة، وأنا هاجي أبوسك قدام الكاميرا.

ينفجر الجميع في الضحك وتشعر للحظات أن الأرض تهيم بك، إنها حزمة من الهزائم في وقت تتمنى فيه انتصارا صغيرا حجمه جرام واحد. ويقول سامح:

- ماتزعلش، بص تعالى اقف هنا وبص ناحيتي مش ناحية الكاميرا، وقول اللي ييجي على بالك، زي ما انت بالبالطو الأبيض كده.

fb/mashro3pdf

، ،تحرك خلف الكاميرا وتصمت القاعة وتتصبب أنت عرقا، ويقول
م.

ابدأ.

، نتهي! وتنظر ناحيته ثم تنظر إلى الكاميرا ويختفي لسانك في ظروف
، ،مضة، تضم قبضتك بهيستريا متمنيا أن ينتقل توترك وهلعك إلى
ام امك ليخرجا، فيستوطنان داخلك أكثر، وتحاول أن تفتح فمك
، امثم وتسمع صوت ضحكات خفيضة تصدر من خلفك، أنت المهرج
، ،م المتفرجون وبلاهتك هي البضاعة، ويزيد عرقك وتتمنى أن تصحو
، الكابوس، فلا تفعل ولا يفعل وحولك عدد من الفاعلين، تتملكك
ال بة في السعال فلا تعرف أتفعل أم تستأذن أولا؟ ويقول لك سامح:

.. هايل، كفاية كده عليك!

فينفجرون في الضحك ويموت جزء بداخلك كنت تظنه قد اختفى،
، حاول الحركة فتكتشف أن ساقيك قد غادرتا من دونك وأن الأرض
ر وبة وأن السمك يعيش في الماء، صوت ضحكاتهم الهيستيرية يطعنك
، شعر بآلاف البصمات الجديدة التي لم يعد لها مساحة كافية على خلايا
مماك العتيقة، فاتخذت من وجهك ورقبتك ملاذا بديلا لها. وتلف لتبصر
أفراد المجموعة الضاحكين الشاخرين فتموت أكثر، فريدة، المعشوقة
المقدسة الساكنة داخلك، خرجت الآن، تبصرها تضحك معهم فتقتلك
ا:ميتك من بعد موت، وتشعر وكأنك كخرقة بالية لم يعد بها مساحة من
نثرة الاهتراء، وتعترف بأنك لو كنت أبصرتها ساكنة لا تبدي انفعالا
،ما كان ليفرق معك الحدث، لكنها مشتركة معهم، والاشتراك هذا ثمنه
الدم. ترى أنتيكة واقفا معهم يضحك بهيستيريا فتلعنه وتعلنهم وتلعنك،

fb/mashro3pdf

سيل من اللعنات بداخلك يأبى حتى الخروج، لماذا لا تخرج عضوك الآن وتبول على الجميع؟ لم يكن أمامك إلا أن تختفي من هنا، والآن، وتعرف أنك لن تنسى، وتعترف بأنهم سيصيرون منسيين.

* * *

fb/mashro3pdf

(١٠)

في منزلك الكئيب تجلس مستعيدا لحظات موتك على صدى ضحكاتهم فتزداد مساحة الجرح داخلك، وترى أنتيكة واقفا في ركن الغرفة يضحك على حالك بهستيريا غريبة، فتفكر أن تقتله مرة أخرى لكن التردد يمنعك، وجوه المجموعة اتخذت من حائطك القذر ملاذا لها في كادرات ثابتة لضحكاتهم الساخرة، لتزيد من وطأة الأزمة على أعصابك، حتى فريدة كانت لها بصمات واضحة على السكين اللعين الذي طعنوك به، وتتساءل: منذ متى يهمك ما يفعله الآخرون بك؟! ولماذا يزداد الوجع داخلك كلما استرجعت اللحظة القاتلة، وأنت الذي اعتدت على أنه لا كرامة أو قيمة لشخصك اللعين؟ لا تعرف، وتتحرك ناحية المنضدة الكسيحة وتمسك السكين من عليها وفي عينيك نظرة مجنونة، هل هذا ما تريده حقا؟ وتتجه بالسكين ناحية الجدار وتحفر أسماء المجموعة على الجدار الجيري بسن السكين، والكراهية تقفز من عينيك، السيوفي \ سامح \ ماهيتاب \ كمال \ سلمى \ عبد السلام \ توفيق، وفريدة؟! تتمنى أن تختفي معشوقتك الأبدية من الحياة فعلا؟! قناوي

fb/mashro3pdf

لم يعـد قـادرا على رؤيـة هنومة مـع رجل آخر فقـرر قتلهـا ليتخلص من عذابه الأبدي، وتعترف، أنك جدير بشخصية قناوي، بهذيانها وتخبطاتها واحباطاتها، لكن كيف يكون المصير؟

تفكر في طلب إجازة من المصحة عل اختفاءك من المكان يمحو ولو بعضا من آثار الهزيمة، فلا تفعل، وتعوض هذا بمحاولتك تجنب حضور جلسات الاستماع، أو الوجود في مكان يجبرك على التفاعل مع أي من أفراد المجموعة، فتفشل، وتحاول التغلب على آثار الهزيمة العالقة بداخلك بأن تتفاعل بصورة أكبر معهم، فتنزوي، حتى المعشوقة صرت تتجنب النظر إلى وجهها محاولا أن تنساها، فتتذكر متألما، وكأن الحياة اشتركت في قتلهم إياك، فتلعنها وتلعنك.

يمر أسـبوعان على صفعتك المدوية وتعرف أن سامح قد انتهى من نسخة الفيلم، حالة من السعادة وجدت طريقها إلى أفراد المجموعة بعد أن تمكنوا معا من تنفيذ مشروع ما، وساعد الدكتور فؤاد في التحضير لعمل عرض خاص للفيلم، يضـم بجوار أفراد المجموعة عددا من الأطباء والمرضى، وبحضور الدكتور شريف مدير المصحة، فتجهزت غرفة الاستقبال لتكون جديرة بالحدث، وضعت شاشة البروجيكتور ووصلت بعدد من السماعات الموجودة في المستشفى، وتراصت المقاعد بصورة تتلاءم مع عرض سينمائي منتظر، وفكرت أنت في أن تجلب لهم سجادة أنيقة صبغت بلون الدم، لكنك لم تجد ما يكفيك منه ـ أي الدم ـ فتراجعت مؤقتا عن الفكرة.

يتأنق السـادة الممثلون وكأنهم في رحلة إلى مهرجان «كان» يتبخترون وسط الأضـواء السـاطعة غير الموجودة، مستمعين إلى دوي التصفيق الحاد الذي لا أثر له، وتتأبط العاشقات أذرع العاشقين، وتهيم الأرض من

fb/mashro3pdf

. . أفدامهم ويكف العالم من حولهم عن الضجيج، وتدخل أنت الحمام
ا. ل القميص الأحمر الذي قررت اليوم أن ترتديه، فتباهى بمظرهك
ال. ر بصفائح القمامة، وتقول لنفسك: إن لم يكن من الانزواء بد فحاول
ا. . أنى لقوم لن يبصروك!

بدأ العرض وتنتهي أنت، وتقف في آخر القاعة وحيدا محاولا
. اهدة ما تود ألا تراه، الشريط يدور الآن فيبدأ بلقطة واسعة
لا. صحة، ثم لقطة لمعشوقتك، تعترف أن سامح يقدر الجمال، وإلا
. . ان بدأ بالمعشوقة مشروعه، وتتواثب الصور أمام عينيك وتسمع
. . ارا يدور على الشاشة كنت قد حضرت تصويره، فيغلبك إحساس
. . . ض لا تقدر على وصفه، موسيقى رقيقة في بعض المناطق من الفيلم
. طيه سمتا يليق بأفلام حسن الإمام التي تكرهها، ويصل الفيلم إلى
. . هد قتلك فتتواثب عضلة قلبك محاولة اختراق عظام رئتيك، القتلة
. شاهدون عرضا حيا لإحدى جرائمهم وسط تصفيق من المشاهدين،
. . ا أخرجوا سكينا وطعنوك، وترى لقطة للمجموعة وهم يضحكون
. عرف علام، وتركز الكاميرا على ملامح فريدة وهي تضحك فتموت
. ن بعد موت، ويتردد صدى ضحكتها على مسمعك كأنه الصمم،
ويلازمك حتى وأنت تركض من القاعة سريعا، علك تتمكن من
الحفاظ على عقلك من الخبال، تدخل غرفة المرضين بحثا عن أحد
المهدئات، وتسمع دوي تصفيق من القاعة فتنحني لهم محيا وتتقيأ على
الأرض، وتعترف بأن أقسى أنواع الحروب هي تلك التي لم تشترك
فيها، وتدفع ثمنها كاملا.

* * *

سمعت أن الفيلم جدير بالمشاهدة فعلا فقررت ألا تفعل...

fb/mashro3pdf

كمال الذي كان يسخر من سامح، يبدو أنه قد غير رأيه فيه بصورة كاملة فصارا كما الأصدقاء، المعشوقة صارت أجمل الآن بعد أن تورد خداها، وكأن هناك عريسا يدق بابها بإصرار، سلمى وماهيتاب أصبحتا على مشارف الشفاء الكامل كما أبلغك الدكتور فؤاد، فدب في صدرك القلق من أن تلحق بهما فريدة ويصير وجودها في المصحة مسألة أيام، أما السيوفي فقد بدا أن الفيلم كان فرصة مناسبة جدا له للتقرب من فريدة، التي تقول نظراتها إنها أصبحت هائمة به، عبد السلام يغيب كثيرا في غرفته، وشاهدته أنت أكثر من مرة وهو يدون شيئا ما في دفتر ضخم بتركيز شديد، الوافد الجديد صار أيقونة المجموعة بعد أن اعترف الجميع بقدرته الكبيرة على التمثيل، ووعده سامح باستخدامه في أفلام أخرى في ما بعد، الخلاصة، كان هذا المشروع خطوة كبرى في طريق علاج المجموعة، ونقلة كبرى في طريق هزائمك.

بعد ذلك بعدة أيام قرر توفيق، بما أنه صاحب الاحتفاء الأكبر، أن يقيم حفلا في المصحة لمناسبة مشروع الفيلم، أخذ موافقة دكتور فؤاد وتكفل هو بجميع المصاريف، تزينت أرجاء المصحة لتناسب اليوم، بخلاف أطنان الحلوى وكمية المشروبات، فأكل الجميع وشربوا، وكان يوما موعودا لن ينساه أي ممن بالمصحة، حتى عمال الأمن والنظافة شاركوا الأطباء والإدارة في الاحتفال، إلا أنت، كنت تتابع الموقف من مسافة كافية، لترى معشوقتك وهي تميل على السيوفي وتضع في أذنيه من كلماتها قطرات، كمال وسلمى يرقصان على الأنغام التي تنبعث من مكان ما، وكذا فعل سامح وماهيتاب، البسمة تزين الوجوه والألم يعصر قلبك، وكأنك مريض بالجذام قرروا أن يعزلوه عن الجميع، فارتضى بالعزل مصيرا، وتدخل غرفة المرضين وحدك محاولا أن تتخيل امرأتك

fb/mashro3pdf

المائبة وهي ترقص بين ذراعيك، لكن خيالك يخونك مثل الجميع ويأبى الانصياع، وتفكر في طريق للخلاص، فلا تجد له سبيلا.

* * *

يوم الحفل ليلا، وبعد أن انفض المولد، كنت قد قررت أن تواجه صبرك، سوف تذهب إلى فريدة وتتقيأ أمامها كل مشاعرك، وليحدث بعدها ما يحدث، الجن سئم مكانه في القمقم فبحث عن طريق للخروج، تتحرك بإصرار ناحية الطابق الثاني محاولا ارتداء زي لا يناسبك، وحينما تقترب من هناك تلمح السيوفي وهو يخرج من غرفتها فتتجمد، ويغمرك إحساس غريبا بالانهيار، الجن بعد أن سئم مكانه في القمقم ووجد طريقا للخروج فوجئ بصفعة على قفاه زلزلته، فقرر العودة من حيث جاء لاعنا قرار خروجه من البداية! وتتساءل: إن كنت تشاهدها معه بصورة مستمرة، فما الذي أدهشك بهذا الشكل؟ هي المرة الأولى التي تراه يخرج من غرفتها لكن ماذا في ذلك؟ المعطيات تؤدي إلى نتائج، هذا هو قانون الكون الذي لا تفهمه! وتتجرع من كأس امتلأ حتى آخره بالصديد، ينقبض صدرك وتشعر بالاختناق، فتركض إلى خارج المصحة على الهواء يتشلك مما تعاني، فلا يفعل.

تصل إلى منزلك سيرا على قدميك فلا تُدهش، ٥ ساعات هي لا شيء بالنسبة إلى سنين عمرك المنهكة، داخل الغرفة تجد أنتيكة جالسا يتسم لك، فتحييه وتجلس بجواره بأريحية الأصدقاء، وتتساءل: هل تبوح له بمكنون صدرك أم أن الموتى لا يسمعون؟ وتسند رأسك على الجدار بجوار أسمائهم المحفورة فتغيب عن الوعي، وتحلم بفريدة وهي في أحضان السيوفي فتشجعه ويشكرك، وتنتظر دورك في طابور لا نهاية

fb/mashro3pdf

له من أجل مصير لا تدركه، تصحو فجأة ليغلبك النعاس من جديد، وتتمنى أن تنتهي رحلتك في الحياة عند هذا الحد، فتأبي الانصياع لك، وتسمع أصواتا مختلطة لا تستطيع فك شفرتها فتنساها، نقطة سوداء صغيرة في منتصف الكادر تقترب منك حتى تبتلعك، وتغيب في الظلام، ويرتع هو بأريحية داخلك.

* * *

fb/mashro3pdf

(١١)

في اليوم التالي وبعد أن ذهبت إلى المصحة اصطدمت بالخبر...

في تمام الساعة الثامنة طرقت إحدى عاملات النظافة باب غرفة فريدة فلم تجب الأخيرة، العاملة تقرر أن تدخل الغرفة لتشاهد المشهد الجدير بأقسى أفلام الرعب بالنسبة إليك، فريدة ملقاه على الأرض سيل الدماء من ساعدها الأيمن المقدس، لقد قطعت شرايينها أو فعل أحدهم هذا بها، وفتحت أنت فمك ببلاهة وأنت تسمع الخبر، مطرقة قاسية حولت جمجمتك إلى كومة من التراب طارت مع أول نسمة هواء آتية، وتمنى للحظة أن تكون في غمرة كابوس كئيب من كوابيسك الأثيرة، فلا تتحقق أمنيتك، وتقف في الباحة الخارجية للمصحة تشاهد الحالة الهستيرية التي انتابت الجميع، لتزينها أنت بقولك الفصل، وتسقط على الأرض غائبا عن الوعي.

* * *

fb/mashro3pdf

كشف بيان الحالة/ تقرير أولي

الاسم: فريدة سالم بسيوني

تاريخ الميلاد: ١٤ فبراير ١٩٦٨

العنوان: ٧ ب مصطفى النحاس - مدينة نصر - القاهرة

المهنة: مديرة حسابات سابقة بشركة شادوينج للاستشارات العقارية

ملاحظات: وردت المريضة بواسطة صديقتها/ محسنة عبدالفتاح يونس بعد محاولة انتحار ناتجة عن حالة اكتئاب حادة بسبب أزمة شخصية تعرضت لها المريضة وهذا بناء على إخطار المرافقة.

التشخيص المبدئي: حالة اكتئاب حادة تم السيطرة اللحظية عليها بواسطة المهدئات الكبرى مع انتظار نتيجة التحاليل التي ستؤكد أو تنفي تعاطي المريضة للمخدرات.

طبيب/ فؤاد ذهني

fb/mashro3pdf

فريدة سالم

(١)

أقف في شرفة غرفتي بالمصحة، أتأمل الليل بالخارج وأغيب وسط موجة قوية من السكون، تتداخل مشاعري بصورة هي الأقسى منذ أن ولدت، وأتساءل: إن كانت الحياة بتلك القسوة فما الذي يجعلها جديرة بأن تحتوينا؟ فلا أجد إجابة شافية إلا التفكير مرة أخرى في محاولة التخلص من تلك الحياة، كومة من الورق احترقت وتناثر رمادها فما عاد لها وجود، وأشفق على نفسي من مصير لا أقدر على إعادة تنفيذه، لكنه يظل في كل الأحوال، هو الطريقة الوحيدة للتخلص من عناء مترسب كأنه القدر.

أتحرك ناحية المرآة وأتسمر أمامها قليلا، في تلك الملامح غابت ٤٥ عاما فكيف كان المصير؟ أحاول أن أتذكر بعضا من حكايتي فلا أجد لي من الذكرى نصيبا، وكأنها غابت وسط العتمة أو قررت الرحيل، أتذكر

fb/mashro3pdf

شكري فأبكيه، ظهر في حياتي في وقت أحتاجه فيه، وحينما أعاد إليّ الماء غاب فكان الجفاف.

أتأمل الجدران الأربعة من حولي وأتساءل: متى يأتي أوان الخروج؟ لكني أتسمر أمام الفكرة، ويزيد على سؤالي سؤال، هل أود حقا أن أخرج من هنا؟ لأين؟ ولأجل ماذا؟ سجين حكم عليه بالمؤبد ولا ينتظر قرار الإفراج، وأفكر في أن أرسل في طلب محسنة علها تؤانسني قليلا، لكن التردد يمنعني، أرهقتها معي طويلا فلأختفي من حياتها أفضل، دعك من أني لا أريدها أن تراني بهذه الهيئة وفي هذا المكان، تمثالا من الشمع غطته الأوساخ فغابت ملامحه، وأحاول أن أتفاعل مع مجموعتي في المصحة فأفشل، عصفور يحاول التحليق فيمنعه يأسه.

أتمنى أن أقضي ما تبقى لي من الحياة منزوية قدر الإمكان، وحيدة داخل تلك الغرفة لا أخرج منها أبدا، ولا أضطر إلى التفاعل مع الآخرين، لكني نسيت في غمرة الأيام والسنين جدوى التمني.

تتضاءل الحاجة إلى الونس بعد أن احتلت الوحدة حتى الثنايا، وأتخيلني أما لطفل لم يجئ وحبيبة لرجل أبى أن يكون له في الحياة وجود فأُدهَش، خيارات معدومة واحتياجات متعددة تأبى الانزواء.

* * *

كم مر من الزمن منذ هذا اليوم؟ لا أتذكر، تفاصيل كثيرة تغيب ولا يبقى إلا ما تريد له الترسب، كنت يومها قد قررت أن أذهب إلى البنك بعد كسل دام طويلا ولا أعرف مصدره، أنتظر دوري وأتابع الشاشة الصغيرة علها تنطق برقمي الآن فأنتهي، أتأمل البشر من حولي فيقف نظري على المرآة المعلقة بجوار كاونتر البنك تعكس لي صورتي فأبتسم،

fb/mashro3pdf

ا. أة كانت جميلة في نحو الخامسة والأربعين ترتدي فستانا أزرق وحذاء
ا. ص ذا كعب عال، أين ذهب هذا الفستان الآن؟ دقائق وتسطع الشاشة
.ا. قم الموعود، أقف متجهة ناحية أحد المكاتب الخاصة بخدمة العملاء
، انا أبحث في حقيبتي عن شيء ما، ثم أنظر إلى الموظف الجالس خلف
المكتب فأتسمر وتغلبني صدمة الموقف لثوان، لقد كان هو.

ينظر ناحيتي بنفس القدر من الدهشة مع الكثير من الشجن، صنبور
الذكريات تلف الآن ويحتاج إلى صمام جديد، وأتساءل: كم من السنين
قد مرت من دون أن أقابله أو أسمع صوته؟ وأتبادل معه سيلا من
النظرات لا ينتهي، نظرات محملة بكم من المشاعر كنا نظنها قد اندثرت
وسط الزحام، فقط لتعلن لنا أننا كنا حمقى وأنها ما زالت ترتع هناك، في
مكان غامض داخلنا.

يقف متجها ناحيتي ويمد يده.

ـ ازيك يا فريدة؟

أعترف بأن نطقه لاسمي كان مختلفا دائما.

ـ أنا كويسة، إنت ازيك يا شكري؟

ـ بخير، تعالي اتفضلي.

أجلس على المقعد أمامه وينظر في عيني مباشرة، وأقول له:

ـ مكنتش أعرف إنك في الفرع هنا.

ـ اتنقلت هنا من أسبوع تقريبا، واضح إنه كان مكتوب إننا نتقابل
تاني.

fb/mashro3pdf

ثم ينظر إلى إصبعي ويبتسم بامتنان، نعم ما زلت أرتدي الخاتم الذي أهديتني إياه، لم تكن لدي القدرة على التخلص منه يا شكري، حاولت، ولكن غمرني شعور كئيب بأن التخلص من الخاتم يعني سلخك بشكل نهائي من داخلي، تمنيت أن أفعل فلم أجد لا القدرة ولا الرغبة على الرغم من كل شيء... ويقول:

- ٥ سنين؟

أحاول أن أحسب المدة فلا أستطيع، لكنها كانت دهرا لو أردت رأيي، حتى سبب الطلاق ما عدت أذكره فعليا! وكأني نسيته وأنا في غمار بحثي عن وسيلة للنسيان!

- تقريبا.

أتساءل: إن كان الشوق صارخا فلماذا لم يفكر أي منا في الاتصال؟ الفأر يبكي قطعة الجبن ولا يقوى على الذهاب إليها!

قليلا ويفيق تدريجيا متذكرا أين نحن... ويقول:

- خير، كنتي جاية تعملي إيه هنا؟

- كشف الحساب اللي اتبعت لي فيه مشكلة، كنت محتاجة أراجعه.

- اعتبريه اتراجع، بس بشرط.

- خير؟

- تديني رقم تليفونك قبل ما تمشي.

ابتسم، في وقت كنت أظن أنه لا حاجة للابتسام.

* * *

fb/mashro3pdf

بقول لي السيوفي ونحن في طريقنا إلى غرفة الاستماع:

ـ ليه مصرة تفضلي لوحدك كده؟

ـ يعني، كده مستريحة أكتر.

ـ حالتك بتقول غير كده.

ـ بتقول إيه؟

ـ بتقول إنك محتاجة ناس، محتاجة ونس.

ـ وإنت بقى الونس ده؟

ـ كان نفسي أمي تسميني ونس، يمكن ساعتها كنتي صدقتي إني أنفع.

ابتسم وأنا أدلف الغرفة وهو بجواري، نمر على الممرض والمح عبد السلام وسامح وكمال بالداخل، أتجه إلى مقعدي فأجد السيوفي يصر على الجلوس بجواري كعادته، ماذا يريد هذا الرجل؟ يحاول أكثر من مرة أن يخترع سببا للحديث معي، فهل ما أظنه هو ما يريد؟ يدخل الدكتور فؤاد إلى الغرفة لتبدأ جلسة هذا اليوم، لا أعرف ما جدوى تلك الجلسات، كم أتمنى إلغاء هذا الأمر ولينعم كل منا بغرفته وأدويته ووحدته القاتلة.

يبدأ السيوفي الجلسة ويقول وأشعر أنه يوجه لي هذا الكلام:

ـ أنا عايز أقول إن مهما الواحد كبر لازم دايما يفكر في الكام يوم اللي فاضلين له، ينسى اللي فات ويفكر في اللي جاي وبس، يمكن الدنيا تبقى شايلة له حاجة جديدة تخلي الكام يوم دول يستحقوا يتعاشوا.

وصلت الرسالة وتم مسحها الآن! ينظر لي الدكتور فؤاد وأفهم أن دوري في الكلام قد جاء فلا أعرف ماذا أقول، هل أرد على كلام السيوفي

fb/mashro3pdf

أم أتعمد تجاهله؟ يغلبني التوتر وأنظر حولي بخجل، ويتسمر نظري على السيوفي الذي ينظر ناحيتي بإصرار غريب، يحاول أن يفتح بابا كنت قد أوصدته بإحكام وألقيت المفتاح في مكان لا أتذكره، أشعر بوخز نظرات أفراد المجموعة وهم ينتظرون مني أن أتحدث فلا أقدر، كم يصعب عليك التفاعل وأنت تريد الاختفاء عن الجميع... يقول الدكتور فؤاد عله يشجعني:

ـ مش مهم نفكر كتير في الحاجة اللي هنقولها، المهم إننا نطلعها من جوانا وخلاص، ممكن يبقى مجرد كلام فارغ ميهمش حد لكن مجرد خروجه بيمثل راحة نفسية مهمة... إحكي عن حد كان في حياتك أو موقف مريت به أو حتى نكتة جديدة سمعتها... المهم إنك تكسر الجدار اللي إنت بنيته جواك.

فأبحث بداخلي عن أي من الخيارات المطروحة فلا أجد، السيوفي ما زال ينظر ناحيتي وألمح الإشفاق في عينيه فأحاول أن أتجاهل تأثيره الغريب، فقط أسمع كمال يقول:

ـ خلونا نتكلم عن إبداعات الأستاذ سامح زكي... معقول يبقى معانا مخرج وماتتكلمش عن شغله؟

كمال له أسلوب صدامي في أغلب مناقشاته، وأشعر أنه يداري وراء تلك الصدامية إحساسا عارما بالعجز والإحباط. يقول الدكتور فؤاد:

ـ فكرة كويسة يا كمال.

أغيب عن النقاش ولا أهتم بما يقال، مقعد فارغ لا ينتظر منه المشاركون إحداث تغيير، لكن يصلني بعض مما يدور فأفهم أن الحديث يدور عن السينما والأفلام، عرفت بالصدفة أن سامح مخرج سينمائي، فما

fb/mashro3pdf

... بضايق كمال في هذا؟ وأسمع الدكتور فؤاد وهو يقول:

خلونا نناقش وجهتين النظر بهدوء يا جماعة، إيه رأيك يا مدام ...؟

فأحاول أن أرد سريعا حتى لا تتوقف النظرات عندي مرة أخرى:

ـ أنا مش متابعة السينما قوي، بس أعرف إن حال الصناعة دلوقتي ... كويس.

يقول سامح:

ـ إنت واحد بتملك صناعة لو مشغلتهاش بأفلام جديدة هتموت الصناعة دي.

يكثر الكلام من حولي في وقت أتمنى فيه الصمت إلى الأبد، وأشعر ببرودة في أطرافي وحالة عامة من الإرهاق، فأفكر في أن أستأذن العودة إلى غرفتي لكن لا أفعل، وأحاول أن أتماشى مع الأجواء عل الجلسة تنتهي سريعا، أسمع ماهيتاب تتحدث بخصوص تقرير صحفي كانت تعمل عليه، فأنظر إلى ملامح تلك الفتاة بحزن، ما السبب وراء قدومك إلى هنا؟ وأقارن بين عمري وعمرها فأجد بعضا من العزاء، على الأقل عشت ٤٠ عاما من البهجة وعافت أن تستمر معي ـ أي البهجة ـ طيلة السنوات الأربع الأخريات! لكني أدرك أن الجميع باختلاف أعمارهم، في الهم سواء.

* * *

بعد الجلسة ذهبت مباشرة إلى غرفتي محاولة تجنب النظر إلى السيوفي، وأتساءل: أين ذهبت قدرتي على التفاعل مع الآخرين؟ كانوا يقولون

fb/mashro3pdf

إنني اجتماعية بامتياز، فهل للألم دور في ذلك؟ ممحاة شديدة الوطأة تجد لها وظيفة فتعمل بجد، وأتذكر أيام المرح لتزيد من وجع الألم داخلي، وأحاول العثور على ملامحي فلا أجدها.

بعد قليل سمعت طرقا على الباب، فاتجهت ناحيته لأجد عبد السلام هو الطارق.

يقول:

ـ آسف لو كنت أزعجتك.

ـ لا أبدا.

ـ أنا ملاحظ إن مشاركتك معانا قليلة قوي.

أنت أيضا؟ وأقول له:

ـ بحاول على قد ما اقدر.

ـ أنا كنت بمر بنفس حالتك دي من فترة، بس لقيت طريقة خلتني شوية بشوية أخرج من الحالة دي.

ـ إيه هي؟

ـ بكتب.

ـ بتكتب إيه؟

ـ حاجة كده زي المذكرات، لما بطلع اللي جوايا على الورق بيساعدني على كسر رغبتي في السكوت، شوية بشوية اتعودت على الكتابة، وقدرت أخرج من حالة الوحدة اللي عايشها، لأني بقيت مع الوقت أطلع اللي جوايا مش بس على الورق، لكن للي حواليا كمان، إيه رأيك تجربي؟

fb/mashro3pdf

ـ أجرب إيه؟

ـ تجربي تكتبي، أي حاجة تيجي على بالك، حتى لو هتكتبي اللي حصل كل يوم.

أنظر ناحيته بدهشة من الفكرة، لكنه يقول بإصرار:

ـ صدقيني هتفرق معاكي كتير، وخصوصا إن مفيش حد هيشوف المذكرات دي غيرك.

ـ هحاول أفكر في الموضوع ده.

ـ توعديني؟

غريب أمرك يا عبد السلام، أبتسم له وأقول:

ـ أوعدك.

فيبتسم وتبدو عليه السعادة، يحييني بهزة من رأسه ويمضي، أتسمر للحظات محاولة تفسير كل هذا فلا أستطيع، وأعود مرة أخرى إلى غرفتي.

مذكرات؟ لم أفكر يوما في أمر كهذا، وأتذكر أيام الشباب وروايات المراهقة والخواطر الساذجة، التي كانت تحاول أن تُخرج بعضا من المشاعر المتضاربة بداخلنا، فهل أستطيع أن أترجم مشاعري الآن على الورق؟ وأعترف أن الأمر جدير بالتفكير فيه.

لحظات وأسمع طرقا جديدا على الباب، أتساءل: أيكون عبد السلام مرة أخرى؟ أذهب إلى هناك وأفتح الباب لأجد الممرض واقفا ينظر إليّ صامتا! أنظر ناحيته بتساؤل فينظر إلى الأرض وكأنه نسي لمَ جاء، وأقول له:

fb/mashro3pdf

ـ نعم؟

فيدو خجلا بصورة مدهشة، أريد أن أضحك لكن التردد يغلبني، وأسمعه يقول:

ـ كنت عايز أتكلم مع حضرتك شوية!

ـ تتكلم معايا؟ في إيه؟

ـ أنا كنت حاضر الجلسة معاكم ولاحظت إنك كنتي متوترة قوي!

ـ أفندم؟

فيعود إلى صمته من جديد، قليلا ثم يقول:

ـ أبدا بس حسيت إن ممكن أساعد في حاجة

ـ لأ متشكرة.

أغلق الباب محاولة التخلص من هذا الكائن، ما هذا اليوم الغريب؟ أجلس على السرير وأفكر في ما قاله لي عبد السلام ثم أتذكر نظرات السيوفي وأشعر بوطأتها على أعصابي، فأحاول أن أطرد عن ذهني كل هذا، أبحث في الكومود الموضوع بجوار السرير فأجد بعض الأوراق لكن لا يوجد قلم، غدا سوف أطلب واحدا، ولنجرب موضوع المذكرات هذا.

* * *

بعدها بيومين وجدته يتصل بي، أنظر إلى الموبايل وأضبط ابتسامة سعيدة تركض على ملامحي، سيل من الماء العذب شق طريقه في تربة تشتاق إلى الارتواء، أمسك الهاتف وأرد وأنا أتأمل صورتي في مرآة غرفة

fb/mashro3pdf

...مي وأسمعه يقول:

ـ متصوريش لخبطتي لي الدنيا ازاي بعد ما اتقابلنا في البنك.

نفس طريقتك يا شكري ولكم اشتقت إليها، وأقول له:

ـ ليه؟

ـ مش عارفة ليه؟

ـ لأ مش عارفة.

ـ ماتغيرتيش.

ـ كنت عايزني أتغير؟

ـ يمكن قبل ما يحصل الطلاق، آه.

فأجد ملامحي تتغير في المرآة، مشاعري متضاربة بين ما كان وما أود حدوثه، وأقول له:

ـ مش فاهمة.

ـ يعني، متهيألي دلوقتي وبعد السنين دي الواحد يقدر يقيم الأحداث القديمة بطريقة مختلفة.

ـ فعلا.

ـ المشاكل اللي كانت بيننا قبل الطلاق على طول، لما بفتكرها دلوقتي بأقعد أضحك، المهم إني اكتشفت إنها مكنتش سبب كافي للانفصال... مش عارف.

تمر بي موجة من الكآبة أحاول أن أطردها سريعا وأقول:

fb/mashro3pdf

ـ بلاش تتكلم في الموضوع ده عشان ماندخلش في دوامة مين كان السبب.

ـ يا ستي لو هيريحك إني أقول إني كنت السبب هعمل كده.

فأضحك بصوت مرتفع ويُدهش هو:

ـ بتضحكي على إيه؟

ـ لا أصلي بقالي كتير ماسمعتش كلمة يا ستي دي.

ـ ليكي عليا أكلمك كل يوم وأقول لك يا ستي.

ـ هتصل بيا كل يوم عشان كده بس؟

ـ كل حاجة وليها مفتاح.

فتغلبني سعادة كنت أظنها ضلت طريقها عني، وأتأمل تورد وجهي في المرآة كفتاة تشعر بوخز الحب للمرة الأولى، وأقول له:

ـ وأنا هستني تليفونك!

يغمرنا الصمت إلا من أثير الهاتف وبعض من المشاعر المتضاربة لدى كل منا، ويقول:

ـ بصي، هقول لك كلمتين واقفل السكة على طول، وابقى ردي على مهلك، ماشي؟

ـ نفس طريقتك.

ـ معنديش غيرها.

ـ طب قول.

fb/mashro3pdf

يأخذ نفساً أشعر بحرارته عبر الهاتف ويقول:

ـ قرارات البني آدم هي اللي بتحدد حياته، كانت صح أو كانت غلط مش مهم، المشكلة إنه ممكن يرجع في يوم ويندم على قرارات أخدها قبل كده، لما شفتك في البنك حسيت بكل ده.

ولا أرد أنا، فقط أود أن أقفز فرحا الآن، أكتم سعادتي عنه وأسمعه يقول:

ـ أنا آسف يا فريدة لو كنت سبب في إزعاج حسيتي به في حياتك في يوم من الأيام.

يغلق الهاتف وأفرد ذراعي وأدور في الغرفة كالفراشة، عصفور لجمه القفص سنين يخرج الآن، ويتابني شعور بأن الحياة لم تنته بعد وأنها ما زالت تخبئ لي المزيد.

أتأمل ملامحي أمام المرآة وأحاول نسيان بعض من آثار السنين الساكنة فيها، وأتحسس رقبتي وبعضا من أنحاء جسدي، فأشعر وكأن أوان الارتواء قد حان، الروح تفتح مسامها انتظارا للرحيق المنتظر، وأتساءل: إن كنا نحمل كل هذا العشق فلم كان الانفصال؟ لكني أطرد عن ذهني كل هذا ولا أفكر إلا في تلك اللحظة، وأركض ناحية الكومود وأخرج رزمة الصور القديمة التي تجمعني مع شكري والأصدقاء فأبتسم، نسمة هواء جاءت في وقتها تؤطر الصورة العامة للمشهد، وأعترف بأني سعيدة، للمرة الأولى منذ سنين.

* * *

أقارن بين شعوري وقتها والآن، بين السعادة والشقاء المترسب،

fb/mashro3pdf

غرفتا نوم في عالمين مختلفين، وإنسانة كانت تهيم عشقا وأخرى تنتظر الموت كأنه المخلص، وأتحرك ناحية المرآة في غرفتي بالمصحة وأقارن بين ملامحي الآن وملامحي وقتها، فأكتشف أن الرحيق الذي كان منتظرا في ما مضى، لم يعد له دور في اللعبة الآن.

* * *

fb/mashro3pdf

(٢)

أكتب كل هذا على الورق ويتابني إحساس غريب، هل كان عبد السلام محقا لتلك الدرجة؟ مشاعري تجد لها براحا واسعا على الورق، فتخرج لتكشف لي أن هناك مساحات من المقاومة ما زالت ترتع بداخلي، أعيد قراءة ما كتبت وأشعر أنني ما زلت أملك المزيد، سيرتي الذاتية تجد لها مخرجا، وأعرف أن تلك السيرة لا تهم غيري، وأعترف بأنني كنت في حاجة إلى استعادة بعض منها مرة أخرى.

أقف أمام الكلمات المرسومة على الورق طويلا فأبكي أو تغمرني سعادة الموقف، مشاعر مضطربة وألم لا يريد أن ينزوي، لا أعرف جدوى ما أفعل، ولم أتساءل يوما: هل تجد تلك الكلمات قارئا في يوم من الأيام أم لا؟ وأعترف، أنا أحتاج هذا أيا كان مصيره، لذلك سأستمر.

أبصر ماهيتاب يوما بحديقة المصحة جالسة بمفردها، فأفكر أن أعرض عليها تلك الفكرة، علها تخرجها من حالة الكآبة المستمرة التي تغمرها، أتجه ناحيتها وأقول:

fb/mashro3pdf

ـ قاعدة لوحدك ليه؟

ـ أبدا مافيش.

ـ بصي، أنا يمكن آخر واحدة ممكن تساعد في إنها تخرج حد من حالة نفسية هو بيمر بيها، لأن اللي جوايا كتير، بس فيه أوقات كده بحس إن لسه في شوية احتمال جوايا، بتخلي النقطة السودا مش تختفي، بس مابتبقاش هي اللي غالبة على الصورة.

تنظر لي بانتظار أن أصل إلى الخلاصة، وأكمل:

ـ فيه تجربة بقالي يومين مستمرة عليها، في الأول استغربتها بس لما بدأت لقيت إنها بقت جزء مهم من يومي.

ـ تجربة إيه؟

ـ بكتب.

تنظر إليّ وكأنها فهمت ما أرمي إليه وتقول:

ـ كويس.

ـ ليه متحاوليش تجربي؟

ـ انتي كمان؟

ـ أنا كمان إيه؟

ـ أصل عبد السلام عرض عليا الموضوع برضه.

أدهشتني، لكني أطرد الدهشة سريعا، كان يحاول مساعدتي، فلا شك أنه حاول مساعدة آخرين، ثم أقول:

fb/mashro3pdf

ـ وقولتي له إيه؟

ـ رفضت.

ـ ليه؟

ـ من غير ليه.

تحاول أن تتركني وتذهب فأمسك يديها بقليل من الحنان وأقول:

ـ ليه كل ده؟

تنظر إليّ قليلا وكأنها تبحث عن كلمات، وأشعر بوطأة الاضطراب داخلها، وتقول:

ـ أنا خلاص، لا هكتب ولا همسك قلم في إيدي تاني.

أحاول تخيل تاريخ الصراع الذي كانت هي بطلته، فلا أستطيع أن أصل إلى أي من تفاصيله، لكن يبدو أن للقلم دورا في الصراع، هي صحفية ويبدو أن أزمتها لها علاقة بعملها، لا أعرف، تقول:

ـ عموما أنا حاولت، مسكت قلم وورقة، وبعد أول جملة كسرت القلم وقطعت الورقة ٢٠ حتة.

تقول الجملة وتمضي سريعا من أمامي وكأنها تريد أن تختفي من هنا الآن، أنظر تجاهها وهي تعود إلى مبنى المصحة وأشفق عليها، وأدهش، كنت أظن أنني قد بنيت جدارا عملاقا من حولي يفصلني عن الآخرين، والآن أضبطني وأنا أحاول أن أهدم هذا الجدار، فهل تغير شيء ما داخلي؟

* * *

fb/mashro3pdf

مــساء نفس اليوم احتوتنا غرفة الطعام لتناول وجبة العشاء، أحاول أن أفتش بداخلي عن السـبب الحقيقي وراء التغيير الذي ألاحظه في تصرفاتي، لكن بلا جدوى، أغيب في دوامة من الذكريات يقطعها إلحاح السـيوفي عليّ لكي أتناول عشائي، طريقته معي تحرك بعضا من المشاعر داخلي، شعور بالحاجة إلى قطرات من المياه وأنت وسط صحراء يغمرها الجفاف، لكن هل يكون هو السراب بعينه؟ أبتسم له وأبدأ في تناول الطعام بآلية، قليلا وأسمعه يقول بصوت خفيض للمجموعة:

- إيه رأيكم نعمل حاجة جديدة؟

تصلني همهمات متسائلة عن كنه هذا الجديد ولا أوليهم اهتماما، فيقول السـيوفي:

- إحنا بقالنا فترة روتين يومنا واحد تقريبا، ليه مانفكرش نغيره؟

يقول كمال:

- نغيره ازاي؟

السيوفي يتحدث بحماسة غريبة، وأسمعه يقول:

- نخرج بره المصحة كام ساعة ونرجع تاني.

فأنتبه الآن، وأشعر بموجة خوف خاطفة تكتنف ملامحي فأرتعش، وكأن فكرة الخروج أصبحت هي المجهول بالنسبة إليّ، أنا داخل القفص بعد أن تخلصت من آخر مفاتيح الخروج منه من دون رغبة حقيقية في العثور عليها، ثم يقول عبد السلام:

- مش فاهم يعني نطلب من الإدارة إننا نخرج؟

fb/mashro3pdf

أرى الممرض إياه واقفا ينظر إليّ بإصرار، وأتأمل ملامحه بتركيز للمرة الأولى، فأشعر وكأنه يعاني خطبا ما، هذا الرجل إما مجنون وإما مخمور طوال الدوام، ويقول السيوفي:

- لا من غير ما نطلب، حد فيكم متخيل متعة إننا نهرب كام ساعة من المصحة؟

فيضحك سامح ويقول:

- عايز تعمل زي جاك نيكلسون في فيلم "One Flew Over The Cuckoos Nest"؟

- حاجة زي كده.

أتدخل أنا للمرة الأولى:

- لأ طبعا أنا مش موافقة.

ينظر إليّ السيوفي ويقول:

- ليه؟

- من غير ليه.

فتعلو همهمات بين مؤيد ومعارض، وألمح معارضة شرسة من عبد السلام، كمال وسامح لم يصدرا أي قرار، ويبدو على سلمى وماهيتاب التردد، وأسمع السيوفي يقول:

- فكري شوية بس يا فريدة، صدقيني كلنا محتاجين نعمل كده.

- أنا مش محتاجة أعمل حاجة، إنتم أحرار تعملوا اللي عايزينه، بس أنا لأ.

fb/mashro3pdf

ألقي المنشفة على المنضدة وأغادرهم متجهة إلى غرفتي، وأتساءل: ما سر هذه المعارضة المبالغ فيها التي أبديتها في وجه السيوفي والمجموعة؟ وكأني أحاول أن أداري ضعفي بإثارة الغبار من حوله، وهل خوفي من فكرة الخروج في حد ذاتها أم في طريقة اقتراحها؟ وأتسمر قليلا أمام السؤال وكأن الأزمة كلها في إجابته، الغريب أن هذا ما قاله لي السيوفي حينما جاء إلى غرفتي بعد ذلك، استند على جدار باب الغرفة من الخارج ثم قال:

ـ إنتي مشكلتك في الخروج ولا في الطريقة؟

ـ الاتنين.

ـ ليه الاتنين؟ إنتي مش عايزة تخرجي من المصحة خالص؟

ـ لما يجي وقت الخروج هخرج.

ـ لأ، إنتي خايفة تخرجي.

أحاول ألا أنظر مباشرة في عينيه، هذا الرجل يعرف أين موضع الجرح وكيفية التعامل معه، ثم يقول وكأنه أب ينهر طفلته:

ـ إيه يعني يخليكي تقرري تقفلي على نفسك وتعيشي مستنيه الموت كده؟ ممكن تردي عليا؟

ـ أنا مش مجبرة أرد.

ـ لأ إنتي خايفة تردي.

أشعر بالأرض تميد بي وبأعصابي تفلت مني، الخوف، مجموعة من الحروف تم رسمها لتخرج لك كلمة بلا معنى، من دون الشعور ذاته، وأسمعه يقول:

fb/mashro3pdf

ـ مش فاهم إيه نتيجة انك تقفلي على نفسك، ومعرفش سبب ده، بس الي اعرفه إنك لسه موجودة في الدنيا، وعشان كده لازم تكملي فيها لغاية اخر نفس.

فأقول له برجاء استغربته:

ـ ارجوك يا رشدي سيبني لوحدي.

أدهش بعد أن ألاحظ اقتراب اسمه من منطقة اسم شكري، نفس الوزن تقريبا، لكنه يقول:

ـ مش هسيبك عشان انتي تهميني، أو على الأقل يهمني أشوفك مبسوطة.

لقد أحكم سيطرته الآن، وأتذكر شكري حينما كان يحاول أن يقنعني بشيء أرفضه فتغلبني موجة أكبر من الكآبة، وأقول للسيوفي:

ـ إنت ليه مصر اني أخرج معاكم؟ لو المجموعة كلها موافقة اعملوا ده من غيري.

ـ ولو قلت لك اني محتاج الخروج ده عشان أقرب منك؟

أنظر في عينيه مباشرة وأعترف بأن هناك شيئا ما قد تخلخل داخلي! عصفور لجمه القفص لكنه وجد بصيص ضوء في الخارج فحاول التحرر، ويكمل:

ـ أنا ماعرفش إيه سبب وجودك هنا، بس كل اللي انا عارفه إن وجودك هنا زود لوجودي سبب أهم من شوية تعب، كل اللي محتاجه منك إنك تديني فرصة، ومش هتخسري حاجة.

هل هذا هو المفتاح الذي كنت قد أوصدت به الباب وألقيته في مكان

fb/mashro3pdf

منـي؟ ولماذا ظهر الآن بالذات؟ أنظر ناحية السـيوفي وأتأكد من صدق ما يقول، وأقرر أن أتنازل قليلا عن خوفي في وقت كنت أظنه المصير المحتوم.

* * *

عرفت أن السيوفي استخدم الممرض في تسهيل أمر خروجنا نظير مبلغ لم يكشف لنا قدره.

يومها، وبعد أن هدأت الحركة في المصحة خرجنا ويحوم القلق حولنا، كان عبد السلام قد أصر على المعارضة، لكنه حينها وجد ترحيبا من الجميع أذعن في النهاية، أنا نفسي لا أعرف سر تحولي المفاجئ، وخصوصا بعد تلك المعارضة الشرسة التي أبديتها في البداية، أعترف بأن السيوفي طرق بابا بداخلي كنت أظنه قد انزوى، وألاحظ اهتمامه بي فتنتابني حالة من القلق وبعض من المواربة، أخشى الاقتراب لكنني لا أقوى على اللامبالاة، طفل يمنعه والداه من الإقدام على تصرف فلا يفكر إلا فيه، ونمر على الممرض ونحن نخرج من البوابة فأبصره ينظر ناحيتي وكأنه يريد أن يبوح بشيء يلجمه لسانه عن البوح به، أطرد عن ذهني كل هذا ولا أفكر إلا في تلك الليلة وما نحن مقدمون عليه.

في الخارج أستنشق هواء بدا مختلفا عما كان بالداخل فأُدهش، هناك طعم غريب لما نفعله الآن، مجموعة من الصبية قرروا الهروب من المدرسة فشعروا أن كل ما بالخارج مختلف، ويسير السيوفي بجواري وأشعر أنه يود البوح بشيء، وأسمعه يقول:

ـ متشكر انك وافقتي.

فأنظر ناحيته ولا أرد، وأسمع سامح وهو يقول:

fb/mashro3pdf

المهم هنروح فين؟

يقول السيوفي:

ـ على أول الشارع فيه عربية كبيرة مستنيانا.

أدهش أنا، متى تمكن من تدبير كل هذا؟ وأفكر للحظة في تصرفات السيوفي وأتساءل: أي اكتئاب من الممكن أن يعانيه شخص مثل هذا؟ أتأمل ملامحه بإمعان وكأنها المرة الأولى، في نحو الخمسين ويبدو أنه كذلك، إلى جانب ملامح الثري المتأنق، روحا خفيفة وكأنه ابن بلد، أنيق على الدوام يذكرني بكمال الشناوي في أفلامه القديمة، مع فارق أنه لا يقارب له، وأجدني أقارنه بملامح شكري فأُدهش، أطرد الخاطر عن ذهني لكنه يترك أثرا عميقا داخلي، وأتأكد أنه سيعود إليّ من جديد.

نرى السيارة واقفة في نهاية الشارع، وينزل السائق محييا السيوفي باحترام شديد، ليزيد من دهشتي وقلقي، نركب جميعا وتنطلق بنا السيارة نحو المجهول.

* * *

تقول لي محسنة ونحن نشتري بعض الملابس:

ـ يعني انتي حاسه إيه من كلامه؟

فأتسمر قليلا وكأن السؤال لم يخطر لي من قبل، وأقول لها:

ـ مش عارفة، بس حاسه انه عايز يرجع.

ـ المهم انتي، إنتي عايزة ترجعي؟

ـ مش عارفة.

fb/mashro3pdf

ـ لأ انتي عارفة، الحلاوة اللي بتنط من وشك النهاردة بتقول كده.

ـ إنتي لئيمة.

ـ أنا فاهماكي.

أحاول أن أنشغل بمشاهدة الفساتين المعروضة أمامنا، لكن محنة لا تمهلني:

ـ والمشاكل اللي كانت بينكم؟

ـ لأ المشاكل دي ابتدينا نحس انها كانت بتاعة وقتها وخلصت، هو كمان قال لي كده.

ـ خلاص شوفي انتي عايزة إيه واعمليه.

ـ مترددة.

ـ شكلك لسه بتحبيه.

أتبادل معها نظرة حيرة.

* * *

تصل بنا السيارة أمام مطعم أنيق، فيشير السيوفي للسائق فيتوقف، ننزل من السيارة ونتجه نحو المطعم ونكتشف أن هناك طاولة محجوزة باسم السيوفي فتزيد دهشتي! ويقول السيوفي للمجموعة:

ـ مش حاسين بفرق؟

فترد سلمى وهي تنظر إلى كمال، فلا أعرف إذا كانت تجيب السيوفي أم تكمل حديثا لم نحضره؟:

fb/mashro3pdf

ـ ماكنتش فاكرة ان الموضوع هيكون مختلف كده.

يقول سامح بسخرية:

ـ حاجة لطيفة فعلا إننا نهرب من المصحة عشان نيجي نتعشى سوا.

السيوفي يلاحظ سخرية سامح ويقول:

ـ الفكرة انك تحس بإنك بتعمل حاجة برة الكتالوج.

يقول كمال:

ـ والكتالوج بتاعك فيه إيه غير العشا؟

ـ هنروح البيت عندي وأفرجكم على التحف والرسومات اللي جبتها من أماكن كتير في العالم.

ألمح القلق في عيني عبد السلام، وألاحظ أنه لا يهتم بالأكل، قليلا يميل السيوفي عليّ ويقول:

ـ عايزك لما نرجع تبصي لوشك في المراية وساعتها هتدعي لي.

ـ ليه؟

ـ عشان لأول مرة أحس انك مبسوطة بجد.

* * *

احتوتنا شقة السيوفي فأثارت إعجابي، حالة من الأناقة تشعر بها في كل ركن ومع كل التفاصيل، تحف أثرية ورسومات لأشهر الرسامين العالميين، فتشعر وكأنك داخل نموذج مصغر لمتحف تعرف أنك لن ترى مثله كثيرا، حتى الأثاث يبدو وكأنه يعبر عن شخصية صاحبه، مكتبة

fb/mashro3pdf

ضخمة تزين الجدار وتجاورها عدة أرفف امتلأت بأفلام بلغات مختلفة، توقف أمامها سامح طويلا.

تحركنا في الشقة ونظرات الإعجاب تقفز في العيون، كمال يصفر بفمه استحسانا فيؤكدها الباقون بهمهماتهم، وبدا على السيوفي بجانب شعور بالفخر للإطراء الواضح، أنه سعيد بوجودنا هنا، اتجه ناحيتي وقال:

ـ إيه رأيك؟

ـ لطيفة قوي.

ـ تحبي تعيشي معايا فيها؟

يهوي السؤال على رأسي كأنه مطرقة، هذا عرض صريح في وقت كنت أظن فيه أن أوان العروض قد انتهى، وأنظر في عينيه ولا أتمكن من الرد، يمسك يدي ويقشعر جسدي وأشعر بالخجل، فتاة تزين رأسها الضفائر يطلب منها ابن الجيران الخروج معه!

قليلا ونسمع صوتا آتيا من غرفة داخلية عرفنا أنها غرفة النوم، فيتابنا القلق الممزوج بالقليل من الدهشة، المجموعة كلها هنا ما عدا عبد السلام الذي قال إنه سيشتري شيئا ما ولم يصعد معنا فمن الذي بالداخل؟ ننظر ناحية السيوفي بتساؤل فنراه يتحرك ناحية الغرفة باستغراب، اتجهنا خلفه علنا نفهم ماذا يجري، يفتح باب الغرفة فنصطدم برجل وامرأة عاريين في السرير، فيتسمر نظري على المشهد وأشعر بوطأته على أعصابي، الرجل ينظر إلى السيوفي بخوف والمرأة شبه منهارة من الهلع، ويدخل السيوفي الغرفة وأتابع أنا ملامحه فأشعر أنه يتابع الموقف بسخرية غريبة، وأسمعه يقول:

fb/mashro3pdf

إيه المفاجأة الحلوة دي؟

يقول الرجل:

. رشدي؟

يعم الصمت للحظات، وأرى السيوفي وهو ينظر تجاه المرأة التي تحاول أن تداري جسدها بملاءة السرير، وكأنها تريد أن تختفي الآن، تساؤلات عدة تحوم في رأسي لا أذكر أيا منها الآن، وشعور عام بالخجل يجاور الرغبة في معرفة ما وراء المشهد.

قليلا ويطلب منا السيوفي أن ننتظره بالخارج، نخرج ثم يغلق باب الغرفة دوننا.

يغلفنا الصمت للحظات، يقطعها سامح بقوله:

- تفتكروا دي مراته؟

فأقف عند السؤال وتغمرني موجة من الكآبة، وتقول ماهيتاب:

- يا ريت ننزل من هنا يا جماعة.

أشعر برأسي يدور وبإحساس عام بالاغتراب، أتمنى أن أعرف ماذا يدور بالداخل عله يجيب على التساؤلات، ويقفز مشهد الرجل والمرأة عاريين في مخيلتي ويستقر كأنه القدر، أحاول أن أطرده فيعاود المكوث من جديد، لقطة مرعبة في فيلم مدته ساعتان لا تقوى على نسيانها، وكأن الفيلم كله قد تم اختزاله في تلك اللقطة، المجموعة تتبادل النظرات مع إحساس عام بغرابة الحدث الذي لا نعرف كيف سينتهي، ويحل الصمت ضيفا ثقيلا فلا نطالبه بالانصراف، حفل صاخب فصلت عنه الكهرباء، فتوقفت السماعات المزعجة فجأة عن الهدير.

fb/mashro3pdf

دقائق ويخرج السيوفي متجها إلى خارج الشقة صامتا، فنتحرك إثره من دون أن يتفوه بكلمة ونحن مثله، نقابل عبد السلام أسفل العمارة ونستقل السيارة عائدين مرة أخرى إلى المصحة.

* * *

كان الصمت هو المسيطر علينا ونحن في السيارة، لا كلام لا نظرات، فقط صوت الهواء الآتي من النوافذ المفتوحة يؤطر المشهد، ضوء الصباح يتسرب خجلا فلا يُبقي داخلنا إلا الظلام، وأحاول أن أنظر ناحية السيوفي فلا أقوى، كتلة من المشاعر المتضاربة وأسئلة لا تجد لها مجيبا، وأتذكر عرضه الصريح فيختفي سريعا وكأنه ما جاء، وأتساءل: ما أثر تلك الليلة على المجموعة؟ فلا أتمكن من الإجابة.

اقتربنا من المصحة، تركنا السيارة وترجلنا متجهين إلى الداخل، نقابل الممرض الذي يبدو في حالة مزرية، يبادلنا النظرات وألحظ في وجهه شحوبا غريبا، السيوفي يسير بمفرده وأشعر أن الجميع يخشى الاقتراب منه أو سؤاله فأشفق عليه، تحتوينا المصحة ونسمع صوت الباب من خلفنا وهو ينغلق، ويذهب كل إلى غرفته علّنا ننهي يوما أرهقتنا غرابته.

أدلف إلى غرفتي وأنا موقنة أن النوم لن يجد له مكانا هنا، أتحرك ناحية الكومود لأخرج رزمة المذكرات، لكن يمنعني صوت طرق على الباب فأتأكد أنه السيوفي، أذهب ناحيته وأفتح فأجده أمامي ينظر إليّ وفي عينيه نظرة اعتذار، يغلفنا الصمت قليلا، وأقول له وأنا أحاول عدم النظر مباشرة في عينيه:

- دي مراتك؟

fb/mashro3pdf

«لا يقوى على الإجابة، صمته وشعوره بوطأة المشهد يجيانني فتغلبني المرة، أنظر في عينيه فأجده يبحث عن كلمات يبدو أنها أتعبته في رحلة البحث عنها، وأسمعه يقول بصوت خفيض:

ـ ممكن ماتتكلمش في الموضوع ده؟ أنا كنت جاي أعتذر لك عن اللي حصل.

ـ ماحصلش حاجة يا أستاذ رشدي.

ـ أستاذ؟

ـ من فضلك أنا محتاجة أنام.

أحاول أن أغلق الباب فيمنعني، وأسمعه يقول:

ـ إحنا كنا متفقين على الطلاق قبل ما أدخل المصحة، يعني خلاص اللي بيني وبينها انتهى.

ـ ماعتقدش ان الموضوع ده يهمني في حاجة.

ـ بس أنا يهمني انك تفهمي.

يطأ بقدميه أرض الغرفة من الداخل ولا أقوى على منعه، ويقول وهو ينظر في عيني مباشرة:

ـ أنا محتاجك جنبي يا فريدة، وأرجوكي تفكري في عرضي اللي قلتهولك واحنا في الشقة.

فأستغرب ضعفي، هل كل ما أحتاجه هو أن أشعر أن هناك من يحتاجني ويطلبني؟ زهرة منسية وجدت من يرويها فتغاضت عن النسيان، أنظر ناحيته وأعترف بأن الحاجة متبادلة، وأسمعه يقول:

fb/mashro3pdf

ـ اوعديني يا فريدة.

لا أرد، لكن نظرتي قالت إن هناك وعدا، ينتظر تنفيذه يوما.

* * *

fb/mashro3pdf

(٣)

سارت الأمور بعد ذلك بصورة نمطية، لم تكسرها إلا محاولات ا...يوفي المستمرة معي، والتي وجدت لها مردودا داخلي، خصوصا وأن المجموعة بدأت تعامله بقليل من التحفظ لم أفهم سببه، ربما يخشون أن ...لق السنتهم بالحديث عن موقف بدا أنه إطار واضح لمشهد من مشاهد الخيانة الزوجية، خوفا على مشاعره أو قلقا من تطور الأمر، لا أعرف، ...ل ما أعرفه أن هذا قد ساعده بعض الشيء في التقرب إليّ بصورة أكبر.

أضبطني أكثر من مرة وأنا أفكر فيه وفي عرضه الذي كرره أمامي أكثر من مرة، وأتساءل: هل هذا يعني قبولا بالعرض أو حتى وجود مساحة للتفكير فيه؟ وهل تمكن فعلا من دفعي إلى التعلق به؟ أم أن الفراغ والوحدة هما السبب؟ وكعادتي دوما، لا أجد إجابة.

تمر الأيام ويأتي إلينا وافد جديد، عرفت أن اسمه توفيق المصري، وملامحه عكست لنا قدر المعاناة التي يعيشها، كان منغلقا على نفسه فلم أشعر فيه برغبة في التفاعل، وأتامله ونحن في إحدى الجلسات، فيبدو

fb/mashro3pdf

لي شابا جديرا بامتلاك روح المرح، فما الذي جاء به إلينا؟ ويجيبني عل سؤالي بقوله يوما:

ـ هو ليه الواحد مايقدرش يرجع شريط حياته لورا؟ يمكن ساعتها يقدر يغير حاجات كتير في اللي حصل.

نبرة صوته ومضمون الكلام مس بداخلي مشاعر جمة، موطئ الجرح أصبح مكشوفا الآن، أنظر إليه بإشفاق وأسمع السيوفي يقول ساخرا:

ـ أصل الحياة عاملة زي التليفزيونات القديمة، مالهاش ريموت.

لكن توفيق يبتسم ويقول:

ـ يا ريتها تكون عاملة حتى زي التليفزيونات القديمة، على الأقل وقت ما تحب تقدر تطفيه أو تفصل عنه الكهرباء.

ينقبض قلبي وأتذكر يوم حاولت إنهاء حياتي بيدي، وأشعر بتجمع دموعي في مقلتي منتظرة الإذن بالخروج، ويقول توفيق:

ـ كنت راجع أنا ولبنى مراتي وملك بنتي من مرسى مطروح، متهيألي لو كانت الدنيا وقفت عند اللحظة السعيدة دي، كان الواحد قال انها جديرة بإنها تتعاش، لكن واضح اني كنت مغفل.

يقول كمال بإشفاق:

ـ إيه اللي حصل؟

ـ عملنا حادثة، هم ماتوا وأنا كملت.

ثم أراه ينظر باتجاه السيوفي الذي لاحظت تأثره بكلام الشاب، وكأنه ندم على سخريته منه، ويقول:

fb/mashro3pdf

ـ الظاهر ان بطارية الريموت بتاعي كانت لــه مباظتش.

جاء الإذن الآن فخرجت دموعي وكأنها ظلت حبيســة لسـنين، ثم ، حدت لها مخرجا فجأة، أسمع صوت النحيب الخارج من صدري وكأنه الـار، لم أتمكن من التحمل أكثر فركضت عائدة إلى غرفتي، من دون أن ابا بسلمى وماهيتاب اللتين حاولتا مواساتي، فأغلق باب غرفتي دونهما، وتنهمر الذكرى التي أبت يوما الرحيل.

* * *

يقول لي شكري عبر الهاتف يوما:

ـ بتصل عشان أقول لك قرار مهم.

يغمرني الترقب وأقول له:

ـ خير؟

ـ أنا عازم نفسي بكرة ع الغدا عندك، نفسي آكل المكرونة بالبشاميل بتاعتك.

أفهم ما يرمي إليه وأقول له:

ـ ده قرار ولا طلب؟

ـ طلب لا يمكن رفضه!

أضحك أنا ويغمرني إحساس باقتراب اللحظة الحاسمة، أنهي المكالمة وأنظر إلى الهاتف في يدي، غدا، بداية جديدة في وقت كنت أظن الستائر قد أسدلت فيه على كلمة النهاية.

يومها، وبعد أن أنهيت تحضير الطعام اتجهت إلى غرفتي لأختار

fb/mashro3pdf

فـتانا يليق بالحالة التي تغمرني، فتاة في العشرين تنتظر اللقاء الأول بلهفة، وأضبطني محتارة أي الفساتين أرتدي؟ فأضحك بصوت مرتفع، وكأن العمر الذي انقضى لم يكن شفيعا لتغيير عاداتي، أختار واحدا وأنظر إلى وجهي في المرآة وإلى الشكل الجديد الذي زينت به شعري، أين كان يختفي كل هذا؟ وأكتشف أن للسعادة دورا في كل ذلك.

أتجه ناحية غرفة السفرة وأتأكد من الشكل العام للطعام، فأبتسم بإعجاب، كنت على يقين بأنه سيفاتحني في العودة يومها، لذلك قررت أن تكون كل التفاصيل من حولي جديرة بيوم مثل هذا.

يرن هاتفي وأسمع شكري يقول:

ـ الأكل خلص؟

أبتسم وأقول:

ـ خلص يا فندم، مستنياك.

أغلق الهاتف وأفكر في أن أعود إلى المرآة مرة أخرى، علني نسيت تفصيلة ما، لكن خجلي من الموقف منعني، وأجلس بترقب في انتظار صوت طرقه على الباب، الوقت يمر ببطء فأشعر بملل الانتظار، أخرج إلى الشرفة وأطل على الحركة في الشارع، مشاعري مزدحمة مثل حركة السيارات الآن، طريق مهجور اهتموا به وصار كتلة من النور... يرن هاتفي برقم شكري وأرد:

ـ إيه يا شكري أتأخرت ليه؟

فيأتيني صوت رجل غريب يقول:

ـ أنا آسف يا فندم، الأستاذ صاحب الموبايل عمل حادثة من شوية

fb/mashro3pdf

- «انا نتصل بآخر رقم كان كلمه من الموبايل.

أنظر إلى الفراغ وكأنني لم أفهم ما سمعت، ويكمل الرجل:

- إحنا نقلناه مستشفى «السلام» وعايزين حد يعرفه، أنا آسف، البقاء لله!

يفلت الهاتف من يدي ويسقط من الشرفة إلى الشارع بالأسفل، يسقط معه أشياء عدة داخلي، وكأننا تقابلنا مرة أخرى من أجل أن نفصل من جديد.

* * *

ينتابني الكدر كلما رأيت توفيق، وأشعر أننا نقف على نفس الخط، فكرت أكثر من مرة أن أتحدث إليه، عله يجد عندي ما يواسيه، لكن التردد منعني، وأحاول أن أخرج من هذه الحالة بأن أتمادى بكل قوة مع السيوفي، وأتساءل: القدر الذي أوصلني إلى كل هذا، هل هو جدير بتعليق الآمال عليه؟

قال سامح يوما:

- أنا بفكر نعمل فيلم سوا.

تنخرط المجموعة في الحدث الجديد الذي كان وسيلة فعالة في الترويح عن توفيق وماهيتاب، الأول كان يعارض بشدة فكرة مشاركته في الفيلم، لكنه وجد نفسه في النهاية بصورة جيدة أمام الكاميرا، أما الثانية فقد أمسكت القلم من جديد، وسامح كان السبب، أظنه اخترع فكرة الفيلم من أجلها بالأساس، ولا أنكر أنها كانت تجربة ممتعة، عالم جديد انفتح أمامي في وقت كنت أظن أنه لا جديد.

fb/mashro3pdf

أقف أمام الكاميرا وأقول:

ـ ساعات بحس إن الدنيا دي عاملة زي علبة الألوان، كل مرحله بنمر بيها بتمثل لون معين، صحيح ساعات بنستخدم ألوان مش بتعبر عنا عشان نداري بيها حاجات جوانا، بس الأكيد، إن لونك إنت اللي بتختاره بنفسك في النهاية.

ـ كت، هايل!

يقول لي السيوفي:

ـ كتي هايلة.

ـ بجد؟

ـ لما تتفرجي على الفيلم هتأكدي من كلامي.

تقف ماهيتاب أمام الكاميرا وتلقي جملة وتغيب في موجة جديدة من الكآبة، وأسمع سامح وهو ينادي على الممرض ويطلب منه أن يؤدي دورا في الفيلم، أتابعه وهو واقف أمام الكاميرا لا يعرف ماذا يقول فأشفق عليه، أشعر أنهم يودون السخرية منه، فأحاول منعهم لكن الموقف كان جديرا بالسخرية فعلا.

أنظر إليه وهو يحاول التغلب على خجله وتوتره فينتابني الخجل بسبب اشتراكي معهم في هذا الموقف، حتى بعد أن أوقف سامح التصوير وانفجرنا جميعا في الضحك، كنت أود أن أذهب إليه معتذره عما بدر منا، لكن لم تحن لي الفرصة بعد ذلك.

تنتهي نسخة الفيلم ونحضر العرض الأول له، السيوفي يجلس بجواري يمسك يدي، فأحاول مداراة توتري بالتركيز أكثر في الصور

fb/mashro3pdf

اله وضة أمامي، أشاهد أدائي أمام الكاميرا فأُدهش، أشعر وكأن ال .عادة ظاهرة بين خلجاتي وكأنني عدت إلى الوراء نحو ١٠ سنوات، اعر ف بأن للسيوفي وطلبه دخلا في هذا، واكتشفت أنني أحاول أن ا. مي لونا جديدا لحياتي غير عن اللون الأسود الذي اكتنفها طويلا.

بعد أن انتهى الشريط وسمعنا دوي التصفيق من الحاضرين، مال ال .سيوفي عليّ وقال:

- نتجوز دلوقتي.

- دلوقتي؟

- مفيش سبب يمنع.

أنظر إليه وأشعر بحاجتي إلى هذا الأمر، أفكر قليلا وأطلب منه أن يمهلني بعض الوقت، يوافق على مضض وأعرف، أنه لو كان أطال إلحاحه لامتلك موافقتي فورا.

لكن في غرفتي كان الأمر مختلفا، تردد يؤطر رغبة متأججة، وشعور بالخوف من الفقدان من جديد، وكأنه القدر المحتوم.

* * *

تم العثور على هذه المذكرات في غرفة المريضة المتوفاة/ فريدة سالربيوني وتم قراءتها بواسطتي، لا أعرف إن كانت مكتملة أو لا، خصوصا وأن هناك أحداثا قد وقعت في الفترة ما بين ما أنهت به المتوفاة كلامها وبين توقيت الوفاة.

على أن يتم تقديم تلك المذكرات إلى الإدارة لعمل اللازم.

طبيب/ فؤاد ذهني

fb/mashro3pdf

كشف بيان الحالة/ تقرير أولي

الاسم: سامح زكي

تاريخ الميلاد: ٠٢ أبريل ١٩٧٢

العنوان: ٩ شارع سوريا ـ المهندسين ـ الجيزة

المهنة: مخرج سينمائي

ملاحظات: ورد المريض إلينا بواسطة مساعده/ علاء نصحي بعد محاولة انتحار ناتجة عن حالة اكتئاب حادة.

التشخيص المبدئي: حالة اكتئاب حادة تم السيطرة اللحظية عليها بواسطة المهدئات الكبرى مع انتظار نتيجة التحاليل التي ستؤكد أو تنفي تعاطي المريض للمخدرات.

طبيب/ فؤاد ذهني

fb/mashro3pdf

سامح زكي

(١)

الحكاية كلها تكمن في التفاصيل الصغيرة والحواديت الجانبية، التي لا يلاحظها إلا من يريد فعليا أن يرى.

محمد خان استخدم هذا الأسلوب كثيرا في أفلامه، شاهد فيلم «الحريف» وأخبرني إن كنت لاحظت الموظف العجوز دائم الوجود بالمقهى في انتظار مكالمة من التليفزيون، ستدور الحكاية من حوله وتتحرك إلى الأمام، وفي لقطة قصيرة سيجيء التليفون المنتظر، لكن سيكون الرجل قد مات.

وفي فيلم «موعد على العشاء» أنت ترى السيدة المعلقة على حاجز البلكونة وجسدها كله يطوحه الهواء، تسمع صراخها ويجذبك الكادر في البداية، لكن يفوتك أن تتساءل: ماذا وراء المشهد؟ وما أصل الحكاية؟

وفي «طائر على الطريق» عندك السائق العجوز الذي اصطدمت

fb/mashro3pdf

سيارته في جزء مهجور من الطريق، فيقرر أن يقضي ما تبقى من حياته في نفس موضع الحادثة، متخذا من السيارة المتهالكة صديقا أبديا قرر أن يقضي ما تبقى من عمره برفقته. وفي لقطة أخرى من الفيلم نفسه، أحمد زكي ومعه فردوس عبد الحميد في سيارة الأول على الطريق، تمر السيارة سريعا على اثنين من العساكر يبدو أنهما متأخران على المعسكر، يشيران للسيارة فلا يقف السائق أحمد زكي، وتسأله فردوس لماذا لم يتوقف، تتغير ملامحها وتقول: «مش جايز يكونوا عايزين يوصلوا المعسكر بتاعهم؟ ممكن معسكرهم في فايد وعايزين يوصلوا قبل الساعة ثمانية وإلا يثبتوهم غياب، ويمكن يحرموهم من الأجازة اللي جاية، ويحبسوهم في المعسكر أسبوعين من غير ما ينزلوا...» أنت تشاهد اللقطة فتفوت عليك الحكاية، ملامح فردوس ونبرة الصوت تقول إنها مرت بهذا الموقف من قبل وأثر كثيرا في حكايتها، مشاعرها ومصيرها، هذه اللقطة تعتبر حدوتة أطول كثيرا مما تظن، ويفوتك المغزى، لأنك لا تهتم كثيرا بالتفاصيل الصغيرة.

هذه خلاصة الحكاية كلها، حكاية الكون... وحكايتي.

أنت تتعامل معها وكأنها كيان واحد، ولا تهتم بالتفاصيل الصغيرة التي تحتويها، شاب يسير في شارع يهتم فقط بالوصول إلى نهايته، فتفوته تفاصيل الطريق.

وأتساءل: أين أنا من كل هذا؟ مريض يقبع مصحة نفسية بعد أن حاول التخلص من وطأة الحياة على أعصابه، وفشل في تحقيق ذلك كتفصيلة جديدة في رحلته مع الإخفاق، وأجدني أفتش عن التفاصيل الصغيرة في رحلتي مع الحياة فأكتشف أنني كنت مجرد شاب يسير في شارع لم يهتم بالنظر إلى تفاصيله، الغريب أنه لم يصل كذلك إلى نهايته!

fb/mashro3pdf

اكتشف، أن كل ما حاربت من أجل البعد عنه، غرقت فيه حتى الثمالة، وكل ما كان بالنسبة إليّ مبدأ بديهيا لا يقبل المناقشة، صار مع الأيام مجرد هراء آخر يزينون به الكتب والمجلدات المهملة.

سأحكي لك حكاية قد توضح لك ما أود قوله...

في فيلم «الكيف» حاول محمود أبوزيد وعلي عبد الخالق، محاربة الأغاني الشعبية، على اعتبار أنها نوع من المخدرات التي تعمل على تغييب أذهان الناس، والتي يجب التصدي لها، حاولوا ذلك من خلال عرض بعض تلك الأغنيات بصوت بطل الفيلم محمود عبد العزيز، بعد عرض الفيلم بفترة كبيرة تم إنتاج شريط يحوي تلك الأغاني وحمل اسم «الكيمي كيمي كا» حقق الشريط نجاحا مدويا في سوق الأغاني الشعبية، ولم يتوقف أحدهم أمام مغزى الموقف، أنت تحارب المادة، وتبيعها في الوقت نفسه.

وحكاية أخرى...

مسلسل «الراية البيضا» الذي حقق نسبة مشاهدة عالية، كان في الأساس يهدف إلى تسليط الضوء على المعركة الأبدية بين التحضر والسوقية، التحضر كان رمزه مفيد أبو الغار ومنزله الأثري، أما السوقية فتجسدت في فضة المعداوي وطريقة حياتها، الغريب أنه وبعد انتهاء عرض المسلسل تعلق المشاهدون بفضة المعداوي أكثر مما تعلقوا بمفيد أبو الغار - الذي رأوه مملا ولا يشبههم - وكأنهم قد اختاروا نسختهم المرادة.

الخلاصة أنني في الوقت الذي حاولت فيه أن أكون مفيد أبو الغار، اكتشفت أنني تحولت إلى فضة المعداوي وعن طيب خاطر ومن دون أي

fb/mashro3pdf

مقاومة، حاربت الفن الرديء طويلا، لكن مع الوقت تحولت إلى أحد صناعه وبائعيه، عامود إنارة ظل واقفا في مكانه يضيء جزءا من الشارع، وانطفأ أخيرا وتحول إلى مرتع مناسب لأكوام من القمامة.

* * *

المنتج الذي أتعامل معه كان قد اكتشف علاقة طردية بين السينما واللحم البشري، فتجاوبت معه أنا في نظريته وتماشيت معها، وحققت من ورائها مالا لا بأس به، وخسرت نفسي.

أذكر يوما أنني كنت جالسا معه بحضور الممثلة ذات القوام الفارع والأثداء عالية الجودة، نتناقش بخصوص «الطفح» الجديد الذي نريد تصويره، يومها قالت لي وقد ضمت ثدييها بكلتا يديها منبهة إياي إلى البضاعة المراد طرحها في السوق، وقالت:

ـ المهم دول يا أستاذ، دوول اللي بيجيبوا فلوس.

اهتممنا بأثدائها فجاءت إلينا الإيرادات تحمد لنا مجهودا سيخلد أسماءنا في لائحة القوادين.

* * *

سمعت كمال يقول بسخرية فاضحة:

ـ خلونا نتكلم عن إبداعات الأستاذ سامح زكي، معقول يبقى معانا مخرج وماتتكلمش عن شغله؟

أبصر أفراد المجموعة كلهم ينظرون ناحيتي، بعضهم إشفاقا والبعض سخرية، وأسمع الدكتور فؤاد يقول:

ـ فكرة كويسة يا كمال.

fb/mashro3pdf

ليست المرة الأولى ولن تكون الأخيرة، وكمال ليس الأول ولن يكون الاسم الأخير في لائحة البهائم! أكره أن يرتدي أحدهم قناع السيد الملوق، وأكره أن أفكر في الدفاع عن أي قرار أقدمت عليه يوما ما، لا أجبر أحدا على مشاهدة الهراء، ما تعتقده خراء يا عزيزي حاول أن تجنب أن تتطأه بقدميك.

انظر ناحية كمال وأقول له بنبرة تعمدت أن تخرج حادة:

- طالما انت مصرّ تفضل بهيم من غير ما تفهم يبقى ماتفتحش الموضوع ده!

- والله البهيم هو اللي بيبقى شايف الحقيقة قدامه وبيضحك على نفسه.

- تعرف إيه إنت عن النط من منتج للتاني، عشان تخليه يدفع لك فلوس تعمل بها الشغل اللي على مزاجك انت مش اللي على مزاجه هو؟ هه؟

- اللي أعرفه إني مش هعمل حاجة مش مقتنع بيها.

- إنت اللي زيك بق وبس، رغي كتير من غير حتى ما تحتكوا بالواقع، حاولوا تقفوا على الأرض شوية يمكن الجزمة القديمة اللي في دماغكم دي تختفي!

أتأمل ما قلت وأشعر بوخزة شديدة الوطأة على أعصابي، روحان في نفس الزجاجة كل منهما تنظر في اتجاه مختلف، وأتمم قصيدتي لهذا اليوم بقولي:

- وبعدين ده عرض وطلب، أنا مش بجبر حد انه يدخل يتفرج على أفلامي، كل واحد حر في اللي بيتفرج عليه.

fb/mashro3pdf

نفس منطق تاجر المخدرات بالضبط، لكن هل هذا ما أظنه في نفسي؟ دوامة قاسية وسوط أعذب به نفسي كل ليلة. يقول وحيد حامد إن تاجر الحشيش يكسب أكثر من تاجر الخبز، فماذا تريد أن تكون؟ لكنه نسي أن هناك من يحاول أن يصير تاجرا للخبز لكنه لم يجد ما يكفيه من الدقيق في سوق تمتلئ أصلا بالحشاشين! وتغمرني الكآبة وأشعر بالتيه والتحرك ناحية المجهول، من السهل عليك أن تجد مبررا زائفا لخطواتك في تاه الحياة، لكن الصعب هو أن تبحث عن حقيقتك.

أسمع الدكتور فؤاد يقول:

- خلونا نناقش وجهتين النظر بهدوء يا جماعة، إيه رأيك يا مدام فريدة؟

ما الداعي لكل هذا؟ أنا فنان حقيقي أو سائق ميكروباص يبدأ يومه بسيجارة بانجو، فمن يأبه بي سوى نفسي؟ أفكر في أن أخرج من الغرفة، لكني لن أترك أحدهم يظن أنه قد مس جرحا داخلي، وأسمع فريدة تقول:

- أنا مش متابعة السينما قوي، بس أعرف إن حال الصناعة دلوقتي مش كويس.

وأقول أنا:

- إنت واحد بتملك صناعة لو مشغلتهاش بأفلام جديدة هتموت الصناعة دي.

محام يصر على الدفاع عن قضية خاسرة. يتردد في ذهني صوت المليجي وهو يقول في فيلم إسكندرية ليه «وعايزني أكسبها» فلا أهتم

fb/mashro3pdf

. ...، وأسمع كمال يقول:

من اعتبار ان الأفلام اللي انت بتعملها بتنمي الصناعة؟

لا بس بتخليها موجودة، كأنك بتاكل أكل عارف إنه مش نضيف، مضطر تاكله عشان تقدر تعيش.

حتى لو الأكل ده هيمرضك؟

يمرضك أحسن ما تموت.

صدقني يا عزيزي أنت لم تر كيف تُصنع العسلية، وإن حكيت لك عن الطريقة فلن تأكلها مرة أخرى، فأرجوك لا تهاجم أفلامي وتدافع عن العسلية! وأسمع ماهيتاب تقول:

ـ أنا كنت عملت تقرير من فترة عن مدى تأثير وسائل الإعلام في عقول الناس، ولو قسنا التأثير ده على الأفلام كمان، أعتقد النتيجة هتكون واحدة.

أتابع المناقشة ولا أهتم بما يقال، فقط أركز مع ملامح ماهيتاب وكأنني أراها للمرة الأولى، شاهد أمل صبور \ سمية الألفي في مسلسل «الراية البيضا» فهل لها نفس الحكاية؟

يقول فؤاد:

ـ ووصلتي لإيه؟

ـ اكتشفت إن الفكرة اللي كنت مقتنعة بيها، عن إن وسائل الإعلام هي اللي بتمشي الناس وتسيطر على عقولهم، كانت غلط، أو على الأقل ماينفعش تكون حقيقة مطلقة.

fb/mashro3pdf

كمال يصر على أن يظل مغفلا، وأسمعه يقول:

- إزاي يعني؟

السيوفي يقول ما أود قوله:

- إنت إيه حكايتك يا عم؟

فتكمل ماهيتاب:

- اشتغلت على أكتر قنوات فضائية مختلفة في المبادئ والأفكار والتناول، وعملت شريحة بتكون من اتنين ستات بيوت أعمارهم فوق الخمسين ومستواهم الفكري تقريبا واحد، وكانت كل واحدة مقتنعة تماما بالأفكار المعروضة على القناة اللي بتابعها وضد كل اللي بيتعرض على القناة التانية.

تسألها سلمى:

- وده كان معناه إيه؟

- معناه إن كل واحدة فيهم اختارت بنفسها الأفكار اللي تتفرج عليها، من غير ضغط أو غيره، وبما إن مستواهم الفكري واحد، يبقى مش هنقدر نحكم على أي واحدة منهم بإنها مضحوك عليها أو بتتعرض لتأثير، لو اختلف شخصين مستواهم العقلي واحد على حاجة، يبقى كل واحد فيهم لقي الفكرة اللي بيؤمن بيها أو اللي مصدقها في الحاجة اللي بيتابعها، يعني اختار، والاختيار إرادة.

أتابع ملامح المجموعة وأنسى كل ما كان يقال، فريدة تذكرني بسناء جميل في فيلم «فجر يوم جديد» ليوسف شاهين، لها نفس نظرة العين فعلا، أما السيوفي فأقرب إلى كمال الشناوي في فيلم «الكرنك» لكن

fb/mashro3pdf

٠ شارب، سلمئ أقرب إلى فرح يوسف في فيلم «بالألوان الطبيعية»
ا سامة فوزي، عبد السلام يذكرني بحمدي أحمد في فيلم «العصفور»
ا سف شاهين، كمال أقرب إلى أحمد محرز في «عودة الابن الضال» لكن
شعر معقوص إلى الخلف، من أيضا؟ أنا؟ شاهد ألفريد مولينا (ديجو
ريفيرا) في فيلم «فريدا» لجولي تايمور.

* * *

أقول لماهيتاب بعد انتهاء الجلسة:

ـ شكرا.

فتشعر بالدهشة وتقول:

ـ على إيه؟

ـ يعني، اللي قلتيه في الجلسة.

تبتسم وترد:

ـ أنا كنت بدافع عن فكرة، مش عن أفلامك طبعا.

ـ إنتي كنتي صحفية في أي قسم؟

ـ مش فاكرة.

تتركني وتمضي وأتأملها وهي تغيب عن نظري، وأنا أعرف أن هناك حكاية ستدور بيننا في وقت ما، لكن لا أعرف متى بالتحديد.

أرى عبد السلام يتجه ناحيتي فأنظر إليه، وأسمعه يقول:

ـ كويس إنك تكون بتدافع عن فكرة مؤمن بيها.

fb/mashro3pdf

ـ أنا اسمي سامح مش مؤمن!

ينظر إليّ بارتباك يحاول أن يتخلص منه بقوله:

ـ أنا كنت متابع اللي دار في الجلسة، وحسيت انك في أوقات كده كنت بتقول حاجات مش هي اللي انت مقتنع بيها!

ـ نعم؟

أغيب عنه في موجة من القلق، لا أحب أن أشعر بأن أحدهم ينبش داخلي ويخرج المحتويات، ومَن عبد السلام لكي يلحظ أمرا مثل هذا؟ أنت تتحدث عن مريض آخر تضمه المصحة، وليس عالِما في النفس البشرية الجديرة بصفائح القمامة. أسمعه يقول:

ـ ساعات بلاحظ من حركات الشخص ونبرة صوته، إذا كان بيقول اللي جواه ولا عكسه.

ـ والمطلوب؟

ـ أبدا، أصلي كنت بمر بحالة زي دي من فترة.

ـ وبعدين؟

ـ يعني، لقيت طريقة تخليني أقول اللي جوايا من غير ما اخاف.

ـ اللي هي؟

ـ بكتب.

ـ بتكتب؟

ـ بكتب حاجة كدة زي المذكرات، حاجة محدش بيشوفها غيري بس

fb/mashro3pdf

مدني أطلع اللي جوايا فيها من غير خوف أو قلق، ومع الوقت بقيت ،،، أطلع اللي جوايا مش بس ع الورق لكن للي حواليا كمان.

انظر في عينيه ولا أنكر أن هناك شيئا غريبا في كلماته، وكأنه انتقى اللحظة المناسبة ليقول لي هذا الكلام، لكن ما جدواه بالنسبة إليه؟ وماذا ،،،، من ورائه؟ أقول له:

ـ طب كويس، أنا إيه علاقتي بالموضوع ده؟

ـ إيه رأيك تجرب تكتب انت كمان.

ـ أكتب إيه؟

ـ أي حاجة تيجي في بالك، اتكلم عن نفسك عن يومك، مش مهم إزاي لأن انت بس اللي هتشوف ده.

أجدني أفكر في ما يقول وربما للمرة الأولى بقليل من الجدية، وأتذكر حينها كنت شابا أدرس الإخراج مفعما بالحماسة والتحرر، وقتها كنت على قناعة بأن مجموعة الأفلام التي سوف أخرجها ستحتوي على مساحة كافية لأن أعرف نفسي أكثر من خلالها، هذا كان ما فعله يوسف شاهين برباعية سيرته الذاتية (إسكندرية ليه ـ حدوتة مصرية ـ إسكندرية كمان وكمان ـ إسكندرية نيويورك) فماذا كان مصيري؟ أبتسم وأنا أتخيل أن تكون أفلامي بما تحويه معبرة عما يموج بداخلي فتغلبني سخرية الموقف، ويقطع عبد السلام سيل الهراء هذا بقوله:

ـ توعدني؟

ـ أوعدك بإيه؟

ـ بإنك تجرب الموضوع ده.

fb/mashro3pdf

أنظر إليه ولا أرد، أضحك بصوت عال وأتركه متجها إلى غرفتي.

أنا المخبول الوحيد وسط قوم يرتدون قناع الجدية، لا يريدون ا
يتركوني في حالي، مخبول يتحرك في الأزقة ليلا عاري الجسد، ولا يودو
أن يعترفوا بأن قناع الزيف الذي يرتدونه لا يليق بهم، ولا يعبر ع
حقيقة ما يداريه من ملامح.

فلأظل مخبولا، وليرتعوا هم في دوامة الزيف كما يحلو لهم.

* * *

fb/mashro3pdf

(٢)

شاهد فيلم Barton Fink للأخوين كوين.

بارتون مؤلف شاب عرضت أولى مسرحياته في برودواي الأثيرة، وحقق نجاحا مدويا، خصوصا وأنه كان أول من حكى عن البسطاء بأسلوب ساحر، دوي التصفيق الحاد الذي يسمعه بعد انتهاء عرض الرواية لم يتوقف عند هذا الحد، فكان شفيعا له للحصول على عروض متعددة من شركات الإنتاج في هوليوود الناشئة، يوافق على عرض منها نظير ألف دولار في الأسبوع، فيكون المطلوب منه أن يكتب فيلما عن مصارع ما، الحبكة تحوي سر الخلطة التي يفهمها المنتج جيدا ويعرف أنها ستعود عليه بأرباح معقولة، الأزمة أن بارتون لا يعرف كيف يبدع بضغطة زر، دعك من أنه لم يشاهد أفلام المصارعة تلك من قبل ولا يملك أي معلومة عنها، فيتحرك ونتحرك معه طوال الأحداث في محاولة لتحقيق المطلوب منه، ومن خلال عدد من الأحداث التي يتعرض لها طوال الفيلم يقرر بارتون أن يكتب عن المصارعة، لكن مع النفس.

المنتج يرفض الفيلم طبعا ويأخذنا الأخوان كوين في حدث بالغ

fb/mashro3pdf

التعقيد، يحتاج إلى ناقد لكي يفهم أبعاده، لكن الخلاصة أنك أمام مؤلف لم يستطع أن يشارك في الهراء، فانزوى، في حين أبيت أنا الانزواء.

أتذكر أحلام الشباب وكيف أصبح مصيرها الآن، فتغمرني الكآبة وكأنها المصير الأبدي الذي لا خلاص منه، «سيزيف» يحمل الصخرة على الجبل فتسقط، ويحاول حملها من جديد متجها نحو رحلة جديدة نهايتها السقوط، معاناة مستمرة والمصارخ يأبى الانزواء.

أتساءل: ما هي أزمتي الحقيقة؟ هل هي انعدام الرضا؟ أم محاولة مستمية لتعذيب نفسي من أجل لا شيء؟ وتتداخل الرؤى داخلي مثلما تفعل بي دائما، أنا المدافع الأكبر عن كل ما فعلت في حياتي، وأنا أول من ينتقدها، مع وضد، روحان في زجاجة تنظر كل منهما في جهة مختلفة.

أتحرك ناحية الكومود محاولا البحث عن بعض من الأوراق، علني أستطيع أن أطفح ما بداخلي عليها فأتردد، ماذا أكتب؟ ولمن؟ ومن أجل ماذا؟ وتنهمر الأحداث أمام مخيلتي فأحاول أن أنساها، شريط سينمائي لفيلم نادر لم يأبه أحدهم لوجوده.

* * *

تحاول أميرة إيقاظي فأشعر بأنفاسها المضطربة، أعتدل لها وأسمعها تقول:

ـ إنت كل ما يكون عندك شغل تقعد تتكلم وانت نايم كده؟

أنظر إليها ولا أفهم ما تعنيه، تصل إليها نظرتي المتسائلة فتقول:

ـ زي ما يكون في حاجة طابقة على صدرك، عمال تنازع وتتكلم وكأنك بتعذب وانت نايم.

fb/mashro3pdf

أعتدل وأمسك علبة السجائر من على الكومود وأشعل واحدة، ونكمل هي:

- مش قادرة أفهم اللي انت فيه ده.

أقول لها وأنا أنظر إلى دخان السيجارة:

- مش هتفهمي.

- هحاول.

- مش هتحاولي.

أغيب مع دخان السيجارة وأحاول تذكر الكلمات التي كنت أتفوه بها وأنا نائم، فلا أصل إلى أي منها، هي نفسها لا تذكر ما كنت أقول.

- كلام ملخبط مش فاهمة منه حاجة.

لن تفهمي يا عزيزتي، الأمر بداخلي له شفراته الخاصة التي لن يستطيع أحدا حلها سواي. أتامل ملامحها وأتذكر يوم رأيتها للمرة الأولى، كانت تحاول أن تربح دورا في أحد أفلامي فأعطيتها واحدا على سريري، معادلة بسيطة يعرف طرفاها النتيجة النهائية.

أطفئ السيجارة وأحاول أن أطرد عن ذهني الهراء المعتاد، الذي يلازمني كلما كان لدي تصوير جديد لخراء آخر سوف يجد له مكانا لائقا في سلة قمامتي، آخذها بين ذراعي فلا تمانع، ونغيب معا في موجة من الصراعات المتداخلة، أسمعها تئن وكأنها تؤدي دورا مكتوبا بعناية على الورق، وأنظر في عينيها وأكتشف أنها ليست هنا، أنا نفسي لست هنا، تمثالان من الشمع ينفذان مجموعة من الحركات المحفوظة التي ستخلدهما في لائحة المضاجعين العشرة، تتأخر اللحظة التي ينتهي فيها

fb/mashro3pdf

كل هذا، تطول المدة ويترسب العذاب، تنظر في عيني باستغراب، ها هي تعود إليّ من جديد، لكن أين أنا؟ وأتوقف فجأة وأقرر أن أتركها من دون أن نكمل الرحلة الموعودة، سباق لا يربح فيه أحد، وعدّاء يقرر أن ينسحب من السباق وهو يرى شريط النهاية يلوح أمامه، فتسخر منه الجماهير.

أخرج من الغرفة محاولا أن أتنفس بعضا من الهواء، كائن عملاق يجثو على صدري الآن فلا يجد من المقاومة أثرا، أدخل غرفة المكتب وأرى الإسكربت إياه قابعا عليه، أمسكه في يدي وأقرر أن أدخل به الحمام، لقد نسيت أن أشتري مناديل ورقية، وكان الإسكربت جديرا بأن أستخدمه كبديل.

دوامة لا حدود لها وغريق يأبى المنقذين أن يقدموا له يد العون، وأتساءل: متى بدأت المأساة؟ فلا أتمكن من الإجابة، وأتحرك ناحية مكتبة أفلامي التي تعلمت منها الكثير ولم أستفد منها في شيء، ويقف نظري على فيلم مشروع التخرج فأبتسم، وضعته بين أعمال العباقرة عله يأخذ من خلودهم نصيبا، جوائز واحتفاء ثم خواء كأنه اللاشيء، أمسك الفيلم وأضعه في الجهاز وأجلس لأشاهد أحلامي وهي تختفي مع أول نسمة هواء، اللقطات تركض أمام عيني وتتحرك معها دموعي وتحرك ابتسامات مقتضبة على فمي، هذا هو النجاح الذي أعقبه السقوط والفشل، كنت حاضرا هنا فقررت بعد ذلك الانزواء، كم اقترضت من أجل أن أنهي هذا المشروع؟ لا أتذكر حقيقة لكن المشروع كان جديرا بالاستدانة من أجله، وأتذكر أني بعت الكاميرا من أجل إنهاء مرحلة الميكساج فأبتسم، هناك كان أحدهم تغلبه الحماسة فانطفأت جذوتها بداخله سريعا.

fb/mashro3pdf

ينتهي الشريط وأقرأ اسمي فلا أتذكر لصاحبه ملامح، وأتحرك في الغرفة وتنتابني هيستيريا غريبة، أضحك وأشعر بوطأة الدموع على وجهي! رحلة بدأت بإبداع وانتهت بخراء تدوسه الأقدام، هذا المخرج الشاب جدير بمتابعة باقي أعماله، قالوا لي هذا فنـــيت ما قيل، ويتردد دوي التصفيق الحاد بعد العرض الخاص لمشروعي الأول في المعهد، والمح نظرات الإعجاب من حولي فتغمرني الكآبة أكثر، أحدهم أبدع عملا جديرا بالتصفيق من أجله، ثم أعقبه الســقوط.

أتحرك ناحية الحمام وأمسك شفرات الحلاقة محاولا إنهاء المعاناة، ألمح الدماء وهي تنز من ساعدي وأسقط على الأرض وأنا أضحك بصوت عال، أرى أميرة وهي تصرخ ولا أسمع صراخها، لقطة صامتة في فيلم هيستيري لم يهتم به أحد، تتحرك هي بفزع لا تعرف ماذا تفعل وأشعر أنا بالحياة وهي تخرج من جســدي بهدوء، وتهيم الدنيا من حولي وأسقط في كادر مظلم، لا تفاصيل له.

* * *

fb/mashro3pdf

(٣)

أجلس بجوار ماهيتاب ونحن نتناول عشاءنا فلا أهتم بالطعام، ملامحها وطريقتها معي استفزتني بصورة كبيرة، فحاولت أن أقتحم سورا بدا أنها اهتمت ببنائه جيدا، وأقول لها:

ـ مش عايزة تقولي لي برضه كنتي في قسم إيه؟

تكمل أكلها بآلية وترد علي من دون أن تنظر ناحيتي:

ـ وهتفرق معاك في إيه؟

ـ الرد هيضايقك في حاجة؟

تترك الشوكة وتلتفت ناحيتي فأشعر أنها ستقول كلمة تنهي الحوار قبل أن يبدأ:

ـ إنت ليه شاغل نفسك بكنت في قسم إيه؟

ـ أصلي كنت في يوم من الأيام بفكر أدخل إعلام بدل معهد السينما.

fb/mashro3pdf

ـ وليه معملتش كده؟

ـ مش فاكر.

أقولها متقمصا دورها معي من قبل فتبتسم، الباب موارب الآن، ، اقول:

ـ بسأل عشان لو كنت في قسم الفن مثلا أحب أقرأ مقالات ليكي.

ـ لا كنت في قسم التحقيقات، بس في مدونتي كنت بكتب أحيانا نقد الأفلام.

ـ كويس قوي، ممكن أقرأ حاجة كنتي كاتباها؟

أشعر وكأن ملامحها تغيرت الآن، أراجع ما قلت فلا أجد سببا لذلك.

ـ ما لك؟

ـ أبدا.

ـ طب مجاوبتيش.

ـ إنت شكلك عايز تعرف رأيي في أفلامك.

ـ أكيد.

ترشف بعضا من كوب الماء أمامها وتقول:

ـ شوف، أنا ماكتش بقف كتير قدام فكرة فن رديء أو فن هادف وكده، لأني عارفه إن دي مسألة نسبية، بس كان السؤال اللي ملقتلوش إجابة هو، بما إنك معاك ميزانية مثلا ١٠ ولا ١٥ مليون جنيه، ليه ماتستغلش الميزانية دي بإنك تعمل أفلام تخلي السينما تتحرك لقدام مش

fb/mashro3pdf

لورا؟ فيلم يفضل ويعيش، مايموتش في وسط الموجة.

أنظر إليها وتغمرني الذكرى، وكأنها كانت حاضرة معنا وقتها، ويتردد الصدى في ذهني.

* * *

أقول للمنتج:

ـ ما انت هتحط تحت إيدي ميزانية هتوصل لـ ١٢ مليون جنيه، ليه ماتسيبش أعمل الفيلم اللي انا عايزة، مش الهباب اللي انت جايبه لي ده؟

يضحك بصوت عال ويقول:

ـ هو انت فاكر ني حاطط لك الميزانية دي عشان خاطرك؟ الورق اللي معاك ده فيه الخلاصة اللي الناس هتروح تدفع فيها فلوس، إيه اللي يخليني أحط فلوسي في حاجة مش مضمونة؟

أنظر إليه ولا أرد ويغيب هو في لف سيجارة الحشيش التي في يده.

* * *

أقول لماهيتاب:

ـ إدبني مُتفرّج أديكي فيلم كويس.

تُدهش وتقول:

ـ مش فاهمة.

ـ المنتج اللي بيحط فلوسه في فيلم، يا إما حابب السينما لدرجة إنه يحط فلوسه في حاجة مش مضمونة، يا إما يعمل فيلم هو عارف إن الناس

fb/mashro3pdf

مزوح تتفرج عليه وتدفع فيه فلوس، أفلام كتير لطيفة بتعمل بس إيراداتها في الآخر مبتعديش مليون ولا اتنين مليون جنيه.

يبدو عليها عدم الاقتناع، فأكمل أنا:

ـ واحد عمل فيلم تكلفته ١٠ مليون جنيه، فيه عيل بلطجي وكام واحدة بترقص، على كام فستان عريان وشوية أغاني شعبي، وجاب له ٣٠ مليون جنيه، تفتكري ممكن يحط نفس المبلغ في فيلم يجيب له مليون ولا اتنين؟ إيه اللي يخليه يعمل كده؟ ده غير طبعا شركات التوزيع اللي بتملك السينمات، هي كمان ماشية بنفس منطق المنتج، يعني الدايرة كلها خربانة.

ـ وانت دورك فين من كل ده؟

ـ أنا مستعد أعمل فيلم ميجيبلش فلوس، حتى لو هيتخرب بيت المنتج، بس أعمل في الآخر فيلم كويس يسافر برة وأبقى مقتنع بيه، بس إديني فلوس وقاعات عرض ومشاهد عايز يتفرج.

أتذكر لقطة جمعت بين نور الشريف وتوفيق الدقن من فيلم «حدوتة مصرية» ليوسف شاهين:

ـ سوق، بس اسمعني لحد الآخر.

ـ مش دافع ولا مليم.

ـ البت بتاعة الأزوزة مقلوظة وملعلطة، قابلت صاحبتها، مقلوظة برضه، نخليهم هم الاتنين مقلوظين، ليه لأ؟ مش السوق عايز كده؟

ـ أهو كده ابتديت تعقل، كمل... كنا عند البت!

ـ أيوة، البنت اتخانقت مع بقيت البنات، كل البنات رشوا عليها المية،

fb/mashro3pdf

الهدوم لزقت على جسمها، لأ عيب اختشوا! راحت جارية على أوضته الصفيح، جو غريب هه؟

ـ صفيح إيه؟ بلاش فقر، الناس مش عايزة جلاليب، الثورة غيرت ده كله.

ـ لأ جلاليب إيه، إحنا هنعمل فيلم سكس! تروح داخله والواد الأعرج وراها، ويتدارئ ورا شوية كراكيب، ويقعد يبص لها.

ـ كويس، يبص لها ازاي؟

ـ زي ما انت فاهم بقى، الفيلم هيموت الناس من الضحك وهيجيب مليون جنيه، واد أعرج بيحب بت زي لهطة القشطة، بكرة السيناريو هيكون جاهز قدامك.

تغمرني موجة قوية من الضحك الهيستيري، تنظر ماهيتاب ناحيتي باستغراب فأقول:

ـ أصلي افتكرت لقطة لنور الشريف في فيلم «حدوتة مصرية».

ـ طبعا اللقطة اللي كان بيحاول فيها يقنع المنتج بفيلم «باب الحديد».

ـ برافو عليكي.

نضحك معا بصوت عال وأشعر أن الباب أصبح على مصراعيه الآن، ملامحها تقول إنها لم تضحك بهذا الشكل من قبل، تتذكر أمرا ما يبدو قد طرأ على مخيلتها وتكتسب للحظات، فتغمرني الكآبة وكأنها العدوى.

ـ مالك؟

ـ أبدا مافيش.

fb/mashro3pdf

ـ فيه حاجة ضايقتك؟

ـ لأ بس بقالي كتير ماضحكتش بالشكل ده!

نتبادل النظرات قليلا، وكأن الكلمات قد انتهت الآن.

نسمع السيوفي وهو يقول:

ـ إيه رأيكم نعمل حاجة جديدة؟

النظرات من حولي تتعلق بالسيوفي، منتظرة معرفة كنه هذا الشيء الجديد، ويكمل السيوفي:

ـ إحنا بقالنا فترة روتين يومنا واحد تقريبا، ليه مانفكرش نغيره.

يقول كمال:

ـ نغيره إزاي؟

السيوفي يبدو متحمسا، غريبة شخصية السيوفي، لم أشعر يوما أنه يعاني اكتئابا ما أو مرضا يجبره على الوجود هنا، لا أعرف ولكن تصرفاته تحيطه دائما بهالة من الغموض، حتى وأنا ألاحظه يحاول التودد إلى فريدة، تغمرني الشفقة ناحية تلك المسكينة، وكأنني أخاف عليها منه لسبب لا أدريه، لنرَ ماذا يريد، وأسمعه يقول:

ـ نخرج برة المصحة كام ساعة ونرجع تاني.

فيرد عليه عبد السلام الصامت أغلب الوقت:

ـ مش فاهم يعني نطلب من الإدارة إننا نخرج؟

ـ لأ من غير ما نطلب، حد فيكم متخيل متعة اننا نهرب كام ساعة من المصحة؟

fb/mashro3pdf

أضحك أنا بصوت عال وأنا أتذكر جاك نيكلسون في فيلمه الأثير، وأقول له:

- عايز تعمل زي جاك نيكلسون في فيلم (One Flew Over The Cuckoos Nest)؟

- حاجة زي كده.

تقول فريدة وملامحها تصرخ بخوف لا أدري سببه:

- لأ طبعا أنا مش موافقة.

ينظر إليها السيوفي ويقول:

- ليه؟

- من غير ليه.

أفكر في عرض السيوفي ولا أجد أي مقاومة داخلي، تجربة جديدة وفرصة للتقرب اكثر من ماهيتاب، بعيدا عن جو المصحة الممل، لنرَ.

أقول لماهيتاب بعد أن تركنا غرفة الطعام:

- إيه رأيك؟

- في إيه؟

- في موضوع السيوفي.

- مش عارفة.

أشعر أن بداخلها رغبة الخروج، لكن يحيط تلك الرغبة إطار من الخوف والتردد، وأتمنى أن أعرف تفاصيل حكايتها، وكيف وصلت إلى

fb/mashro3pdf

. . أحاول أن أطمئنها وأقول:

ـمفيش حاجة تمنع، آهي تجربة جديدة.

ـ يمكن تكون دي هي المشكلة.

تتركني وتذهب إلى غرفتها فتزيد من فضولي لمعرفة قصتها، أحاول أن أتخيل تاريخ الصراع فلا أستطيع. أشعر أنها شخصية جديرة بأن تكون في أحلام لمحمد خان، تفصيلة بسيطة لا يلاحظها إلا من يريد فعليا أن يرى، حدوتة أطول كثيرا مما تظن، تحتوي على كم كبير من المشاعر والألم لا يقف عندها كالعادة إلا السادة المدققون.

* * *

في الخارج وبعد أن خرجنا من باب المصحة، تعمدت أن أسير بجوار ماهيتاب علني أجد مفتاحا يفك طلسمها المعقد، وأسمع السيوفي وهو يقول لفريدة:

ـ متشكر إنك وافقتي.

فيزيد إشفاقي عليها وأشعر أنه يغزل خيوطه من حولها فتتقيد، لم أكون رأيا كاملا لا عن السيوفي ولا عن فريدة، لكن هذه الفكرة لا تريد أن تبرح مخيلتي، وأقول للسيوفي:

ـ المهم هنروح فين؟

ـ على أول الشارع فيه عربية كبيرة مستنيانا.

أتأمل المجموعة الآن فأشعر كأننا مجموعة من العشاق، قرروا أن يتنزهوا في الخارج ليلا، أنا بجوار ماهيتاب، وفريدة بجوار السيوفي، في

fb/mashro3pdf

حين تبدو على عبد السلام رهبة الموقف، أو الندم على خروجه معنا، لا أعرف.

أبصر كمال يسير بجوار سلمى، وأشعر أن بينهما علاقة ما، دائما هما معا، وكثيرا ما يبدو لي أن سلمى تحاول التودد إلى كمال، وكأنها تعتذر له عن شيء لا أدركه، في حين يبدو عليه التمنع، وأقف طويلا محتارا إزاء شخصية كمال، دائما صادم في آرائه أو مناقشاته وكأنه يخشى أن تنزع عنه قناعاته، وأحاول تخيل تاريخ صراعه وسبب قدومه إلى المصحة فلا أصل إلى أي نتيجة.

أختلس النظرات إلى ماهيتاب فأكتشف أنها تفعل معي المثل! وكأن كلا منا يختبر رغبته في التعرف على الآخر، شاب وفتاة في الجامعة تعرفا منذ قليل ووجدا بعضا مما يوصل بينهما، فقررا التودد.

في نهاية الشارع القابعة فيه المصحة، نرى السيارة التي قال لي عنها السيوفي فتتجه ناحيتها، ينزل السائق ويفتح لنا الأبواب ونركب.

* * *

يحتوينا مطعم ساهر فتلتف المجموعة حول طاولة، يبدو أن السيوفي كان قد حجزها سلفا! قليلا وأسمع السيوفي يقول:

ـ مش حاسين بفرق؟

تقول سلمى:

ـ ماكنتش فاكرة ان الموضوع هيكون مختلف كده.

فأرد أنا بسخرية:

ـ حاجة لطيفة فعلا إننا نهرب من المصحة عشان نيجي نتعشى سوا.

fb/mashro3pdf

السيوفي ينظر ناحيتي ويقول:

ـ الفكرة انك تحس بإنك بتعمل حاجة بره الكتالوج.

يقول كمال:

ـ والكتالوج بتاعك فيه إيه غير العشا؟

ـ هنروح البيت عندي وأفرجكم على التحف والرسومات اللي جبتها من أماكن كتير في العالم.

أميل على ماهيتاب وأقول:

ـ ممكن أسألك سؤال؟

ـ اتفضل.

ـ إيه اللي حصل لك وخلاكي تدخلي المصحة؟

فتقع الشوكة من يدها ويبدو عليها اضطراب لا حدود له، أشعر للحظات بالندم على سؤالي، أحمق طعن أحدهم بسكينا في القلب ووقف ينتظر رد الفعل! أناولها شوكة جديدة وأعتذر، لكن كان أوان الاعتذار قد فات، وتقول لي:

ـ ممكن أنا أطلب منك طلب؟

ـ اتفضلي

ـ ممكن تسيبني في حالي وماتدخلش في حاجة ماتخصكش؟

يغلبني الارتباك وأشعر بوجع الخطيئة تدب في أوصالي، في الوقت الذي كان الباب قد انفتح للقليل من الهواء، جئت أنا وأغلقته ثم ألقيت بالمفتاح في مكان لا وجود له! أنظر إليها بإشفاق وألاحظ أنها غابت عن

fb/mashro3pdf

المكان تماما، هل تتذكر حكايتها الآن أم تلعني في سرها؟ وتكثر الأسئلة داخلي ولا تجد لها مجيبا، فأنظر إلى طبقي محاولا إنهاء الموقف، لكن الغصة اللعينة تظل عالقة في حلقي لا تنزاح.

* * *

يقول لي عبد السلام بصوت خفيض بعد أن وصلنا أمام عمارة السيوفي:

ـ اللي بنعمله ده غلط.

ـ جاي هنا تقول كده؟

ـ مش عارف.

ـ هدي نفسك بس، آهي ليلة وتعدي.

ـ وافرض حصل حاجة ولا حد قرر انه مايرجعش المصحة؟

ـ عادي، ساعتها هتبقى مشكلته مش مشكلتنا.

ينظر لي بعدم اقتناع طبعا وأستغرب أنا قلقه، وكأنه مسؤول عن المجموعة وليس عضوا فيها، وحينها نتحرك ناحية باب العمارة أسمعه يقول:

ـ أنا هشتري حاجة وآجي.

فيخبره السيوفي رقم الشقة وأتساءل أنا عن تصرفه، ماذا سيفعل ولماذا يخاف بهذه الصورة؟ أطرد عن ذهني كل هذا وأدخل مع المجموعة إلى العمارة.

* * *

fb/mashro3pdf

في شقة السيوفي أقف طويلا أمام أرفف امتلأت بأفلام مهمة فعلا، ،أستغرب على السيوفي ولعه بالسينما بهذا الشكل، لم أظنه بتلك العقلية أصلا، دعك من أن طراز المنزل نفسه يليق بأحد الأرستقراطيين الذين يتميزون بالرجاحة والهدوء، وهي صفات لم ألمسها فيه، فتزيد هالة الغموض حوله وتتردد الأسئلة داخلي عن سبب دخوله المصحة وما وراءه من حكاية، أرى ماهيتاب واقفة بمفردها يبدو عليها الاضطراب، هل ما زال سؤالي عالقا في ذهنها حتى الآن؟ أتحرك ناحيتها محاولا الاعتذار أو مواربة الباب من جديد، وأقول لها:

ـ أنا آسف.

تنظر إليّ وألمح في عينيها نظرة لوم، وأقول لها:

ـ كنت بسألك لأني حسيت اني محتاج أقرب منك أكتر.

تزفر هي بقوة وكأنها تود التخلص من آثار عالقة على صدرها:

ـ ماحصلش حاجة.

نتبادل النظرات وأود أن أمسك يديها الآن علها تطمئن، لكن التردد يمنعني. نسمع صوتا آتيا من الداخل فتغمرنا التساؤلات عن مصدره، يتحرك السيوفي ناحية الغرفة التي خرج الصوت منها ونحن خلفه، يفتح باب الغرفة فنرى رجلا وامرأة يبدو أنهما كانا يتضاجعان وقطعنا عليهم نحن اللحظة الأثيرة، أنظر تجاه المرأة وأشعر أنني رأيت تلك الملامح من قبل، لكن أين؟ وأرى السيوفي يدخل الغرفة وعلى وجهه ابتسامة استغربتها، ويقول:

ـ إيه المفاجأة الحلوة دي؟

fb/mashro3pdf

فيقول الرجل المصدوم والذي يلعننا الآن بالتأكيد:

ـ رشدي؟

من هذا الرجل ومن تلك المرأة وما علاقتها بالسيوفي؟ هل هي زوجته؟ ولماذا أشعر كأنني رأيتها من قبل؟ ويقول لنا السيوفي:

ـ استنوني بره لو سمحتم يا جماعة.

فنخرج ويبدو علينا الإحراج من الموقف، ويغلق الباب فلا نعرف لا أصل الحكاية ولا نهايتها، وأنظر ناحية ماهيتاب فأجدها مرتبكة بشدة، وكذا كانت فريدة وسلمى، كمال لا يبدو مهتما بالموقف وقلت أنا:

ـ تفتكروا دي مراته؟

فيدهشهم السؤال وكأنه كان يتردد داخلهم قبلي، وأسمع ماهيتاب تقول:

ـ يا ريت ننزل من هنا يا جماعة.

نبرة صوتها وملامحها المكتئبة تعطني عددا من الرسائل، لا أستطيع أن أفك شفراتها، ويغمرنا الصمت قليلا، لا يقطعة إلا خروج السيوفي متجهم الوجه، نبصره وهو يتجه مباشرة إلى باب الشقة فيزيد من تساؤلاتي، ونتحرك خلفه علنا ننهي هذا الموقف، لكنه سيظل عالقا في الأذهان طويلا.

يقول لي السيوفي بعد أن نزلنا من السيارة:

ـ آهو مطلعش one Flew Over The Cuckoos Nest، طلع «ثرثرة فوق النيل» بس من غير «فلاّحة»!

* * *

fb/mashro3pdf

(٤)

انشغلت بماهيتاب أكثر بعد ذلك، من دون أن أعرف السبب الفعلي لهذا، وإن كان تفهمها في أكثر مناقشاتنا دافعا إلى أن أزيد من تلك المناقشات، حتى وإن لم نكن نصل إلى قناعة واحدة في أغلبها. يقول نجيب محفوظ إن العقل الواعي هو القادر على احترام الفكرة حتى لو لم يؤمن بها، وقد وجدت عند ماهيتاب هذا العقل الواعي فانغمست في توددي إليها أكثر، وكأنني وجدت متنفسا في وقت ظننت فيه أن الرئتين قد ضاقتا بالتنفس! كل هذا من دون أن أتساءل عن جدوى التودد أو الغاية من ورائه. الغريب أنها ومع الوقت لم تعد تبدي ضيقا أو تبرما بتوددي هذا، وكأنها هي أيضا تحتاج إلى ذات المتنفس، وقد وجدت إليه السبيل.

قلت لها يوما:

ـ إمتى أبقى متأكد ان رأيي بخصوص موضوع معين مش هيتغير وهيبقى حقيقة مطلقة جوايا؟

fb/mashro3pdf

تنظر إليّ مستغربة السؤال المعقد، وأجدها تبحث عن إجابة فتغيب عني للحظات، أحاول أنا خلالها أن أنقب بداخلها علني أصل مباشرة إلى ما أريد، قليلا ثم تقول:

ـ مايتهأليش إن ده ممكن يحصل، لأنك على طول بتغير، وتغييرك ده ممكن يخلي أي حاجة انت مقتنع بيها محل شك، فتعيد نظرتك ليها تاني، وممكن لأ طبعا، مافيش ضمانات.

أبتسم أنا وأنظر مباشرة في عينيها وأقول:

ـ طب ليه إنتي مصرة تتعاملي مع حكايتك اللي بسببها جيتي هنا، على إنها حاجة مطلقة مش هتتغير، لدرجة إنك حتى مش عايزة تقوليها؟

تنظر ناحيتي وتتغير ملامحها تماما، تحاول أن تقف لمغادرة المكان فأمسك يديها مانعا إياها من الهروب، تجلس مرغمة وتقول:

ـ بس أنا برضه قلت إن ممكن فكرتك ماتتغيرش.

ـ وممكن تتغير.

ـ مفيش ضمانات.

ـ الضمانة دي إحنا اللي بنخلقها جوانا.

ـ مش دايما.

نتبادل النظرات قليلا فأشعر كأن الوصول إلى حكايتها القديمة هو المستحيل نفسه، ثم تقول:

ـ إنت ليه مهتم قوي كده تعرف أنا جيت هنا ليه؟

ـ عندي إجابتين للسؤال.

fb/mashro3pdf

ـ واحدة بس كفاية.

أنظر في عينيها مباشرة وأقول:

ـ أنا مخرج، واكتشفت إني بهتم بالتفاصيل وخصوصا الغامضة منها، بما إن أفلامي المفضلة هي اللي فيها جزء غامض بيجبرني على التفكير فيه، فحاسس إني عندي فضول أفهم الجزء الغامض اللي فيكي.

ـ أنا مش فيلم، وماعنديش تفاصيل.

ـ تفتكري؟

تغيب عني لحظات أحاول خلالها أن أعرف فيمَ تفكر، فلا أصل إلى نتيجة، وأتساءل: ما هذا الاهتمام بما وراء الحكاية؟ كنت دوما أسأل أصدقائي ونحن نتسكع بشوارع وسط البلد المزدحمة، عمن يمتلك القدرة على معرفة حكاية كل هؤلاء، وأشير إلى البشر الهائمين في الشارع من حولنا، يضحكون قائلين إن الجنون أقرب إليّ من ذلك، فهل هذه هي خلاصة الحكاية؟ بين الجنون والحاجة إلى المعرفة خيط دقيق لا يراه إلا السادة أصحاب الملاحظة القوية، فأين أنا من هؤلاء؟

تعود إليّ من جديد وأشعر أن هناك بريقا ما في عينيها، وتقول:

ـ اللي عايز يشوف حاجة غامضة هيشوفها كده.

ـ لا أرجوكي بلاش نلعب مع بعض اللعبة دي.

ـ لعبة إيه؟

ـ لعبة «ده حقيقي عشان انت عايز تشوفه حقيقي وده مزيف عشان انت عايز تشوفه كده»

fb/mashro3pdf

تبتسم فأرى تفاصيل جديدة في ملامحها! وتقول:

ـ طب إيه الإجابة التانية اللي قلت عليها؟

ـ إجابة إيه؟

ـ مش قلت ان سؤالي له إجابتين؟ إنت قلت واحدة، فين التانية؟

ـ آه، الإجابة التانية يا ستي، وأتمنى متشوفيهاش كليشيه، إني مهتم أعرفك أكتر.

ـ لا هي كليشيه فعلا.

نضحك معا، وأقول لها:

ـ أنا نفسي مستغرب ده، بقالي فترة مش مهتم بأي حاجة ولا أي حد، بس انتي غيرتي المبدأ.

تقف مستعدة للعودة إلى غرفتها، وتقول لي وكأنها تختم المشهد:

ـ أنا كمان مستغربة زيك بالظبط، عشان قعدتي معاك دي معناها إن فيه حاجة بتتغير جوايا.

تتركني وتمضي، وأتابعها أنا مبتسما.

* * *

توفيق المصري، وافد جديد وحكاية أخرى تنضم إلى كتالوج السادة مناهضي الحياة، والذين حاولوا في وقت ما من الحدوتة، إنهاءها قبل الأوان المقدر لها.

تجذبني ملامحه المحفورة جيدا وأشعر أنه سيكون رائعا أمام الكاميرا،

fb/mashro3pdf

إن قدر له وفعل يوما، شاهد برادلي كوبر في The Hangover، وألاحظه يتعامل مع المجموعة في البداية ببعض التحفظ، لا أعرف إن كان ناجما عن طبيعة شخصيته أم بسبب حكايته التي لا أعرفها؟

اضبطني أكثر من مرة وأنا أتأمل أفراد المجموعة، محاولا أن أرسم لكل منهم دورا في سيناريو مكتوب بعناية، فأكتشف أن هناك تجربة تلوح في الأفق، ويقول توفيق يوما:

ـ هو ليه الواحد مايقدرش يرجع شريط حياته لورا؟ يمكن ساعتها يقدر يغير حاجات كتير في اللي حصل.

حسنا، كانت الحكاية غامضة فبدت وكأنها ستجد طريقا إلى النور.

ـ كنت راجع أنا ولبنى مراتي وملك بنتي من مرسى مطروح، متهيألي لو كانت الدنيا وقفت عند اللحظة السعيدة دي، كان الواحد قال انها جديرة بإنها تتعاش، لكن واضح اني كنت مغفل.

فيقول كمال:

ـ إيه اللي حصل؟

ـ عملنا حادثة، هم ماتوا وأنا كملت.

يتابني شعور غريب، وكأنني أرفض أن تكون القصة بهذا الوضوح وتلك المباشرة، أحاول أن أستعيد ملامحه وهو يحكي قصته، علني أستطيع ترجمة مدى علاقتها بالحقيقة فيغيب عني أداؤه وكأنها سطور تقرأها فتختفي من الكتاب فجأة، وأتساءل: هل مشكلتي مع وضوح الحكاية أم أن لغموض ماهيتاب دورا في هذا الشعور؟ وكأنك بعد مشاهدة فيلم لشاهين وآخر لخان قد أعقبتهما بواحد لحسن الإمام!

fb/mashro3pdf

أتأمل المجموعة من حولي فأرى تأثرا كبيرا بما قاله توفيق، فهل جف الإحساس من قلبي؟ أرى فريدة تبكي بانهيار فأتأكد أن للموت علاقة بحكاياتها القديمة، تركض من الغرفة وتلحق بها سلمى وماهيتاب، في حين نتبادل نحن النظرات.

* * *

أجلس وحيدا في غرفتي محاولا الإمساك بفكرة بدت كأنها كانت تلوح في مخيلتي ثم نسيتها، ومضة سريعة بدت قوية للحظات ثم اختفت فجأة فخلفت ظلمة غريبة، أخرج رزمة الأوراق من درج الكومود وأقرأ ما كتبته فأشعر كأن هناك شيئا جديدا يتحرك داخلي، شيئا آخر وجد له طريقا في حياتك فصار جزءا منها، يبدو أن عبد السلام كان محقا في كلامه معي.

أحاول العثور على الفكرة إياها مرة أخرى، لكنها تتوه وسط تفاصيل عدة تحوم في رأسي الآن، أكره أن أشعر بأن هناك زحاما في رأسي، خصوصا حينما أحتاج إلى بعض الترتيب، وأتذكر أميرة وأتساءل أين هي الآن وماذا تفعل؟ وهل ساعدت أنا في تحريك قصة حياتها إلى الأمام أم إلى الخلف؟ المشكلة الحقيقية أن لعنتي ستظل تطاردها طويلا مهما حاولت هي التخلص منها، أشعر بالكآبة للحظة ويغمرني شعور من ساهم في تدمير حياة شخص ما، أعرف الوسط جيدا وأستطيع تخيل مدى ما تعانيه الآن، وأتوقف أمام سؤال لم يرد في خاطري من قبل، هل حاولت أن أعثر بداخلها عن موهبة قالت إنها تملكها؟ أم أنني اكتفيت بالتعامل معها مثلما كنت أتعامل مع كل التفاصيل من حولي؟ من يعيش في صفيحة قمامة من الصعب عليه أن يتمكن من التميز بين رائحة العفن ورائحة العطر، الروائح وقتها تتداخل بصورة مدهشة مكونة مزيجا

fb/mashro3pdf

.مل الإحساس داخلك، ويضع بدلا منه قطعة من الكاوتشوك! لكن إن كان الأمر كذلك فلمَ كان تأنيب الضمير يغمرني بين الحين والآخر؟ او كنت قد تخلصت من غدة الإحساس داخلي، ما كنت لأكتب متسائلا عن موهبة فيمَ أفنيتها؟ وعن حلم فيمَ أبليته؟ وعن عمر كيف وطأته بأقدامي؟ وأكتشف أن أميرة كانت ضحية أوهامي وحماقاتي فتزيد الكآبة، أحاول أن أتذكر ملامحها فأشعر أنني قد نسيت معظمها، لوحة مركونة بإهمال في القبو، تعرف أنها كانت موجودة هناك، لكنك لا تستطيع وصف تفاصيلها بدقة، وأعترف، في حال خروجي من المصحة سوف أعود إلى القبو، أبحث عن اللوحة وأزيل عنها التراب وأخرجها من جديد إلى النور، على أن أسألها أن تغفر لي خطيئة الإهمال.

مع الاعتراف، تضيء الفكرة إياها وكأن ميعاد عودتها قد حان فجاءت، أبتسم وأكتب تفاصيلها على الورق حتى لا يكون مصيرها النسيان من جديد.

* * *

أقول لماهيتاب ونحن جالسين بحديقة المصحة:

ـ أنا بفكر أعمل فيلم هنا.

ـ مش فاهمة.

ـ فيلم يكون كل اللي موجودين في المجموعة أبطاله، أنا وانتي وفريدة والسيوفي وكمال وسلمى وعبد السلام وتوفيق... كلنا.

تنظر إليّ وتفكر قليلا وتقول:

ـ وهتكون إيه تفاصيله؟

fb/mashro3pdf

ـ مش عارف، لـه بفكر، بس حاسس بشوية حماس ناحية الفكرة.

ـ هي فكرة كويسة قوي وغريبة.

ـ تخيلي معايا فيلم أبطاله عندهم مشاكل نفسية، يصوروه بنفسهم، وينفذوه جوه مكان جمعهم لأول مرة.

تفكر قليلا وتقول:

ـ وممكن كمان كل شخصية منهم تشارك في كتابة دورها في الإسكربت.

أنظر إليها وأبتسم، فتستغرب هي ابتسامتي:

ـ ليه الإبتسامة دي؟

ـ كنت حاسس وانا بقول لك الفكرة إنك هتقولي لي «وأنا مالي»

تضحك فتضيء المصحة أكثرا وتقول:

ـ مش قلت لك ان فيه حاجة بتتغير جوايا؟

ـ طب ما تكملي جميلك وتقولي إني سبب في التغيير ده.

أشعر بوهج الخجل يورد خديها، وأكتشف أنها قد اتخذت مكانا ما داخلي بأريحية، وأقول:

ـ الإجابة وصلت.

تنظر إليّ بدهشة طفولية تؤكد المعنى ولا تنفيه وتقول:

ـ المهم خلينا في فكرة الفيلم، تفتكر هنا هيوافقوا على حاجة زي كده؟

ـ بصي، أنا أصلا مستغرب حاجات كتير بيسمحوا بيها في المصحة هنا، زي إن المجموعة تبقى مختلطة فيها رجالة وستات، وزي إن مفيش

fb/mashro3pdf

ـبرود قوي في تفاعل المجموعة مع بعض، حتى السهولة اللي خرجنا بيها من المصحة يوم السيوفي غريبة، كل ده بيقول انهم مش هيعترضوا على الموضوع ده.

ـ وانت تفتكر طريقتهم دي معناها إيه؟

ـ مش عارف، بس مش هنكر انها ساعدت كتير في كسر السور اللي كنا كلنا بانينه جوانا، تنكري؟

تفكر قليلا ثم تقول:

ـ فعلا.

ـ وأنا متأكد إن فكرة الفيلم دي هتساعد في حل مشاكل كتير مش عايزين نتخلص منها، حاجة هتخلينا نصرخ باللي جوانا، من غير ما نخاف لا من رقابة ولا من منتج عايز يعمل فيلم على مزاجه.

ـ واضح انك ابتديت تتخلص من جزء من مشاكلك فعلا.

ـ ده حقيقي، وانتي ليكي دور في ده.

فتقول بدهشة:

ـ أنا؟

ـ أيوه إنتي، ونفسي لو فيه صورة معينة واخداها عني تتغير، ممكن تساعديني في ده؟

تنظر ناحيتي ولا ترد، لكن الإجابة كانت قد وصلت من نظرة عينيها.

* * *

fb/mashro3pdf

أدهش من حماسي للفكرة، وأضبطني طوال الوقت وأنا أفكر في كيفية تحويل فكرة مكونة من كلمة واحدة (فيلم) إلى صراع داخلي لتنفيذها، نقطة صغيرة في الكادر تتسع لتبتلعه بأكمله.

أتحرك في الغرفة باضطراب طالب حديث التخرج يبحث عن فكرة يقنع بها منتجا ما ليبدأ بها طريقه، وأكتب على الورق: ما بين عناء البداية وحماستها تضيء الشعلة، وعند النتيجة المرسومة تترسب الكآبة وينطفئ الضوء، صراع أبدي بين أن تعيش أو تحفر لنفسك قبرا.

ما يحدث بداخلي هذا غريب، كومة من الهزائم يخرج من بينها سبيل للانتصار، أحاول أن أرسم تفاصيل عدة تحوم برأسي على الورق، حتى لا تتوه فجأة فتزيد من تزاحم المشاعر في صدري، أمزق أوراقا وأحتفظ بأخرى ثم أستعيد ما مزقته من جديد، رحلة ممتعة تغمرها مرارة التاريخ، ومرارة تحاول أن تجد لها خيطا من الإمتاع.

أقول لهم في جلسة استماع:

ـ أنا بفكر نعمل فيلم سوا.

أنظر ناحية ماهيتاب فألمح في عينيها نظرة تشجيع كان لها مفعول السحر، أتأمل ملامح المجموعة علني أجد أثرا لما قلته، ويقول السيوفي:

ـ مش فاهم.

ـ نعمل فيلم عن وجودنا هنا، وهنفكر سوا نعمل إيه فيه، وكل واحد هيكتب شخصيته زي ما هو عايز يشوفها على الشاشة.

يهز السيوفي رأسه بعدم اقتناع، وأسمع عبد السلام يقول بحماسة غريبة:

fb/mashro3pdf

ـ أنا موافق جدا.

يقول كمال:

ـ رياليتي شو؟

ـ مش بالظبط، تقدر تقول انها شوية ريالتي على شوية روائي، الإسكربت اللي هيحدد.

وتقول سلمى:

ـ ومين اللي هيكتب الإسكربت؟

ـ هنقعد سوا نتفق على الشكل اللي عايزينه وهكتب أنا الإسكربت، ومعايا ماهيتاب.

أنظر إليها وألمح اضطرابا كبيرا يغزوها، لم أقترح عليها الفكرة من قبل وآثرت أن تكون مفاجأة، أشعر أن معاناتها لها علاقة بالكتابة أو بعملها القديم، وسأحاول أن أخرجها منها. نتبادل النظرات قليلا وأسمعها تقول:

ـ أنا؟ أنا عمري ما كتبت حاجة زي دي.

ـ كل حاجة وليها بداية، ولا انتي نسيتي انك صحفية؟ على الأقل بتعرفي تمسكي القلم.

ـ بس....

ـ مفيش «بس» المهم يا جماعة إيه رأيكم؟

سحر الأمر الواقع واضطراب من لم يستطع الرد. وأسمع فريدة:

fb/mashro3pdf

ـ بس هنا هيوافقوا على الموضوع ده؟

عبد السلام يجيب فيزيد علامات الاستفهام تجاهه:

ـ نقدر نكلم الدكتور فؤاد وهو يكلم الإدارة.

السيوفي يبتسم بسخرية من لا يبتلع الموقف:

ـ بس هو التصوير ده حاجة سهلة؟

ـ إنت نسيت اني مخرج؟ معدات التصوير أنا هبعت أجيبها، كاميرا فايف دي، مايك لتسجيل الصوت ومعدات بسيطة للإضاءة وكمبيوتر عليه برنامج مونتاج، بس كده، الفيلم كله هيتصور هنا، وكل المراحل بتاعته هتخلص برضه هنا.

أسمع توفيق يقول:

ـ أنا بره الموضوع ده يا جماعة.

يعترض البعض على ما قال وأبتسم أنا، لقد وجدت الفكرة إليهم سبيلا حتى إنهم سيدافعون عنها، وتقول فريدة:

ـ لو انت ماشتغلتش يا توفيق أنا كمان مش هشتغل.

ـ أرجوكي متعمليش كده، مش هكون مبسوط لو ده حصل.

تتدخل سلمى:

ـ واحنا مش هنكون مبسوطين لو في حد ماشتركش.

ـ معلش يا جماعة.

لا أعرف مشكلته، لكن يبدو أنه يريد أن يهرب من التجربة وكأنها

fb/mashro3pdf

الجحيم، فهل لهذا علاقة بحكايته؟ أقول له:

ـ إيه مشكلتك في الموضوع؟

ـ ماعنديش مشكلة بس مش هقدر أساعد فيه.

ـ مين قال لك؟ مش يمكن اخرجك من هنا وتبقى ممثل محترف؟

اقولها صادقا فألمح السخرية على ملامحه، صدقني يا عزيزي أنت لا تعرف ما أستطيع أن أخرجه من داخلك، ويقول كمال:

ـ خلينا نشوف الإسكربت لما يتكتب... شوف نفسك الأول على الورق وبعدين قرر.

السيوفي يتدخل كعادته ويقول:

ـ وبعدين يا عم ده فيلم هيشوفه ١٠ ولا ١٥ واحد، وماتقلقش هنعمل لك ماكياج يظبط سحنتك شوية.

تضحك المجموعة وأغيب معهم، وأنظر تجاه ماهيتاب فأرى في عينيها نظرة لوم تجاهي، سوف أهدم السور بداخلك وليكن انتصارا جديدا في سلسلة أتمنى لها الوجود.

* * *

يتملكها غضب فهمت أنه لا يطغي على كل مشاعرها، رفض تحيطه هالة من الاقتناع، وقبول لم يتركه التردد في حاله. تقول لي ماهيتاب بعد انتهاء الجلسة:

ـ إنت ليه مصرّ تضغط على أعصابي؟

ـ لأن الضغط ده هو اللي هيخليكي تتخلصي من اللي جواكي.

fb/mashro3pdf

ـ إنت ماتعرفش اللي جوايا، ومالكش دور في الحدوتة عشان تعمل كده.

ـ بحاول يكون ليا دور، زي ما بحاول اعرف اللي جواكي.

ـ مش هتعرف، ومش هيبقى لك.

ـ هحاول.

يدهشها إصراري وأنظر في عينيها مباشرة وبقوة، سوف تفعلين، وأقول:

ـ لو تلاحظي أنا بطلت اسالك عن حكايتك، مابقتش عايز اعرفها، المهم دلوقتي.

تبحث عن كلمات داخلها فلا تجد، وأتأمل أنا ملامحها وأغيب مع التفاصيل، حكاية لم تعرف أبعادها لكنك ترى نتيجتها أمامك، سلسلة من العذابات وكومة من الهزائم، وأقول لها:

ـ ولو قلت لك اني أنا اللي محتاجك؟

تنظر تجاهي وتقول:

ـ أنا مش عايزة أعمل ده.

ـ مش عايزة إيه؟

ـ مش عايزة أمسك القلم تاني.

ـ ما هو أنا كنت مقرر برضه إني ماقفش ورا الكاميرا تاني، بس مفيش حاجة مطلقة، مش كده؟

fb/mashro3pdf

قرارات قديمة ومحاولة للتغلب عليها، وحالة جديدة من المقاومة تجد لها مكانا في أوصال تملكها الارتخاء، وتقول:

ـ ليه أنا بالذات؟

ـ مش عارف.

تنظر إليّ وتقول:

ـ أسوأ حاجة إنك تتخلى عن الحاجة اللي حلمت بيها طول حياتك، بس لما تقرر ده مابتقدرش ترجع لها تاني بسهولة، إنت ليه مش قادر تفهم؟

ـ مش يمكن بضغط عليكي عشان فاهم؟

الجولة الأخيرة في صراع ربما يكسب فيه الطرفان للمرة الأولى في التاريخ، وأسمعها تقول بعد فترة صمت:

ـ وعايزني أساعدك ازاي؟

أبتسم أنا، انتهت جولة لتبدأ أخرى، ودائرة جديدة من المحاولات، في وقت كنت أظن فيه أن اللعبة قد انتهت.

* * *

fb/mashro3pdf

(٥)

أطأ بأقدامي جنة العذاب الممتع، فتنساب على مخيلتي ذكريات ظننتها قد ماتت مع الوقت، ويترنح اليأس في قلبي وكأنه في النفس الأخير، كائن كان داخلي ظننته انتهى فيثبتني بأنه ما زال يرتع بقوة في الداخل، وأبواب كانت موصدة في عقلي تنفتح عن آخرها ليدخل منها شعاع من نور، جثة تعود من جديد إلى الحياة، وحياة لم تعد وسيلة لبلوغ النهاية بقدر ما أصبحت غاية في حد ذاتها، وأتذكر محاولة الانتحار فينتابني شعور غريب، من الذي قرر ونفذ ووقف يتابع النتيجة؟ كائن مختلف عني، وكأنني دخلت في مرحلة تغيير الجلد وأختار اللون الجديد الآن.

أغيب وسط كومة من الاحتمالات من أجل الوصول إلى نتيجة واحدة «فيلم» وكأنني أود أن أجمع كل ما يموج بداخلي لأخرجه خلاله، حزمة مليئة بالتفاصيل أخشى أن تغيب عني إحداها.

تبتلعني دوامة الأفكار فأعيد النظر في كل شيء، في حياتي، ماضيها وحاضرها، وفي تفاصيل كنت أظنها جزءا مني واتضح أنها كانت مجرد حالة عابرة، وكأنها إطار لصورة لا وجود لها، أو صورة اهترأت من

fb/mashro3pdf

نــوة الإهمال، وما بين لحظات النشوة وترسب المعاناة يخرج بعض النور، وأتساءل عن جدوى البحث عن انتصار في واقع أكلته الهزيمة، ولفظت لنا بقاياه متمثله في نفسا يتردد داخل الصدور بتوتر، فتغلبني لحظات الكآبة وأتساءل عن جدوى البكاء على ماض انزوى، فتغمرني حالة من الأمل، وأشعر أنني في معركة تتلعثم فيها خطواتي خوفا من تكرار المصير، وأعرف أن الهزيمة الآن ستكون مميتة، وستكون نهاية لكل شيء.

أقول لماهيتاب يوما في حديقة المصحة:

ـ بما إن الممثل هو اللي بيبقى عنده القدرة على إنه يحول شوية كلام على الورق لمشاعر وإحساس، فهيبقى فيه صعوبة كبيرة في إني أكتب لهم حوار، وهم بس يرددوه.

تنظر ناحيتي وتبتسم، ملامحها صافية اليوم، حتى الهالات السوداء يبدو أنها قد قررت الانزواء من أسفل عينيها، وأسمعها تقول:

ـ إنت متأثر قوي بيوسف شاهين.

فتحتل مساحة أكبر داخلي، فكرة أن تجد من معك على ذات الخط، أضحك وأقول:

ـ ده حقيقي، بس ليه قلتي كده؟

ـ لأن ده نفس المعنى اللي قاله في «اسكندرية كمان وكمان»

ـ كلام مكتوب على ورق بيحولوه لنبض قلب، إحساس، دي المعجزة.

ـ بالظبط.

fb/mashro3pdf

نتبادل النظرات قليلا ويتأكد شعوري تجاهها، وأتذكر كل النـ... اللاتي وطأن بأقدامهن مساحة ما من حياتي، فلا أتذكر لأي منهن ملامح، فقط ملامحها هي أمامي.

تقول لي محاولة إنهاء حالة الصمت:

ـ طيب شايف إيه؟

ـ بفكر اني أخلي كل واحد فيهم يحكي حكايته قبل وبعد المصحة، هعتبر إن المصحة دي مرحلة في حياة كل واحد منهم، وهنشوف أثرت فيه قد إيه، إيه اللي وصله لفكرة الانتحار أو دخله في دوامة الاكتئاب، وهل لـه نفس الشخص جواه ولا خلاص.

فتقول وأفهم أنا ما ترمي إليه:

ـ طيب وافرض إن حد منهم مش حابب يحكي عن حكايته؟

ـ مش طالب تفاصيل.

ـ مش فاهمة.

ـ يقول خلاصتها، خرج منها بإيه، أثرت في حياته ازاي، كده يعني.

ـ يعني الجزء ده مش هيكون مكتوب في الإسكربت؟

ـ لأ، الجزئية دي هتبقى ارتجالية، وهظبط معاهم أداءهم بس قدام الكاميرا.

تحاول أن تقول شيئا لكن التوتر يمنعها، وكأنها تزن الجملة جيدا قبل أن تتفوه بها، وأقول لها:

ـ عايزة تقولي حاجة؟

fb/mashro3pdf

مش ملاحظ ان كلامك كله هم، حالتهم، حكايتهم؟

ـ مش فاهم.

ـ إنت فين من الدايرة دي؟ حاسة إنك بتكلم عن مجموعة مرضى انت بتشرف عليهم مش مجرد واحد زيهم.

ابتسم وأقول:

ـ أنا المخرج واقول اللي انا عايزة.

ـ لأ بجد.

ـ ماتقلقيش، أنا في الدايرة ولسه ماخرجتش منها.

ـ أنا ماقصدتش...

أقاطعها قائلا:

ـ أنا عارف انتي تقصدي إيه، وهيكون ليا دور قدام الكاميرا، أنا بتعامل مع الفيلم ده كإنه طريقه أخرج بيها شوية من اللي جوايا، وعارف إن خروجه هيشيل شوية وجع، وانا محتاج أشيل الشوية دول.

ـ ماشي!

وتغيب عني في التفكير قليلا، ثم تقول:

ـجلسات الاستماع ممكن يكون ليها دور كويس قوي في الفيلم.

ـ وضحي أكتر.

ـ يعني لو سجلنا الجلسات وحاولنا نوصلهم لمرحلة إنهم ينسوا وجود الكاميرا خالص، متهيألي ده هيخرّج حاجة كويسة.

fb/mashro3pdf

ـ هو انتي ممكن تحبيني؟

تغلبها الدهشة ويتوقف لسانها عن الحركة، أنظر في عينيها مباشرة علني أستطيع ترجمة ما يموج بداخلها فأفشل، بحر بلا شاطئ، وبراح بلا مأوى.

تقول لي بابتسامة حاولت أن تداريها ففضحتها:

ـ مافيش ضمانات.

وأبتسم أنا، أعشق الإجابات المستترة خصوصا حينما تصدر من امرأة لها تلك العين، احتمالية الوصول إلى شاطئ، وفكرة بناء مأوى وسط البراح، وأسمعها تقول:

ـ نخلينا في الفيلم؟

أنظر في عينيها مباشرة وأقول:

ـ نخلينا في الفيلم.

* * *

غبنا معا في مرحلة كتابة السيناريو، كانت تأخذ هي الأمر بجدية، في الوقت الذي شعرت فيه أنه ـ بجوار كونه انتصارا محتملا وسط طريق الهزائم ـ سيكون جسرا مناسبا تجاهها.

في اليوم الأول للكتابة، حاولت أكثر من مرة أن تحتجج بصداع وهمي، علني أسمح لها بالهروب من جديد، لكن إصراري كان سببا في خروجها من الغرفة المظلمة، أضأت شمعة، فدلتني هي إلى الطريق.

أتأمل حماسها والقدرة على إيجاد الحلول فأتساءل: لماذا تمتلك امرأة

fb/mashro3pdf

تملك القدرة على الإبداع وتقرر الانزواء؟ لغز لا حل له، فيلم بلغة غامضة من دون ترجمة، ولوحة رسمها الفنان لنفسه فقط من دون أن يهدي المشاهدين كتالوجا لفهم ما أراد، وتمر بي ملامحها طوال الوقت، كأنها صارت المصير، وتطوف بي ملاحظاتها وكأنها صارت الجليس، تزورني ابتسامتها وكأنها صارت المضيء، تغمرني اللهفة فأنجرف، وأحاول الوصول إلى حل اللغز، وأبحث عن مترجم يساعدني في فهم اللغة الغامضة، وأبحر في الفن التجريدي عله يهديني إلى طريقة لفهم المراد.

أدخل إلى غرفتها محاولا الولوج إلى عالمها الخاص، فتنتابها الدهشة وتقول لي:

ـ خير؟

ـ عايز اراجع حاجة معاكي قبل التصوير.

ـ إحنا خلاص هنبدأ بكرة، عايز تراجع إيه؟

ـ إيه المشكلة؟

فتنظر إليّ نظرة من يعرف الحقيقة، ألمح ابتسامة خاطفة تضيء وجهها فتداريها، أتجه ناحيتها من أجل تنفيذ ما سهرت كثيرا أفكر فيه، أمسكها بين ذراعي وأترك بصماتي على شفتيها، فتتلون الجدران من حولي وتتلاشى المعاناة، لحظات كانت تحتاج إلى الخلود، ولقطة كان يجب أن تجد لها مكانا على الشريط السينمائي، وأتذكر نهاية فيلم «سينما باراديسو» حينما جلس سيلفادوري يشاهد لقطات القبل المجمعة التي كان معلمه مشغل جهاز العرض يقصها بأوامر من قس المدينة، والتي جمعها في شريط سينمائي من

fb/mashro3pdf

أجله، تغلبني نشوة الموقف، أنظر إليها وأرئ الاضطراب يغمر ملامحها. تخفي وجهها عني فأحاول أنا أن أصل إلى أثر الموقف عليها، وتقول لي وهي تعطني ظهرها:

ـ ممكن تسيبني لوحدي يا سامح؟

لهجتها تنفي السؤال ولا تؤكده، أحاول أن أتحرك تجاهها لكن التردد يمنعني، أخشئ أن أخسرها، في وقت كنت أظن أنه لا شيء يستحق العناء من أجله، ألقي ناحيتها نظرة أخيرة ثم أخرج من الغرفة.

* * *

أحضر علاء مساعدي معدات التصوير التي كنت قد طلبتها منه، من دون أن يبدو لي أن دهشته من الطلب قد تلاشت الآن، ويقول لي:

ـ ليه كل ده يا أستاذ؟

ـ هعمل فيلم.

ـ هنا؟

ـ أيوه.

يهز رأسه بعدم اقتناع، ويبدو أنه يقول لنفسه إنها علامات الخرف حتما! أشكره ويسألني إن كنت أحتاج إلى شيء آخر، فأتذكر أمرا ما.

ـ أميرة أخبارها إيه؟

ـ اختفت.

ـ يعني إيه اختفت؟

ـ من ساعة اليوم اياه وماحدش سمع عنها حاجة.

fb/mashro3pdf

تنتابني كآبة لحظية أحاول أن أطردها عن ذهني، أملا في عدم تعكير صفو التجربة، يشير لي وينصرف، وأجلس أنا مهتما بالمعدات التي حولت غرفة الاستماع إلى إستوديو صغير في انتظار الحركة أمام الكاميرا، من دون أن يغيب عني شبح أميرة، واحتمالات مصيرها المجهول.

* * *

تقابلت نظراتنا للمرة الأولى منذ الليلة إياها، هل هناك شيء تغير في ملامحها؟ وهل القناع الذي تحاول ارتداءه سيختفي سريعا أم سيجد له من الأبدية نصيبا؟ تحاول أن تشغل نفسها بقراءة أجزاء من السيناريو، في الوقت الذي أبدأ أنا فيه تجهيز الكاميرا وترتيب معدات الإضاءة، وكأننا نخشى استعادة الصورة فتختفي أبعادها، روحان في نفس الزجاجة تنظر كل منهما في اتجاه مختلف.

الآن تبدأ الرحلة، المجموعة كلها حاضرة في الغرفة، كانت هناك مناقشات مرهقة بخصوص السيناريو، وبعضهم أضاف إلى المكتوب حتى وصلنا إلى نسخة نهائية، وأنا ساعدت ماهيتاب في تحضير الديكوباج الخاص بالتصوير، على أن تتكفل هي بمهمة مساعد المخرج. المسرح جاهز الآن ينتظر أن تطأ «أديمه» أقدام السادة الممثلين، وألاحظ أن كمال متحمس بصورة لم أتوقعها، وكذا فريدة وسلمى، السيوفي بدا وكأنه يساير الموجة فقط، وإن كان قد نفذ كل ما طلبته منه، في حين كان توفيق مفاجأة بالنسبة إليّ أكدت إحساسي الأول تجاهه، هذا شاب كان يحتاج إلى الفرصة وقد كفلتها أنا له فاجتهد، عبد السلام كان صامتا أغلب الوقت وإن كان أداؤه مقبولا أيضا، أما ماهيتاب فقد بدا أنها قررت التعامل معي بصورة رسمية، وكأن ما كان لم يكن، فقررت أنا ألا أبدي أي انفعال تجاهها حتى ننتهي من مرحلة التصوير، وانغمسنا جميعا

fb/mashro3pdf

في التجربة الأكثر إمتاعا بالنسبة إليّ، ربما أكثر من تجربة مشروع التخرج كذلك، ٢٠ عاما تفصلني عن هذا اليوم، وقتها كنت أجاهد لكي أبدأ في حين أجاهد حاليا لكي أكون.

سجلنا أكثر من جلسة استماع، وقد تعبت حتى أوصلتهم إلى حالة أن ينسوا أن هناك كاميرا تسجل حركاتهم، غريب هو الإنسان حقا، يتغير فجأة حينما يشعر أن هناك جهازا سيحول لحظته العادية إلى أخرى ستجد من الخلود نصيبا.

نصل إلى مرحلة الارتجال، فأكتشف أنها الجزئية الأشد إمتاعا، نعم جعلت أكثرهم يعيد ما قال أكثر من مرة، لكن النهاية كانت مرضية إلى حد بعيد، دعك من شعور أنك أمام كتالوج متعدد الشخصيات يحوي بجوار الحكايات الغامضة، مشاعر وآلاما ومعاناة وجدت لها طريقا للخروج فانطلقت، هنا قرر أحدهم أن يفتح الصندوق، وجلست أنت تشاهد ما في الجعبة من حكايات.

يأتي دور ماهيتاب فأشعر بالحماسة الشديدة لمعرفة ما ستقول عن حكايتها، هنا لغز جديد سيكون عليك حله، وستجاهد كي تفعل. أطلب منها أن تنظر إليّ وليس إلى الكاميرا، فيبدو وكأن ذلك ما زاد من توترها وارتباكها، أحاول تشجيعها فترتبك أكثر، تحاول أن تخرج المعاناة من داخلها فأزيد أنا من ترسبها، وأسمعها تقول:

ـ الحكاية كلها في التفاصيل الصغيرة اللي ماحدش بيحس بيها غيرك، ساعات بتشوف انت التفاصيل دي وتعتبرها عادية، لكنها بتبقى بالنسبة لصاحبها كابوس، كابوس مابيتهيش.

ألا لعنة الله على التفاصيل الصغيرة، وعلى القدرة على رؤيتها فضلا

fb/mashro3pdf

من الشعور بها. أتامل ملامحها وأشعر أنها غابت مع إحدى تلك التفاصيل، دوامة قاسية لا تشعر أنت بها، فقط ترى أبعادها تتجسد أمامك، والنتيجة دائما واحدة، الألم والمعاناة.

أوقف التصوير وأغيب مع حالتها فينتقل إليّ بعض منها، وأفكر في طريقة تخرجها من هذه الحالة فلا أجد ما يناسب، أنظر إلى أرجاء الغرفة فأرى المرمض واقفا يتابع ما نفعله، وتأتي الفكرة، وأقول له:

ـ تعالى يا زغلول.

يتحرك ناحيتي لا يفهم ما أريد، وأقول له:

ـ إيه رأيك تعمل دور في الفيلم؟

أشعر وكأنني ضربته على رأسه، ملامحه تبلغني أنه لم يفهم ما أقول، أسمع ضحكات من المجموعة وأنظر تجاه ماهيتاب، فأجد في عينيها نظرة متسائلة، ويقول زغلول:

ـ دور إيه؟

ـ اقف قدام الكاميرا وقول اللي ييجي في نفسك.

ـ حاجة زي إيه؟

السيوفي لا يفلت الفرصة طبعا:

ـ أي حاجة يا عم، إنشالله تقول انك بتشكر الجماهير اللي بتساند فريقك النهاردة، وإنكم الحمد لله عملتوا اللي عليكم وإن اللعيبة طلعوا رجالة، وأنا هاجي أبوسك قدام الكاميرا.

فتضحك المجموعة وألمح ابتسامة على وجه ماهيتاب، بدأت الأجواء

fb/mashro3pdf

تنفرج الآن، وأقول له:

ـ ماتزعلش، بص تعالى اقف هنا وبص ناحيتي مش ناحية الكاميرا، وقول اللي يجي على بالك، زي ما انت بالبالطو الأبيض كده.

يتحرك ليقف في المكان الذي حددته له ويغيب في الصمت! وكأنه ليس هنا أصلا فلن أدهش إن كان مخمورا أو في غمرة آثار سيجارة حشيش رديئة، المجموعة كلها تبدو متفاعلة معه وفي انتظار ما يتفوه به، وكأنها لقطة كوميدية تضيع تعب يوم التصوير، لكنه لا يبدي أي انفعال، فقط ألمح التوتر والارتباك يغزوانه تماما فأقول له:

ـ هايل، كفاية كده عليك!

فتعلو موجة الضحك وأرى ماهيتاب تجاريهم فيه، هذه أيضا تفصيلة صغيرة يا عزيزتي لكنها أخرجتك ولو قليلا من طور الكآبة، الاختيار في يدك. يخرج الممرض من الغرفة ونكمل ما كنا قد بدأناه.

* * *

انتهيت من «الماتيريال» وأخذت أجاهد خلال مرحلة المونتاج الأكثر إرهاقا من التصوير نفسه، طلبت من ماهيتاب أن تحضر معي جلسات المونتاج فبدا وكأنها كانت في انتظار الطلب، أبدت ترددا بسيطا لكنها في النهاية كانت معي هناك، أمام الكومبيوتر نتابع اللقطات ونقص وندمج ونعود للقص من جديد، نختار أكثر اللقطات تعبيرا عن حقيقة ما يموج بصدر صاحبها فيكتمل الكتالوج، أطلب من علاء أن يجلب لي عددا من «تراكات» الموسيقى، فيفعل وما زالت على وجهه علامات الدهشة، ولم أنس أن أطلب منه أن يبلغني في حال ظهرت أميرة مرة أخرى، يهز رأسه ويمضي وأغيب أنا وماهيتاب في رحلة المونتاج من جديد، كل هذا من

fb/mashro3pdf

... ان نتفوه بكلمة تخصنا نحن أو تخص ما حدث بيننا، وكأننا نسينا ال. نف أو أرجأنها إلى حين، نظراتها تتساءل وتدفعني لكي أثير الموضوع، ! دني آثرت الانغماس أكثر في المشروع، حتى لا يتطور الأمر بصورة تضر الفيلم أو تضر بعلاقة أتمنى لها الاكتمال.

ننتهي من المونتاج، وأقول لها:

ـ إيه رأيك؟

ـ ماكنتش متصورة ان المونتاج بيكون ممتع كده.

ـ ممتع آه، بس مرهق جدا، المهم الفيلم.

ـ تحفة يا سامح.

ـ بجد؟

ـ ماتعودتش اقول حاجة مش مقتنعة بيها.

ـ وماردتيش عليا.

ـ في إيه؟

ـ إنتي عارفة في إيه.

تنظر ناحيتي وكأنها تجاهد لانتقاء الكلمات، قليلا ثم تقول:

ـ أنا مش حمل صراع جديد.

ـ مين قال إنه صراع؟

ـ يمكن بالنسبة لك لأ، لكن بالنسبة لي آه.

ـ مش دايما بتقولي إن مافيش ضمانات؟

fb/mashro3pdf

ـ وعشان كده مترددة.

ـ أنا عايز منك رد صريح، أنا محتاجك جانبي، وشايف في عينك كلا اللي انتي مش عايزة تقوليه.

لا ترد، لكن ألمح حاجتها للأمر تغزوها، الحاجة متبادلة يا عزيزي فاتركي المكابرة جانبا، وأقول لها:

ـ يوم عرض الفيلم هـمع منك، ولو قرارك بالرفض صدقيني عمري ما هضايقك تاني.

نتبادل النظرات في صمت.

* * *

يقول لي الدكتور فؤاد:

ـ أنا مش عارف اشكرك ازاي.

ـ على إيه؟

ـ الفكرة بتاعتك ساعدت كتير في علاج المجموعة.

ـ وساعدتني أنا أكتر.

ـ عارف، عشان كده هنحضّر كويس ليوم عرض الفيلم، وهيحضره مدير المصحة وباقي مجموعات المرضى كمان بخلاف الدكاترة.

ـ متشكر.

أترقب يوم العرض وكأني تلميذ ينتظر يوم نتيجة الامتحان، هنا أحدهم سيخلق من جديد، أو يجد في الموت سبيلا وحيدا، نقطة واحدة

fb/mashro3pdf

تدور حولها كل التفاصيل، الفيلم وقرار ماهيتاب اجتمعا فخلقا سببا اخر للاستمرار على هذا الكوكب، محنة جديدة وانتظار لا ينقصه الملل.

يوم العرض تجهزت قاعة الاستقبال بالمصحة بصورة جيدة، أتاحت مشاهدة الفيلم بشكل أثر إيجابا في حالتي، أجلس وأشاهد الصور تركض أمام عيني فأشعر وكأن هناك أحمالا تتلاشى من الداخل، سيل من المياه يشق طريقه بأريحية وسط تربة مُهملة، ونسمة هواء في وقت كنت تشكو فيه من الاختناق، وسبب آخر يجعلك ثابتا على الأرض.

بعد انتهاء العرض لمحت إعجاب كل من حولي بالفيلم، تصفيق مستمر وانتصار مفاجئ وكأنه الصدفة، أحاول أن أتذكر كيف بدأت فكرة الفيلم تحوم في رأسي فلا أتذكر، أنا هنا الآن وفقط، ووسط عبارات المجاملة والشكر ألمح في عيني ماهيتاب لحظة الحقيقة، إما الآن وإما لا للأبد، أتجه ناحيتها وأقبل يديها وأقف منتظرا القرار، وتقول لي:

- بحبك!

فأغيب ويغيب الجميع من حولي، فقط أنا وهي وحولنا السراب، لا أسمع إلا صوت أنفاسها ولا أشعر إلا بارتباك يديها في يدي، الصورة بدت أوضح الآن، التفاصيل تغرق الكادر فأترنح من النشوة.

أرى كمال يتقدم نحوي مبتسما، وأسمعه يقول:

- سامحني لو كنت قلت لك في يوم حاجة ضايقتك.

أحتضنه وتزيد أسباب التعلق بالحياة فجأة، المجموعة تتحلق حولي، وأرى في وجوههم ما أستطيع أن أقضي ما تبقى من عمري على آثاره، الخلاصة أنني سعيد، ربما للمرة الأولى منذ سنين عدة.

* * *

fb/mashro3pdf

بعد العرض بيومين تكفل توفيق بعمل حفل صغير، تعبيرا منه عن التغيير الذي طرأ في حياته بعد الفيلم، خصوصا وأنه كان أحد أكثر من طالته عبارات الاستحسان والإعجاب بأدائه، يومها طلبت من ماهيتاب أن نقضي بقية العمر معا، ووافقت هي وأنا ألمح السعادة تصرخ في عينيها، لقد أخرجت الطفلة من داخلها في وقت كانت تحاول هي أن تقضي عليها تماما، تتلاشى المعاناة وتترسب البهجة، فهل الحياة جديرة بتعليق الآمال عليها؟!

أقول لها ونحن نرقص معا:

ـ قلقان.

ـ من إيه؟

ـ ماحصلش قبل كده ان الدنيا ادتني كل ده فجأة.

ـ مش قلنا مافيش ضمانات؟

تضحك بصوت مرتفع لم يكن شفيعا لزوال القلق، وتقول لي:

ـ أنا كمان عندي الإحساس ده، بس متهيألي إنه حاجة طبيعية.

ـ تفتكري؟

ـ أتمنى.

ونغيب معا مقررين أننا لن نضيع الفرصة مهما كان المصير.

* * *

fb/mashro3pdf

(٦)

نحن فاشلون في تصوير سعادتنا وانتصاراتنا، تلك حقيقة.

شاهد فيلمي «العصفور» و «أغنية على الممر» لتعرف أننا نملك القدرة على تصوير أوجاعنا، وفي المقابل لا تشاهد أي فيلم يتحدث عن نصر أكتوبر لأننا لا نملك القدرة على وصف ما بداخلنا من بهجة - إن وجدت - هذه هي الخلاصة فكيف كان المصير؟

في اليوم التالي للحفل عرفنا أن فريدة قد انتحرت، وكأن أحدهم قد ضربك على رأسك وركض فجأة من أمامك، كانت معنا بالأمس واستطعت أن ألمح السعادة ربما للمرة الأولى في عينيها، فماذا حدث بعد ذلك؟ كأن الكآبة تأبى أن يكون لك متنفس، وكأنك دخلت وسط دوامة لا خلاص منها ولا راحة، وتابع جميعا الحالة الهستيرية التي ألمت بالمصحة وكأننا نشاهد لقطة من فيلم سينتهي قريبا، لكنه أبى أن تكون له نهاية، أتبادل النظرات مع ماهيتاب وأشعر أن هناك شيئا قد انكسر داخلها، وكأنها تقول لي إن قلقي كان منطقيا وسط الهوجة، يبدو

fb/mashro3pdf

يا عزيزتي أن الحياة ليست جديرة فعلا بتعليق الآمال عليها.

أرى السيوفي جالسا في حديقة المصحة، ويبدو كأنه لا يشعر بها يدور حوله، عيناه زائغتان مع شعور عام بالضياع، للمرة الأولى أبصره في تلك الحالة، فهل كان متعلقا بها فعلا؟ أتحرك ناحيته ولا يشعر هو بوجودي، أجلس بجواره وأرى الدموع داخل عينيه تأبى حتى السقوط، وأقول له:

ـ إنت آخر حد كان معاها، حالتها كانت توصلها لكده؟

ينظر لي وكأنه يراني للمرة الأولى، يهز رأسه نافيا ببطء أقرب إلى البلاهة. هذا الرجل لا يفهم شيئا مما يدور ويود لو تنقضي الحياة من حوله فجأة.

ـ طب إيه اللي يخليها تعمل كده؟ أنا مش فاهم.

ينظر إلى نافذة غرفتها وكأنه ينتظر منها أن تطل عليه، أمل جديد لن يجد له مكانا على الأرض، وكآبة تترسب حتى تملأ الأرواح، يقف ويتحرك في الحديقة وكأنه يبحث عن شيء ضائع منه، أشفق عليه وأتمنى أن يخرج سريعا من حالته تلك، إنه الوهم!

أدلف إلى المصحة مرة أخرى، وأفهم أن هناك تحقيقا يجرى، فأبتسم بسخرية محملة بمرارة الحدث، النهاية قد وقعت فلن تشفع لنا معرفة التفاصيل... «التفاصيل»! اللعنة على تلك الكلمة.

أدخل غرفة ماهيتاب فأرى أنها تشاهد الفيلم وحدها وتوقف الصورة على فريدة وهي مبتسمة. كادر لحظي بمليون جملة. أتحرك ناحيتها وأضع يدي على كتفيها فتدخل في نوبة هستيرية من البكاء، وأركز معها على ملامح فريدة المعروضة أمامنا وكأننا نسألها عن السبب، بل عما جرى،

fb/mashro3pdf

فكرة أن تعرف أن هذا الشخص كان حولك منذ قليل واختفى فجأة من دون أن تعرف أصل الحكاية ولا تفاصيلها، فقط النتيجة النهائية تقف لتلعنك، ولا تنسى أن ترميك بابتسامة ساخرة قادرة على تحويلك إلى كومة من التراب.

أحاول تهدئتها فلا أستطيع، وأسمعها تقول بكلمات خرجت مخنوقة من أثر البكاء:

ـ هي ليه عاملة كده؟

ـ هي إيه؟

ـ الدنيا.

ونغيب معا في أسئلة بلا إجابات، قدر لا يتركك ومصير لا تستطيع تغييره.

يطلبونا جميعا في غرفة مدير المصحة، لسؤالنا عن حالة فريدة ما قبل الوفاة، إجراء روتيني لملف سيغيب داخل الأدراج في النهاية، اسم تم شطبه، وحكاية تم طمسها إلى الأبد.

* * *

يسير القدر ناحيتنا بأسرع مما كنا نتوقع، وكأنه يحمل منجله ويسير ناحيتنا يحصد في الأرواح من دون أن يشعر للحظة بالملل، دماء في دماء وواقع صاخب وكادر مظلم لا يتلاشى.

أخرج من غرفتي على صوت حركة غير طبيعية بالمصحة، أوقف أحد الراكضين فيحاول أن يتخلص من يدي وكأنني الجحيم، وأقول له:

fb/mashro3pdf

ـ فيه إيه؟

ـ واحدة تانية انتحرت.

جملة عادية تقرأها أنت وتركض عيناك عليها سريعا في انتظار التفاصيل... «التفاصيل»! فلتصحبها اللعنة أو لتقرر الانتحار هي الأخرى. أقول له:

ـ هي مين؟

يتركني ويركض وأقف أنا ببلاهة لا أفهم شيئا، إنما اللعنة قد وجدت لها ملاذا أبديا بجوارنا ووقفت مبتسمة، أركض خلفه لأفهم ما يجري وأنسى أن آخذ أعصابي معي من الغرفة، دوامة قاسية والرأبدي لا ينتهي، أصل إلى غرفة مدير المصحة وأرى فؤاد يبدو عليه الضياع، وأسمع:

ـ هو إيه اللي بيجرى بالظبط؟

ـ مصيبة.

ـ مصيبة؟ اعتبروا المصحة دي جابت ضرفها خلاص.

عليك اللعنة يا من قلت تلك العبارة، فلتذهب المصحة إلى الجحيم لكن أفهم، أريد أن أفهم.

ـ واحدة تانية من مجموعة «ب»

ـ هي المجموعة دي فيها عفريت ولا إيه؟

ـ اسمها إيه المريضة؟

ـ ماهيتاب رفعت.

fb/mashro3pdf

إنها النهاية الآن... ألم يحيق بجسدي وخوار عظيم يخرج من صدري، اركض باتجاه غرفة ماهيتاب فأجد الجمع المتحلق لمشاهدة السيرك، فقرة جديدة أيها السادة المشاهدون ونتمنى لكم قضاء وقت طيب، في الداخل أرى جثتها مغطاة بملاءة بيضاء، يقولون إنها قطعت شرايينها وأنهت آخر فرصة لها في الحياة. أدفع كل من حولي وأدلف إلى الغرفة في محاولة لرؤية ملامحها للمرة الأخيرة، لكن الممرضين يمنعونني، أضرب أحدهم في معدته بقدمي لكنهم أحكموا السيطرة علي، أصرخ بصوت عال وتتلاشى التفاصيل من حولي، كادر أسود لا نهاية له مقرون بصوت صفارة طويلة لا تنقطع، إنه الجنون.

يحملونني إلى غرفتي ويغلقون الباب من الخارج. حسنا فعلتم أيها الملاعين. أتجه ناحية ملاءة السرير وأخلعها وأعلقها بشكل أنشوطة مكان نجفة السقف التي تهشمت الآن، أجلب الكوموود وأضعه أسفلها، أنظر إلى الغرفة من حولي وأبتسم ابتسامتي الأخيرة. كنت أحتاج إلى نفس من سيجارة عله يكلل المشهد، وأتساءل سؤالي الأخير: لماذا لم يستخدم شاهين محسنة توفيق في دور «صديقة» بدلا من داليدا في فيلم «اليوم السادس»؟ لا إجابة كالعادة، أرمي رزمة الأوراق في أنحاء الغرفة علهم يحتاجونها في تحقيقهم الوهمي، فلتجمعوا الأوراق أولا أيها الملاعين، الآن كتبت النهاية، والآن سأعرف ما ينتظرني هناك على الضفة الأخرى من الحياة.

* * *

تم العثور على هذه المذكرات في غرفة المريض المتوفى/ سامح زكي وتمت قراءتها بواسطتي، ولاحظت بمقارنة ما كتبه المريض وطريقة

fb/mashro3pdf

وفاته، أنه قرر الانتحار بعد معرفته بانتحار المريضة ماهيتاب رفعت بأن شنق نفسه بملاءة متدلية من السقف...

على أن يتم تقديم تلك المذكرات إلى الإداراة لعمل اللازم.

طبيب/ فؤاد ذهني

fb/mashro3pdf

زغلول

إنه الجنون.

عرفت بعد أن استعدت وعيك بعد يومين من وقع خبر انتحار فريدة عليك، أن ماهيتاب وسامح قد لحقا بالمعشوقة، فتملكتك البلاهة لبعض الوقت متسائلا عن كنه اللعنة التي قد حلت بالمصحة وبمجموعة «ب» على وجه التحديد، من دون أن تصل كالعادة إلى إجابة على التساؤلات المتصارعة داخلك.

كل ما تعرفه أنك والحشيش صرتما صديقين جمعتهما حاجة واحدة، الرغبة في التلاشي، هو يتلاشى بمجرد إشعاله وأنت تتلاشى بمجرد أن تغيب قليلا عن الواقع، علاقة واضحة لها نهاية واحدة بعيدا عن التفاصيل المملة.

شبح أنتيكة صار جليسك الجدير بالاحترام، وكأنه قد نسي جرمك تجاهه أو تلاشت من داخله رغبته في الانتقام، يجلس معك كل ليلة في شقتك الكئيبة وتحتسيان الشاي معا، يعرض عليك سيجارة حشيش

fb/mashro3pdf

فتردها له بأحسن منها، ووسط الدخان الكثيف تحكي له أنت عن مغامراتك النسائية، خصوصا مع فريدة التي انتحرت لأنك لم توافق على الدخول في علاقة معها، فيهز رأسه لك بسخرية! حتى الموتى يا عزيزي يعرفون حقيقتك، وتفكر أن تسأله عن أحوالها على اعتبار أنهما أصبحا زملاء مكان واحد، فتتردد، أنت لا تثق بأنتيكة وتعرف أنه قد يحاول الدخول في علاقة معها، وهذا ما لن تسمح به أبدا.

تسمعه يقول لك:

ـ هي كويسة.

تنظر إليه متسائلا عن كنه المعجزة التي دبت في لسانه ودفعته إلى الكلام، وتقول له:

ـ هي مين؟

ـ فريدة.

ـ إنت بتشوفها؟

ـ أوووه، كل يوم.

تنظر ناحيته بشك فيتصنع الاهتمام بلف سيجارة حشيش جديدة، وتقول له:

ـ وهي عامله إيه؟ وبتعمل إيه؟ بتكلمها؟

ـ إيه يا عم ده كله؟

ـ رد عليا.

ـ سمعت انها متضايقة.

fb/mashro3pdf

ـ من إيه.

ـ بتقول إنها مانتحرتش.

ـ أومال إيه؟

ـ بتقول انها اتقتلت!

تنظر ناحيته متسائلا عن جدية ما يقول ومدى علاقته بالحقيقة، يناولك السيجارة الجديدة مبتسما وتغيب أنت عن العالم، مرارة متسربة وألم لا يمحوه الدخان الكثيف، وتتحرك في الغرفة وتقول لنفسك إنك كنت تشعر بذلك، دوامة مخيفة ورغبة حارقة في معرفة الحقيقة.

تتذكر السيوفي فتكتشف أن أعداءك كثيرون، منهم من يحيا ومن التهمه التراب.

وتراه كل يوم جالسا وحيدا في حديقة المصحة يبكي فريدة فتبتسم أنت بسخرية، حالته مزرية، ويبدو كأن أحدهم اقترض منه مبلغا من دون أن يكتب له إيصالا، لن تُدهش إن رأيت سيلا يخرج من فمه من دون أن يلاحظ أو أن يشرع في التبول أمام الجميع من دون أن يعبأ بهم، وتتحرك حوله محاولا الوصول إلى حل اللغز الذي تشعر أنه جزء منه، وتدهشك قدرته على التمثيل ورغبته في طمس الحقيقة، العب غيرها يا عزيزي، إن كان شكي فيك قيراطا من قبل، فبعد هذا الأداء صار فدانا!

تتحرك ناحيته وتمسكه من ملابسه وتشرع في ضربه على وجهه، شحنة من الغضب وسيل من اللعنات، لا يقاومك وكأنه لا يراك ولا يشعر بك، كتلة فارغة من الداخل لها كيان خارجي فقط، وتقول له:

ـ قتلتها ليه؟

fb/mashro3pdf

ينظر إليك ببطء وكأنه اكتشف فجاة أنك هنا ويقول:

ـ ماقتلتهاش.

ـ ماحدش غيرك يعملها.

ـ ماقتلتهاش.

ـ إنت كداب.

ـ ماقتلتهاش.

تفيق من هذيانك وتكتشف أن خيالك تكفل كعادته بتفريغ بعض ما يموج داخلك من دون أن يكون له صدىً فعلي على أرض الواقع، لا بأس، اعتبره تعويضا جديدا، محاولة أخرى لتحقيق وهمي لحاجة لا وجود لها!

يطلبك الدكتور فؤاد في مكتبه وتذهب إليه من دون رغبة فعلية داخلك للحديث مع أحدهم، تمر على كاونتر الاستقبال وأنت في طريقك إليه، فتصطدم بصورتك المعكوسة على أديم المرآة فتُدهش، أنت مزري الهيئة على الدوام، لكنك الآن أقرب إلى غوريلا آدمية، نظرة عينيك خاوية تماما، فلا تعرف أمن أثر الصدمات المتلاحقة؟ أم أن للحشيش دورا في الأمر؟ تطرد من ذهنك كل هذا وتجر قدميك متحركا ناحية مكتب فؤاد، تفتح الباب، وتدلف إلى الداخل.

تبصره جالسا إلى مكتبه فتعترف أن حالته ليست أفضل منك كثيرا، تحقيقات تتبعها تحقيقات، والحقيقة واحدة لا تمحوها التفاصيل التافهة، يرفع عينه عن الأوراق القابعة أمامه وينظر إليك، يبدو أنه لم ينم منذ سنة، يتحرك ناحيتك فلا تبدي أنت أي اهتمام، ويقول لك:

fb/mashro3pdf

ـ السيوفي اداك كام؟

حسنا، كانت عدة بصمات على قفاي الأثير وبضعة جنيهات لا أذكر كم كانت، لكن كيف عرف؟ يطول صمتك فيقول هو:

ـ رد عليا يا زغلول.

لقد فعلت فلماذا يعيد السؤال؟ خيال أم واقع؟ محنة أم معاناة؟ تنظر ناحيته من دون أي شعور بالذنب وتقول له:

ـ ٥ آلاف جنيه.

ـ وليه عملت كده؟

ـ هو حضرتك عرفت منين؟

ـ المفروض ماردش ع السؤال ده، بس ع العموم فريدة وسامح كانوا كاتبين مذكراتهم، وكان فيها موضوع خروجهم ده.

مذكرات؟ فريدة وسامح فقط؟ وماذا عن ماهيتاب؟ وتتمنى من داخلك أن تقرأ ماذا كتبت فريدة قبل الوداع، هل أنت موجود بصورة ما في تلك المذكرات؟ ماذا قالت عنك؟ وهل تستطيع قراءتها؟ أسئلة لا حصر لها ولا إجابات كالعادة. ينظر إليك فؤاد منتظرا الإجابة، فتقول له:

ـ كان كده كده هيعمل اللي في دماغه.

ـ آه، فانت قلت ماتطلعش برّاك.

ـ والله ما عارف يا دكتور، واللي شايفه اعمله.

ـ حظك إني مش فاضي لك دلوقتي، ومش هينفع حد يسيب المصحة أصلا في الوقت ده.

fb/mashro3pdf

حسنا، كبت يومين جديدين في رحلتك مع العذاب، لماذا إذن تسألني ما دمت لن تتخذ موقفا؟ ويرد عليك وكأنه قد سمعك:

ـ كنت عايز أعرف قد إيه اللي مكتوب في المذكرات ده حقيقي، روح شوف شغلك دلوقتي وحسابنا بعدين.

الجملة الأخيرة سمعتها ملايين المرات في الأفلام العربية الرخيصة، يبدو أن الدكتور فؤاد مولع بتقمص دور زكي رستم! تتركه وتمضي من دون أن يترك الموقف أي أثر داخلك، تعرف أنك تتمنى فقط أن تصل إلى مرحلة اللامبالاة الأثيرة، تجاه نفسك أولا وتجاه الجميع بعد ذلك، وحشك جدير بتحقيق أمنيتك تلك.

* * *

يزورك حسن الممرض في منزلك وتُدهش أنت، تدخله ويجلس على الأريكة وترى أنتيكة يجلس بجواره، تنظر إلى حسن بدهشة فيرد عليك سريعا:

ـ حالك مش عاجبني بقالك فترة، مالك؟

ـ مافيش، كويس.

ـ مابتبصش في المراية؟

ـ وانت جاي لي عشان تسألني عن منظري في المراية؟

ـ فؤاد سألني على يوم تغيير الوردية.

تنظر إليه محاولا فهم ما يرمي إليه فترى القلق في عينيه، وتقول له:

ـ ما هو عارف، أنا ساعتها قلت له.

fb/mashro3pdf

ـ ما انت عارف اللبش اللي حاصل في المصحة دلوقتي.

ـ ومال تغيير الوردية باللبش؟

ينظر في عينيك قليلا وكأنه يختبر دقة ما يريد قوله:

ـ أنا عايز أتطمن، يوم تغيير الوردية في حاجة حصلت ليها علاقة بالعوأ اللي في المصحة دلوقتي؟

ـ إنت أهبل يا حسن؟ لأ طبعا.

ينظر إليك بعدم تصديق ولا يجد في نظراتك ما يريحه، أنت نفسك لم تتساءل عن علاقة خروجهم من المصحة وما جرئ فيها بعد ذلك، هل هناك صلة ما بين تسهيلك هروبهم وبين الموت الذي وجد ضالته في المصحة أخيرا؟ لا تعرف كالعادة.

تغيب أنت في هذيانك وينظر حسن ناحيتك باستغراب، أنت حتى لم تقدم له كوب شاي أو سيجارة، كنت تظن أن أنتيكة قد فعل، قليلا وتلمح حسن يستعد للانصراف، فعلت طيبا، يتجه ناحية باب الشقة وتلمح أنت نظره معلقا على أسماء المجموعة المحفورة على جدار غرفتك فلا تبدي أي انفعال، ينظر هو إليك باستغراب ثم يحييك وينصرف، وتطلب أنت من أنتيكة أن يأتي إليك بكوب شاي وسيجارة.

* * *

المفاجأة المتوقعة!

هل هناك شيء يمكن أن يوصف بذلك؟ أنت مثلا تتوقع من الجميع أن يترك بصماته على قفاك، لكنك في كل مرة يفعلها أحدهم تشعر

fb/mashro3pdf

بالمفاجأة وكأنك تنسى سريعا المصير المحتوم، لكنك تعرف أنك خارج الحسابات، لو أردت أن تفهم أمرا ما حاول ألا تقيسه على تفاصيل حياتك التعيسة، لأنها ليست جديرة بالقياس، أنت غير، كائن خارج التصنيف، أو تصنيف لا كيان له.

المفاجأة المتوقعة!

هذا فقط قد يصف الحوار الذي سمعته بين عبد السلام والدكتور فؤاد، وقتها كنت تتحرك في الطابق الثاني محاولا الدخول إلى غرفة فريدة، علك تتخيل تفاصيل الدقائق الأخيرة لها، محاولة رؤية الجدران الأربعة التي احتوت الجريمة الكونية التي قتلتك قبل أن تقتلها، تقتلها؟

قبل أن تدلف إلى الغرفة اكتشفت أنها بالداخل، سمعت صوتها فتراجعت طبعا عن الفكرة، كنت تريد أن تعود أدراجك لكن ما سمعته جعلك تتسمر في مكانك محاولا الوصول إلى المزيد، وتسمع فؤاد يقول:

ـ اسمع يا عبد السلام، إنت لما جيت تطلب مني تدخل المجموعة زيك زي أي مريض فيها، أنا قلت لك ان التجربة اللي انت عايز تعملها دي آخرها وحش، ومع ذلك انت كنت مُصر، وآدي النتيجة.

تسمع عبد السلام يقول:

ـ إنت ليه متصور ان التجربة بتاعتي هي السبب في انتحار فريدة وماهيتاب وسامح؟ إنت مش قريت مذكراتهم؟ المذكرات واضحة وبتقول انهم كانوا وصلوا لحالة نفسية كويسة جدا وكانت بتقرب شفاهم، يعني التجربة كانت إيجابية مش سلبية.

ـ المهم النتيجة.

fb/mashro3pdf

ـ النتيجة مالهاش علاقة بالتجربة يا فؤاد، إنت عايز تحملني نتيجة اللي حصل وبس؟

ـ عموما النيابة هتبدأ تحقيق بكرة، ده غير تحقيق وزارة الصحة، ساعتها الحقيقة كلها هتبان.

ـ يا ريت ده يحصل، بس ماتقوليش ان التجربة اللي كانت السبب.

ـ ماتجننيش يا عبد السلام، الحرية اللي انت طلبتها للمجموعة دي هي اللي كانت السبب، ده انت حتى لما عرفت انهم بيفكروا يهربوا برة المصحة خرجت معاهم ومابلغتش، تعرف منين ان الخروج ده ماكانش ليه علاقة باللي حصل؟

ـ ماعرفش، بس مش منطقي، بخلاف ان اليوم عدى وماكانش حد فيهم مقرر مايرجعش تاني المصحة.

ـ أنا قدامي نتايج، لما طلبت مني ان كل القيود اللي بنعملها على مجموعات المرضى نخفها ع المجموعة دي كتجربة، أنا وافقت وفعلا كنت ملاحظ تحسن، بس في الآخر النتيجة هدت كل ده، إنت نفسك لما طلبت منك تبقى مسؤول عن المجموعة، طلبت انك تدخل كمريض مش كدكتور، لما انت كنت بينهم وماعرفتش اللي حصل ده حصل ازاي، أومال مين يعرف؟

يعم الصمت قليلا، مفاجأة متوقعة! وتسمع عبد السلام يقول:

ـ أنا بأكد عليك تاني يا فؤاد، التجربة دي كانت أهم حاجة حصلت في المصحة، لكن فيه حاجة مش مفهومة، فريدة ماكانش في سبب يخليها تنتحر، ولا حتى ماهيتاب، سامح بس اللي مفهوم هو عمل كده ليه، لازم

fb/mashro3pdf

ندور على السبب الحقيقي، مش نقعد ندور على سبب يخلينا نرميها على بعض.

- أنا مش برمي عليك حاجة، إنت فاهم ان المصحة بعد كل ده هينفع تكمل شغل؟ إبقى تف علي وشي لو كملت أسبوع كمان.

كان في هذا كفايتك، عبد السلام دكتور؟ كان غامضا على الدوام وكنت تشعر تجاهه بشيء غير طبيعي، الآن كل شيء منطقي، مفاجأة متوقعة! الآن فقط فهمت لماذا كانت المجموعة أكثر حرية من غيرها من المجموعات، لكن السؤال، هل القدر هو من اختار تلك المجموعة لتكون أساس تجربة عبد السلام؟ أم أن للصدفة علاقة بالأمر؟ وهل يعني ذلك أنه لولا تلك التجربة ما كانت ماتت المعشوقة ولا لحقت بها ماهيتاب ومن بعدهما سامح؟ لا تعرف كالعادة.

تتابع المجموعة أو ما تبقى منها فتزداد كآبتك ورغبتك في التخلص من المصحة، علاقتك انتهت بها فعليا مع موت فريدة، فما الذي يدفعك إلى الاستمرار؟ الرغبة في معرفة الحقيقة هي التي تفعل. تبصر كمال وسلمى فتشعر ناحيتهما بشعور غامض وغريب بعد أن انضم الخوف إلى الاكتئاب والألم المستوطن داخلهما، السيوفي يفيق أحيانا ويغيب أحيانا أخرى في عوالم غامضة لم يطأها البشر من قبل، توفيق يبدو متأثرا بشدة لما جرى، وعبد السلام؟ هل تعتبره واحدا من المجموعة؟ وكيف تتعامل معه بعد ذلك؟ لا تعرف.

المفاجأة المتوقعة!

بعد موت سامح بيومين، بدا أن الحقيقة في طريقها إلى الوضوح، انتحار أم قتل؟ ألم ومعاناة وكآبة مترسبة كأنها القدر. يومها عرفت أنه

fb/mashro3pdf

.. تم اكتشاف جثتي كمال وسلمىٰ في غرفة الأول! لعنة أبدية وطريق
مظلم لا ترىٰ تفاصيله، طريقة الموت تقول إن هناك شجارا ما قد جرىٰ،
فهل هو ما أسفر عن موتهما؟ طعنة في عنق كل منهما ودماء متناثرة وغصة
دائمة لا تنزاح.

المفاجأة المتوقعة!

إنه الجنون.

* * *

fb/mashro3pdf

كشف بيان الحالة/ تقرير أولي

الاسم: سلمى صبحي

تاريخ الميلاد: ١٢ أكتوبر ١٩٨٢

العنوان: ١٥ ش الشيخ غراب - حدائق القبة - القاهرة

المهنة: مترجمة

ملاحظات: وردت المريضة إلينا بعد محاولة انتحار ناتجة عن حالة اكتئاب حادة.

التشخيص المبدئي: حالة اكتئاب حادة تمت السيطرة اللحظية عليها بواسطة المهدئات الكبرى مع انتظار نتيجة التحاليل التي ستؤكد أو تنفي تعاطي المريضة للمخدرات.

طبيب/ فؤاد ذهني

fb/mashro3pdf

سلمى

(١)

كمال لا يريد أن ينسى!

طوال ٦ أشهر وهو يعاملني بقسوة لم أعتدها فيه، فهل كانت الصدمة تستحق كل هذا؟ وكأن وطأتها على أعصابه كانت دافعا لتغيير ملامحه فانجرف، كل محاولاتي لاستعادة ما كنا نرشف منه معا باءت بالفشل أمام لامبالاته الصارخة إزاء كل شيء من حوله، حتى أنا، وكأن البئر قد جفت أو أن الصنبور لم يعد موصلا بمصدر للماء.

متى عرف كمال الحقيقة؟ المشكلة أن الترتيب الزمني للحدوتة دائما ما يخذلك في الوقت الذي تحتاج فيه أن تترجمه، وكأن الذكرى هي الأخرى تأبى الانصياع لك، حتى مسافة الستة أشهر - على وجه التقريب - منذ أن عرف الحقيقة ودخلنا المصحة معا كانت هي الأشد قسوة بالنسبة إلى كلينا، دخل هو في دوامة اللامبالاة بعد أن خسر السبب الوحيد الذي

fb/mashro3pdf

أعاده مرة أخرى إلى الحياة، وبدأت أنا معاناة الوحدة بعد أن أصر على ا.
نفترق، مسافة طويلة وتعثر مستمر، وكأن الطريق قد اختزل في ما يكفا،
هذا من خسارة فترة زمنية ثرية من حياتك.

جئت إلى المصحة بعد كمال بنحو أسبوع، كنت أظن أن اختفا،
من حياتي سيجعلني أحتملها من دونه، وهو ما لم يحدث، كان أسوأ
أسبوع قضيته منذ أن ولدت، أعرف مكانه لكن لا أقوى على المواجهة،
وكأن البراح صار أضيق وأن الهواء لم يعد له مكانا من حولي، ووسط
كل هذا أنت تعرف بالتحديد من يملك أن يعطيك براحا، ومن الذي
يشكل بالنسبة إليك الهواء الذي يدفعك إلى التشبث بالحياة، فكان الحل
هو أن تقتل المسافات بينكما، وهذا ما حاولت فعله، قتلت المسافة فزاد
الاغتراب!

لأن الأزمة أن كمال لا يريد أن ينسى!

أذكر نظرته جيدا يوم أن أبصرني أنضم إلى مجموعة «ب» بالمصحة،
لم يك يراني، التفاتة سريعة ثم الغياب، تفصيلة بسيطة جذبت انتباهك
للحظة ثم لم تجد فيها ما يدعوك إلى الاستمرار فيها، كومة مهملة أو
وعاء لم يعد هناك داع لاستخدامه! في السابق كانت تلك المعاملة لا تلقى
من ناحيتي إلا العنف، فما الذي تغير داخلي؟ لا إجابات!

احتوتنا جدران المصحة لكن إحساسي بغربتنا كان قاتلا، صورة
واحدة كان يحتويها الإطار نفسه، قبل أن يقرر القدر تمزيقها وتوزيعها
على إطارين منفصلين مكونين بذلك صورتين لا علاقة لإحداهما
بالأخرى، إلا ذكرى ميعاد التقاطها والظروف المحيطة بها، تغيم الحقيقة
وتتوه الذكرى، وننسى أنهما كانا في يوم ما يحتويهما ذات الإطار.

fb/mashro3pdf

لم تتلاق نظراتنا طوال يومين منذ حضرت إلى المصحة، ولم يحاول . ن أن يطمئن على سبب وجودي هنا، تملكني الدهشة وأتساءل: هل .... الصدمة بهذا العنف لدرجة أن تتلاشى من داخله كل مشاعر الحب ا ي جمعتنا طوال الفترة الماضية؟ وكأن قطعة القماش الرقيقة من السهل ا، تحول إلى وتد قاسٍ فجأة، بالتأكيد عرف أنني هنا بسبب محاولة امرئ للانتحار، فلماذا لم يعنفني على تصرفي وكأن حياتي لم تعد ذات قيمة .النسبة إليه؟ هل من الممكن أن يكون عالما بالحقيقة؟ بأنني ادعيت محاولة الانتحار من أجل أن أكون هنا بالقرب منه؟ هل شعر بأن نصفه الثاني ما . ال سليما فاطمئن؟ أسئلة عدة تحوم في رأسي ولا إجابات كالعادة، فقط .حقيقة واحدة جلية أمامي تزيد من وطأة الألم على أعصابي، كمال اعتبر انني شريكة في الجريمة وسلخ من داخله أي مشاعر ناحيتي، قطع ما كان .موصولا في وقت أحاول فيه أن أوصل أنا بعضا مما تم فصله، مسمار من ر جاج في مواجهة حائط من الصلب.

في اليوم الثالث لم أقو على التحمل أكثر، اتجهت ناحية غرفته وطرقت الباب وقلبي تتسارع داخله الضربات القاسية، تهيم بي الأرض وأشعر بأنني لم أعد هنا، قليلا ويفتح الباب وينغلق فمي ويهرب لساني فجأة، فقط أبصره وهو يترك الباب ويعود مرة أخرى إلى الداخل وكأنني غير موجودة، ملامحه جامدة فلم أشعر فيه حتى باضطراب لحظيّ يدل على أنه رأى شخصا يقف الآن على الباب، كان في يوم ما يشاركه كل شيء، حتى الألم، أفكر في العودة لكن لا أجد ساقي، وأفكر في الولوج إلى الغرفة فلا أعثر على أعصابي، مهرج يقف على الحبل أصيب فجأة بالعمى، كيف سيتصرف وقتها؟

لا مجال للتراجع، دلفت إلى الداخل ونظري معلق به، بعد أن أعطاني

fb/mashro3pdf

ظهره وأخذ ينظر من نافذة الغرفة على شيء مجهول في حديقة المصح، ربما قتلا للوقت، ولي كذلك، أقف عند منتصف الغرفة لا أعرف حتى ، أقول، وكأن الكلمات هربت بعد أن كان ازدحامها في عقلي يكاد يدفعني إلى الجنون.

اتجهت ناحيته ووضعت يدي على كتفه، فبدا وكأنه لم يشعر بي، لا انزعاج أو اضطراب ولا أي شعور، وكأنني طيف أو شبح يحتاج أن يتخلص منه فقتل داخله كل مساحات الإحساس بالمحيط، وأقول له:

ـ أنا آسفة يا كمال.

خرج صوتي ضعيفا مباغتا حتى لي، تسربت الكلمات وظل الألم يرتع بأريحية في الداخل، لم يستدر ولم يبد لي أنه سمعني أصلا، اتجه لأقف في مجال رؤيته علني أرى بادرة اختلاج على ملامحه تنبئني بأن هناك ضوءا وسط العتمة، لكنها كانت كالصحراء، كادر ثابت ولوحة لشخص عليك أن تنسى كل ما كان بينك وبينه فجأة، إنسان يتنفس أمامك ويتخذ حيزا من حولك، وعليك أنت أن تقتنع انه ميت!

يتحرك بطريقة عادية داخل الغرفة وكأنني السراب، لدرجة أن ظننت أنني واقعة في غمرة من الهلاوس البصرية، وأن عقلي يستدعي أحداثا لا وجود لها، هناك تجاهل يشعرك أنك هنا، لكن هذا تجاهل من نوع خاص، يتملكني الغضب للحظات وأشعر أنه يبالغ في ردة فعله، أتذكر الأحداث التي سبقت الصدمة ويتحول الغضب إلى حيرة ثم إلى إذعان، وكأني أعدت اكتشاف أصداء الصدمة على أعصابي فتأكدت أنها تستدعي كل هذا.

قليلا وأبصره يخرج من الغرفة ويغلق الباب دوني!

fb/mashro3pdf

يمر علي الوقت ثقيلا من دون أن أقوى حتى على الخروج من غرفته، أتأمل جدرانها وأتساءل عن اللحظات التي يقضيها وحيدا هنا، ومدى تأثيرها على أعصابه، فلا أصل إلى دليل يقودني إليه، أتجه ناحية الكومود عساني أجد أوراقا قد كتبها - كعادته - نافثا خلالها بعضا مما يموج داخله، يساعدني أكثر على فهم أبعاد أزمته، لكن لم يكن هناك شيء من هذا، وكأن الغرفة تحولت فجأة إلى نسخة مكررة من ملامحه الجامدة التي لا أثر فيها لما يريحني أو يقصر علي المسافات، أستدير لأخرج من الغرفة ويصطدم نظري بصورتي المنعكسة على أديم المرآة، أتأمل الملامح وأتوه خلالها وأتساءل عن المصير، يزدحم صدري بالمشاعر المتضاربة يؤطرها احساس عام بالاغتراب والضياع.

أقول لنفسي بصوت مرتفع وكأنه تأكيد للمصير:

- كمال مش هينسى!

* * *

fb/mashro3pdf

(٢)

مع تكرار معاناتي مع كمال وشعوري بانسداد الطريق، بل بانعدامه، قررت أن أترك الأمور تسير في طريقها الطبيعي، حتى تلوح في الأفق بادرة أستطيع من خلالها فك الموقف المعقد.

كان أكثر ما يؤرقني في حياتي، حالة الحياد التي قد نضطر إلى أن نعيشها أملا في قرار نهائي يفصح عما يجيش بداخلنا، ويحوله إلى موقف ثابت محدد الملامح، إما كراهية وإما حب، الوضوح يريحني ويشعرني بحالة من الاستقرار النفسي، أما التجاهل ومواراة المشاعر فأكرهه وأعزف عنه عزوفك عن الموت، وبخاصة حينما يكون تجاهلا من النوع الذي يمارسه معي كمال.

أسمع سامح يقول له:

ـ إنت اللي زيك بق وبس، رغي كتير من غير حتى ما تحتكوا بالواقع، حاولوا تقفوا على الأرض شوية يمكن الجزمة القديمة اللي في دماغكم دي تختفي!

fb/mashro3pdf

وانابع أنا أصداء الصدمة على ملامحه، وأفهم ما تعنيه تلك العبارة ،ن جحيم فعلي يغوص فيه كمال حتى الثمالة، وكأن سامح ـ من دون ان يدري ـ قد لخص لكمال أبعاد الصدمة التي يبدو أنه لا خلاص منها، ،حيرة راكدة من الأوهام، ووهم حاول في يوم ما أن يصير واقعا، أتساءل ،ن الفارق بين الوهم والحقيقة فلا أجد إجابة منطقية إلا أن عقلنا هو الذي يحدد تفاصيل الحالتين، بيدنا نعتبرها حقيقة أو ندعوها وهما، وبيدنا نخلط الاثنين خالقين وجها شائها غائما لقرارنا الأخير.

كمال يريد أن يتعلق بآخر الحلول الواهية، على أمل أن تعيده إلى أفكاره السابقة ومواقفه المحددة، حياته كلها عبارة عن مجموعة من الصراعات المتداخلة التي يبدو أنها قدر يحيطه وكأنه الهواء، ووسط كل هذا ساعدت انا في هدم آخر حجر توهم أنه سينتشله من الغرق، لكنه لا يريد أن يقتنع أننا جميعا نعاني من انحسار الهواء في صدورنا، تنتفخ الوجوه وتزرق الأطراف والحقيقة واحدة لا تغيب، هراء حاضر أم حقيقة غائبة؟ لا اختيار.

أتذكر الأيام الماضية وتتدفق الذكريات وكأنها المصير، كان يقول لي دائما إن القدرة على حل أزمة ما، تبدأ بيقين داخلك بأن لديك القدرة على اجتيازها، وإلا فالسقوط أقرب إليك من كل شيء، فهل كفر هو بقدرته على اجتياز تلك الأزمة؟ أم أن هذا الكلام كان يصدر عن شخص آخر غير هذا الذي أشعر باضطرابه وإحساسه بالضياع؟ من السهل أن تضع فلسفة ما في الحياة، لكن من الصعب أن تحول تلك الفلسفة إلى تصرفات وقرارات فعلية على أرض الواقع.

بعد انتهاء الجلسة لمحته يخرج إلى حديقة المصحة وحيدا، نظرته خاوية تماما ويبدو وكأن الأمر يعتصره بدرجة كبيرة، وأجدني أتساءل: هل

fb/mashro3pdf

وجودي معه وحضوري الجلسة التي بدا أنها كاشفته بها يحاول نسيانه، كان له ـ أي وجودي ـ تأثير إضافي على أعصابه التي لم تعد تتحمل المزيد؟ وجودي بقربه يشعرني ببعض القوة، فهل أبعث فيه بعضا من ضعف؟ لا إجابات، فقط أتمنى أن أذهب إليه وأحتضنه محاولة أن تغيب خلاياي في ثناياه وننصهر، الخروج من الأزمة يبدأ من هنا، لكن متى يتبدى الطريق؟

اتجهت ناحيته وجلست بجواره من دون أن تكون هناك رغبة داخلي في الحديث، أريد أن أجلس بالقرب منه وأشعر بآلية تنفسه وفقط، لن أنظر إليه ـ فشلت في ذلك ـ ولن أدفعه إلى الكلام، لن ألومه أو أعتذر إليه، فقط سأجلس هنا وفي هذا كفايتي، حتى هو لم ينسحب وكأنه فهم ما أريد، مجرد طريقة لتجاوز الصمت بالصمت، ولعبة اعتدناها حينما كانت تطوف بنا خيالات من خصام أو معاتبة، الجلوس متجاورين في صمت كان هو أساس كل شيء جمعنا يوما ما، فهل يكون شفيعا لنا اليوم للوصال من جديد؟

الآن أستعيد ذكرياتي، والآن يتشكل أمامي كل شيء.

* * *

في شقة باب اللوق كنت أنا ومحمود وشيرين مجتمعين في انتظار حضور عصام، أعضاء في تنظيم سياسي يحاول تحقيق التغيير على أرض الواقع، بعيدا عن «المكلمات» والهراء المتطاير في منصات الأكشاك السياسية، وسيلة للشعور بأنك حي في مجتمع يدفعك دفعا إلى الجنون أو الدفن حيا!

كنا قد انتهينا لتونا من تحضير المعلومات الخاصة ببيع إحدى شركات القطاع العام، وتجهيزها لإرسالها إلى المجموعة الأخرى ـ التي لا نعرف أعضاءها ـ من أجل أن يبدأوا في التحرك على الأرض، قبل أن تشرع

fb/mashro3pdf

المحومة في تنفيذ عملية البيع، عصام هو المسؤول عن توصيل الملف إلى «الأستاذ» الذي يتولى هو تصريف المهمات على باقي المجموعات، لذلك كنا في انتظاره، وقتها كنت أفكر في تحضير فنجان من القهوة عله يمحي آثار ليلتين بلا نوم، بين طاحونة العمل وإرهاق الفكر والشعور بالوحدة، أفتح علبة سجائري فأكتشف أنها فارغة، أطلب من محمود سيجارة فيناولني واحدة وهو في غمرة الاطلاع النهائي على أوراق المهمة الجديدة، أشعل السيجارة وأسمع صوت باب الشقة وهو يفتح، أنظر ناحيته وأبصر عصام يدلف من الباب، وهو يصطحب معه شابا لا نعرفه، يتملكنا ارتباك محدود، وتتبادل شيرين النظرات مع محمود.

أتأمل ملامح الوافد الجديد وأدهش من الإهمال البادي على مظهره، بصورة تجعلك تظن أنه أحد دراويش السيدة، أو أنه أحد الشحاذين الذين يطوفون على مقاهي باب اللوق ووسط البلد، من أجل جنيه أو كوب شاي أو سيجارة، أشعث الشعر أغبر، مطلق اللحية رث الثياب، بصورة تجعلك تظن أنه يبيت لياليه نوما على أديم الشارع، بقايا من حطام، هيئته تقول إن عمره ٢٦ أو ٢٧ عاما، فما أصل الحكاية وكيف تبدئ هذا المصير؟ وما الذي جمعه بعصام؟ ولماذا يبدو على الأخير أنه سعيد بإحضار هذا الشاب معه؟ هل يعرفه من قبل؟ وهل يفكر أن يضمه إلينا؟ أم سيتركه ليبيت ليلة ويمضي بعد ذلك؟ يقطع عصام حبل أفكاري وهو يقول:

ـ عايز أعرفكم على كمال، زميلنا الجديد.

كان هذا هو اللقاء الأول.

* * *

fb/mashro3pdf

في نفس الموضع من حديقة المصحة، أجلس شاردة وقد بدأت الذكريات تطوف بي محملة بسيل من «الشجن المؤرق الذي لا يدعني» كما تقول الست، لكن كمال كان قد تركني ومضى، لعله شعر بما يطوف بي من ذكريات فقرر أن يبتعد عني، على أمل ألا يصيبه بعض منها، أعرف أنه يشعر بما يموج بداخلي وبما يطوف بخيالي، لذلك لم أستغرب انتفاضته المفاجئة وذهابه إلى غرفته، بل ربما شعرت ببعض السعادة لتصرفه هذا، هذا يعني أن هناك جزءا مني ما زال يتحرك داخله، لم ينزوِ بالكامل بعد، ووجود هذا الجزء قد يساعدني في رأب الصدع والعودة من جديد إلى الحياة، من يدري؟!

قليلا والمح عبد السلام يتجه ناحيتي، هز لي رأسه محييا، وجلس جواري وقد بدا أن هناك ما يريد أن يفاتحني فيه، لم أكن مهتمة بباقي أعضاء المجموعة ولا بما يقال في جلسات الاستماع، أنا هنا من أجل مهمة محددة ولا أعبأ بالمحيط، ربما تدور بيني وماهيتاب بعض المناقشات، ساعدنا فيها تقارب أعمارنا أو امتلاكنا لعقلية ربما تسير على ذات الخط، على الرغم من تحفظها الشديد، فريدة لم يجمعني بها أي موقف وإن كنت أشعر بالشفقة على حالها، بعد أن وصلت إلى عمر الخامسة والأربعين وتعاني الوحدة وتقبع في مصحة نفسية في انتظار الموت، ربما كان إشفاقي عليها نابعا من خوفي من الوصول إلى ذات الحافة التي تقف عندها، وإن كنت أعلم أنني أتحرك بسرعة كبيرة نحو الوصول إلى ذات المصير! قليلا وأسمع عبد السلام يقول:

- هو انتي تعرفي كمال من قبل ما تيجي المصحة؟

صدمني السؤال، لا أعرف ما الذي دفعه إلى طرحه، وإن كانت المفاجأة محصورة في كيف شعر بهذا الأمر؟ هل نظراتي تفضحني إلى

fb/mashro3pdf

الحد؟ أم أن عبد السلام شخص جدير بالارتياب منه؟ يلمح هو دهشتي فيتسم ابتسامة خفيفة علها تمحي بعضا من أثر الدهشة العالقة على ملامحي، وأقول له:

- إيه اللي خلاك تسأل السؤال ده؟

- حاسس انك مهتمة بيه شوية، دايما اللي بيقوله في أي جلسة استماع بتبقى مركزة فيه قوي، وكأنك مستنية انه يقول حاجة معينة.

تزيد الدهشة ويستوطن الارتياب، قليلا وأقول:

- مش شايف انه غريب إنك تبقى متابع كل التفاصيل دي وانت واحد من المرضى الموجودين؟

- ساعات بقول لنفسي ان اهتمامي بالتفاصيل دي هو سبب أزمتي النفسية.

- مش فاهمة.

- يعني دايما اللي بيهتم يعرف اللي حواليه كويس بيكون عرضه أكبر للمرض النفسي، زي الفنان والسياسي مثلا.

- وإنت بقى فنان ولا سياسي؟

- أنا واحد بيهتم بالتفاصيل رغم انه بيحاول مايعملش كده.

- طيب وإيه اللي مش مخليك تنفذ ده؟

- لو كنت اعرف ماكنتش بقيت موجود هنا.

يغلفنا الصمت للحظات وتتسارع في مخيلتي صور من الذكريات، عصام ومحمود وشيرين وشقة باب اللوق، مظهر كمال بعد أن حلق

fb/mashro3pdf

لحيته وارتدي ملابس اشتراها عصام من أجله، مناقشات وصراع دائم من أجل الوصول إلى الحقيقة المجردة، ويقطع عبد السلام حبل الأفكار بقوله:

ـ ماردتيش على سؤالي.

ـ أي سؤال؟

ـ معرفتك بكمال؟

ـ هيفرق معاك؟

كأنه مدمن في انتظار الجرعة، لحوح بصورة مزعجة وإن كنت قد بدأت أشفق عليه، لا أعرف ما يدور بذهنه لكنه وإن كان كما وصف لي حالته، فهو إلى الجنون أقرب من المرض النفسي، وأقول له:

ـ لأ ماكنتش أعرفه!

ـ يبقى انتي كمان بتهتمي بالتفاصيل الصغيرة.

ـ لأ برضه.

ـ أومال إيه؟

ـ مش كفاية أسئلة بقى؟

يبتسم لي بود ويقول:

ـ سؤال أخير؟

أنظر ناحيته وأعرف أنه لن يبرح مكانه من دون أن يفصح عنه، وأقول:

fb/mashro3pdf

ـ اتفضل.

ـ جربتي تكتبي قبل كده؟

ـ أكتب إيه؟

ـ مذكرات مثلا.

هذا شخص غير طبيعي، إما أنه خبير في قراءة الشخصيات أو أن هناك أمرا غامضا يحيطه، في الحالتين هو يشكل حالة استثنائية في المجموعة «ب» أقول له:

ـ بتسأل ليه؟

ـ أنا قلت إنه آخر سؤال.

ـ أصلي مستغربة.

ـ مفيش داعي للاستغراب، هي كلمة واحدة.

ـ ليه يهمك تعرف؟

ـ أصل لو بتكتبي يبقى شيء كويس قوي، ولو مبتكتبيش يبقى بقترح عليكي تعملي كده.

يلاحظ تعاظم دهشتي فيكمل:

ـ أكتر حاجة ممكن تساعد الشخص اللي بيهتم بالتفاصيل الصغيرة، هي إنه يدون كل اللي في دماغه عشان يتخلص منه، أنا بعمل كده وحاسس بفرق، لاحظي إن أغلب الكتاب بيكون عقلهم دايما مشغول بالأسئلة عن كل حاجة حواليهم وكل حاجة بيشوفوها، الكتابة هي اللي بتخليهم يفرغوا اللي جواهم ده.

fb/mashro3pdf

أنظر إليه وما زالت الدهشة عالقة وتجاورها الرغبة في معرفة ما وراءه من حكاية، ويكمل:

ـ أرجوكي، لو كنتي فعلا بتهتمي بالتفاصيل اللي حواليكي اكتبيها، أو حتى اكتبي أي حاجة بتيجي في بالك، أنا آسف اني طولت عليكي، عن إذنك.

يقولها ويمضي بعد أن تركني وسط كومة من أسئلة بلا إجابات، الغريب أنه اقترب كثيرا من الحقيقة، على الأقل حقيقتي، لأنني ومنذ أن انضممت إلى التنظيم وحتى الآن، لا أفعل شيئا بجوار حبي لكمال وتردد أنفاسي، إلا أنني أدون يوميا ما يدور من حولي، وداخلي!

* * *

تحول كمال إلى شعلة من النشاط، وكأنه قد خلع عنه طبقة جلدية شائهة مبديا جوهرا يليق بشخصية ساحرة، واكتشفت أنه كما ساعدت إطلالته في تطور عمل التنظيم، أنه ـ أي التنظيم ـ قد أعطاه فعليا قبلة الحياة، فعاد إليها من جديد.

حكى لي عصام أن كمال قضى نحو ٥ سنوات من عمره في المعتقل، وأنهما كانا زميلي دراسة، شاهده عصام يوم أن جلبه إلينا في مقهى الحرية بميدان باب اللوق بمظهره المثير للشفقة، فشعر بهول الموقف وارتعشت أطرافه، يقول عصام إنه بكى حينما رآه، وأنه ذكره بأسطورة العظيم نجيب سرور، حينما كان الأخير يتسكع في شوارع وسط البلد بمظهره الرث وفي يده المكنسة الخشبية، مطلقا السباب باتجاه الجميع، أهل الفن والسياسة، أجلسه عصام على طاولته وبدا له أن كمال قد نسيه أو يحاول أن يفعل، كان يريد أن يتركه ويمضي لكن إصرار عصام كان عظيما،

fb/mashro3pdf

طلب له زجاجة بيرة وراحا يتجرعان معا وسط دخان السجائر الذي لا ينقطع، مشقة الذكريات القاسية التي لا ترحم أحدا، حكى له أطرافا من معاناته اليومية في المعتقل والتي انتظمت لنحو ١٨٢٥ يوما فكانت حصيلة الأرمثات من السنين الضوئية، حتى إنه بكى حينما ذكر لي أنه شاهد صديقه وهو يتبول لا إراديا في صمت، يا للوجع ووطأته، جلسا بدخان صامتين لبعض الوقت، وإن كانت الكآبة حاضرة كألف ساعة عملاقة تطلق هديرا من الصراخ، لم يفكر عصام طويلا في جلبه إلى شقة باب اللوق، قال لي إنه كان سيقيده ويأتي به رغما عنه لو أصر على الرفض، هو يعرف ما يعيد كمال إلى نفسه وسوف يساعده على ذلك.

مع مرور الأيام اكتشفت أن كمال يعاني رعشة دائمة في يده اليسرى، يحاول أن يداريها لكنها فضحته، مع حماسته في المناقشات كان ينسى أمر الرعشة فتظهر لنا بعضا مما يخفي بداخله، إنه يعيش كابوسا يحاول أن يفيق منه بكل قوة، تغلبه الحماسة ويستوطن الكابوس، يوما كان نائما في إحدى غرف الشقة وكنت أنا أنهي ترجمة بعض الأوراق، سمعته يصرخ في الداخل فتملكني الرعب، ناديت على عصام ليرى ما حدث فحكى لي الأخير عن معاناة كمال مع النوم، الكادر الأسود الذي يغيب فيه عقله يتداخل مع الظلام الذي يرتع داخله، كائن عظيم يجثو على صدره فيفزعه كل ليلة، لدرجة أنه فكر مرة أن يظل مستيقظا بلا نوم، أطنان القهوة وعلب السجائر لم تشفع له لتحقيق الأمنية، تتداخل الكوابيس ويستمر الصراخ.

جلسنا حول الطاولة لنشرح لكمال النشاط الموكل إلينا، بدأ عصام يحكي له عن «الأستاذ» وعن تفاصيل التنظيم، عدد المجموعات والأعضاء وسرية الحركة وطريقة الالتحاق وطبيعة النشاط، تخصصنا

fb/mashro3pdf

في ملف شركات القطاع العام، يأتي إلينا «الأستاذ» بمستندات تفصيلية تخص عمليات البيع، إلى جانب التقارير الدولية التي لها علاقة بالأمر نفسه، علينا أن نترجم التقارير الأجنبية ـ وهو ما أفعله ومعي شيرين ـ على أن يتكفل محمود وعصام وكمال ـ حال قرر المضي معنا ـ بوضع خطة العمل التي ستفذها مجموعة أخرى من التنظيم، خطة العمل تُنقله إلى أحد العمال في الشركة المزمع بيعها، لتكون ورقة ضغط في يد عمال الشركة نفسها، بدءا من المفاوضات وصولا إلى الإضراب وتوصيل الحقيقة كاملة إلى الرأي العام الداخلي والخارجي، من أجل الوقوف في مواجهة عملية البيع، هكذا ببساطة، فكر كمال قليلا ثم قال:

ـ وإيه نسبة نجاح التنظيم في وقف عمليات البيع؟

يتدخل محمود ويقول:

ـ نسبة النجاح من عدمها اللي بيهتم بيها هو «الأستاذ» بس، بخلاف كده فيه شغل بنعمله بقواعد التنظيم بغض النظر عن النسبة دي.

يقول كمال:

ـ أيوة لكن مهم نعرف قد إيه الشغل اللي بيتعمل ده بيجيب نتيجة.

يتدخل عصام:

ـ في حالة لو حصل تقصير في شغلنا أو في شغل أي مجموعة تانية من التنظيم، الأستاذ بيعمل اجتماع مع رؤوس المجموعات وبيناقش المشكلة وبنوصل لحل، وباقي المجموعات بيوصلها الجديد عن طريق الرؤوس بتاعتها.

ـ ومين الأستاذ ده؟

fb/mashro3pdf

نتبادل النظرات في صمت، هناك أسئلة لا مجال لها وهذا واحد منها، ءلبلا ويقول عصام:

ـ ده الشخص اللي بيدير التنظيم كله بجميع مجموعاته، هو مين؟ شكله إيه؟ ده ماحدش يعرفه غير رؤوس المجموعات بس.

يبتسم كمال ويقول:

ـ بتفكرني بتركيبة التنظيمات الشيوعية.

عصام يضحك ويقول له:

ـ شيوعية، رأسمالية، ماركسية، كلها نظريات مالهاش وجود معانا ولا بتأثر في شغلنا، عندك مثلا محمود شيوعي وشيرين وسلمى ليبراليين أما أنا إنت عارفني مش مقتنع بفكرة النظريات دي، يعني شيل من دماغك مبدأ المسميات خالص عشان مش ده المهم.

يهز كمال رأسه بتفهم وأقول أنا:

ـ ده معناه إنك وافقت تنضم معانا؟

ينظر ناحيتي وتتعلق نظر المجموعة به، قليلا ثم يقول:

ـ إيه المطلوب مني بالظبط؟!

يتنهد عصام بارتياح ونتبادل أنا وشيرين النظرات في صمت، بعد انتهاء الجلسة دلفت وشيرين إلى غرفتنا، وبدا لي أنها واقعة في خضم توتر وقلق كبيرين، نظرت ناحيتها انتظارا لما تريد البوح به، قليلا وقالت:

ـ قلقانة من كمال ده.

fb/mashro3pdf

ـ ليه؟

ـ مش عارفة، تفتكري لو...

ـ بلاش السؤال ده يدور في دماغك أصلا، أظن كلنا متفقين على المبدأ ده.

تنظر ناحيتي ويبدو أن ما قلته لم يزح أيا من زحام التوتر والقلق بداخلها.

* * *

fb/mashro3pdf

(٣)

حول طاولة الطعام اقترح السيوفي فكرة غريبة، قال:

ـ إيه رأيكم نعمل حاجة جديدة؟

نتساءل عن كنه هذا الجديد فيستطرد:

ـ إحنا بقالنا فترة روتين يومنا واحد تقريبا، ليه مانفكرش نغيره؟

أنظر ناحية كمال وأسمعه يقول:

ـ نغيره إزاي؟

ـ نخرج بره المصحة كام ساعة ونرجع تاني.

يغيبون في مناقشة الفكرة وأغيب أنا في موجه من التفكير، هل يستطيع هذا الخروج أن يكسر ولو بعضا من حالة الحياد التي غلبت علاقتي بكمال؟ حالة جديدة قد تشفع لي في الاقتراب من المنطقة الملغومة، أعرف أن كمال لا يطيق الوجود في مكان مغلق لفترة طويلة، فهل تغير هذا الأمر بداخله وارتضىٰ بجدران المصحة قيودا جديدة له؟ أنظر إلى ملامحه فأشعر

fb/mashro3pdf

أنه لا يبدي أي مقاومة للفكرة مثلما فعلت فريدة وعبد السلام، فهل ما أظنه صحيحا؟ وإن كان الأمر كذلك فإن البراح بالخارج قد يساعدني في مهمتي، أترقب قرارهم النهائي وأحاول أن أعد جميع أسلحتي لليوم الموعود.

في غرفتي ليلا أفكر في مصير بات حملا ثقيلا ينوء كتفي بحمله، وأحاول أن أتخيل الصراع الدائر داخل كمال الآن، فتغلبني موجة من الكآبة وأشفق عليه وعلى نفسي، صراع مقيت والزمن يتسرب من بين أيدينا، كم تبقى لنا من العمر حتى نقضيه متنقلين ما بين الكآبة والألم ومزيجهما الثقيل؟ ألا تنتصر فطرة الحياة داخل المرء على الصراع المحتوم والاكتئاب الأبدي وأتون اليأس المستعر؟

أتمنى أن توافق المجموعة على فكرة السيوفي، وأفكر في طريقة للوصول من جديد إلى كمال، أحاول أن أنتقي العبارات التي سأقولها له، وأتخيل ردود فعله وأخترع أجوبة لها، أريد أن أمتلك سيناريو للحدث يمهد لي الولوج بأريحية خلال الجدار المتصلب، أغيب في ذكريات الماضي محاولة استرجاع ما وجده كمال لدي فقرر الانصهار معي، تنهمر الذكرى، وتغيب الكآبة ولو إلى حين.

* * *

مهمة جديدة تلوح في أفق شقة باب اللوق.

اجتمعنا حول الطاولة وبدأ عصام يرتب أوراقه حتى يشرح لنا أبعاد الموضوع، شركة جديدة وخسارة أخرى، جيوب تمتلئ بالمال الحرام وأخرى يتقاطر منها متزويا القليل من الحلال، ٢٠٠٠ عامل في طريقهم إلى التشرد، هكذا بدأ عصام الموضوع.

fb/mashro3pdf

ـ ده ملف مصنع الأسمدة بتاع اسكندرية، الأستاذ وافق على اللي فيه وهنبتدي ننفذ.

يقول كمال:

ـ إيه الحكاية؟

ـ ده ملف كنا شغالين عليه قبل ما تيجي، بس خد موافقة ولازم نوصله للمجموعة التانية في اسكندرية، بكرة تسافر اسكندرية يا كمال، القطر هيوصل الساعة ١١ أو ١١ ونص، الشخص اللي هيستلمه منك هيجيلك على قهوة «أحلى الأوقات» في شارع مصطفى كامل في سموحة، هيدردش معاك شوية وياخد منك الملف، اشرب حاجة وبعد كده روح اتغدى في أي مطعم، وهترجع في قطر الساعة ٧ تذاكر القطر سلمى هتجيبها بالليل.

يفكر كمال ثم يقول:

ـ وهتعرّف عليه ازاي؟

ـ هو هيعرفك ماتقلقش.

ـ تمام.

ـ عندك أي أسئلة؟

ـ لأ مافيش.

غاب أفراد المجموعة كل في خواطره، وأركز أنا مع ملامح كمال الذي بدا لي أنه يولد من جديد، لمعان عينيه يقول إن هناك شعورا جديدا يسري في أوصاله ويخبره أنه ما زال هناك أمل على الرغم من كل شيء.

fb/mashro3pdf

أضطني أكثر من مرة وملامحه تطوف بي، وأتساءل: هل للشفقة والألم على حاله دخل في الأمر؟ لم أعرف، لكن هناك شيئا ما يتحرك داخلي ناحيته، والمهمة الجديدة سوف تتكفل لي بالتأكد من صحته، غدا سيسافر كمال إلى الإسكندرية، وسأرتب أموري لكي أكون معه هناك.

* * *

خارج المصحة كان الجو منعشا.

الهدوء المحيط وإحساس التخلص من قيود وهمية كبديل عن التخلص من القيود الحقيقية الكامنة في أنفسنا كان مسيطرا على الجميع، علي بنجر يقرر تغيير اسمه إلى سيد بنجر، تغيير لم يشعر به سواه بعد أن كان يكره اسم علي فقط ويعتز باسم بنجر! سخروا منه فابتسم هو شفقة على حالهم!

أسير بجوار كمال متسائلة عن تفاصيل التجربة الجديدة وما ستخلفه داخلنا من آثار، هل أقترب أكثر وأجبره على أن يشبك أصابعه المتوترة في أصابعي التي يغمرها الحنين؟ ينتابني إحساس غامض بعد أن قارنت بين خروجنا اليوم وبين سفري معه أول مرة إلى الإسكندرية، شخصان مختلفان عنا الآن فصلت بينهما فترة زمنية كانت عامرة بالأحداث مخلفة وراءها طيفا من سعادة وأطيافا من الألم، وأسمع سامح يقول:

ـ المهم هنروح فين؟

ويرد السيوفي:

ـ على أول الشارع فيه عربية كبيرة مستنيانا.

نركب السيارة وأصر على أن أجلس بجوار كمال، شعور أن تتلامس

fb/mashro3pdf

اجسادنا من جديد حتى وإن كان سببه الوحيد هو ضيق المساحة فقط، أعرف أن كمال يصله دائما ما يطوف بخيالي، اعتدت منه هذا وإن كان في الأمر مسحة أسطورية كانت تطولها مني السخرية قديما، قبل أن أعرفه، وبناء على تلك المقدمات وجدتني أتساءل عن الموقف الجدير باستعادته في ذهني، عله يتنقل إليه ويساعدني في مهمتي، موجات من أثير وتربص مستمر، هل أتذكر يوم أن احتوتنا غرفتي بشقة باب اللوق وامتزجت اجسادنا تحت وطأة المشاعر الساخنة والرغبة المتقدة؟ يوم أن كانت حركاتنا المحمومة تلفظ من داخلنا الشعور بالوحدة وتغمرنا بالحالة الجديدة من النشوة المتدفقة؟ وقتها كنت أشعر بأن ذرات جسدي تتفاعل بصورة قياسية معه، وكأنها وجدت أخيرا الطرف الآخر في المعادلة الغائبة فانصهرت، أديم من السعادة يخلف وراءه تركة من الألم والاكتئاب، ومع مرور الأيام وتكرار عملية الانصهار أخذ الأديم في التعمق حتى تلاشت الكآبة وانزوى الألم ولو إلى حين.

ملامح وجهه بعد أن أنهينا انصهارنا الأول، تطوف بي الآن وتغمرني بالحنين إلى أيام تأبى أن تعود، نظرت إليه وأنا أعقد يدي فوق صدره غارقة في سحابة من النشوة والارتواء، هل كان بين خلجاته شعور بالعرفان تجاهي، يجاور شعوره بالسعادة واستعادة بعض الثقة الغائبة؟ أعرف أن جزءا كبيرا من علاقتي به بدأ من مشوراه لاستعادة كل ما غاب عنه طوال ٥ سنوات هي عمر الاعتقال لكن ماذا في ذلك؟ هو أمضى ٥ سنوات معتقلا، في حين كنت أرسف أنا طوال ٢٦ عاما في قيود أحاطتني من كل جانب مخلفة وراءها فيضا من الشعور باللاشيء، وحدة وخواء واحتياجات مهملة ومؤجلة إلى يوم آخر عاف أن يجيء، في تلك الفترة كان انسجامنا معا يساعدنا على التخلص من بقايا عالقة كأنها القدر، لم

fb/mashro3pdf

نشعر بصدق ما كان يموج بداخلنا إلا بعد أن كان التوقف المؤقت لنشاط التنظيم، بعد القبض على أحد أفراد المجموعة الرابعة، كانت الأوامر هي ألا نلتقي تماما، خالفنا الأوامر، والتقينا، هنا اكتشفنا أن ما يدور بيننا لم يكن محاولة لاستعادة مشاعر تائهة أو لقتل سرطان من الألم واللاشيء داخلنا، ما كان بيننا ولد حبا فعليا فأخذنا ننهل من البحر الذي لا نهاية له، أو هكذا ظننا.

يوقف تسارع أفكاري توقف السيارة، ننزل منها متجهين خلف السيوفي الذي أبصره يدخل من باب مطعم لم أزره من قبل، كان وقتها كل ما يهمني هو أن أبحر في ملامح كمال، علني أرى أثرا للصور التي أرسلتها إليه عبر أثير عقلي، هل وصلت إليه أم أن الإشارة لم تكن جيدة؟ وإن وصلت فكيف كان أثرها عليه؟

داخل المطعم نجلس حول طاولة يبدو أن السيوفي كان قد حجزها مسبقا، نطلب العشاء وأبدأ رحلتي مع ملامح كمال، هل لاحظت التفاته ناحيتي أم أنني بدأت طور التوهم؟

* * *

تفاجأ بوجودي على المقعد المجاور له في القطار، لم أبلغه مسبقا ولم أخبر عصام أو أيا من أفراد المجموعة أنني مسافرة معه، على الرغم من أن شيرين كانت تشعر بذلك، أعرف أن هذا ضد قواعد التنظيم لكن أحيانا يكون التخلص من القيود الوهمية هو أقصر الطرق للشعور بالسعادة، زد على ذلك رغبتي في معرفة كمال عن قرب، هذا الغامض الذي كان لحكايته أثر محزن بداخلي، هذه الرحلة ستساعدني في معرفة حقيقة ما يموج بداخله أو على الأقل قد تصلني شذرات منها، وكان هذا كفيلا

fb/mashro3pdf

التخلص من التردد الجاثم على أنفاسي من أجله.

وقلت له والقطار يلتهم المسافة ما بين القاهرة والإسكندرية:

- مفاجأة؟

ابتسم بود بعد أن لاحظت من محاولته تثبيت يده المرتعشة، أنه قد ارتبك من المفاجأة، وأسمعه يقول:

- الحقيقة آه، في جديد حصل؟

- لأ مافيش، قررت اغير جو.

- أصل عصام مابلغنيش.

- ما هو مايعرفش.

يغلبنا الصمت طوال رحلة القطار.

كنت أشعر أن ارتباكه مجرد حصيلة حتمية لما مر به، لكنه ليس جزءا من شخصيته التي لا أعرفها! شيء طارئ ليس له من الاستيطان أثر، بداخلي ما ينبئني بها غمض علي من تفاصيله، أهمها ولعه الشديد بفهم جيع التفاصيل المحيطة به، ربما يكون هذا سببا للمفاجأة حينما رآني أجاوره في الرحلة، حذره الشديد واحتياجه الدائم لفهم ما خفي عنه، قد يشكلان سببا في تعرقل مهمتي في معرفته عن قرب، لنرَ.

ترجلنا من القطار وركبنا تاكسي ليتقلنا من محطة مصر إلى سموحة، بالقرب من المقهى الذي سيقابل فيه عضو المجموعة الأخرى، تركته بعد أن أخبرته أنني سأعود إليه بعد ساعة، لا يجب أن يراني أحد معه هنا خصوصا لو كان له علاقة بالتنظيم، فهم الأمر بسهولة وإن كان قد زاد

fb/mashro3pdf

القلق داخله، حرقت أنا تلك الساعة بأن ذهبت لاشتراء بعض اللوازم، ثم جلست في أحد الكافيهات القريبة منه، بعد ساعة عدت إليه وعرفت أنه قد سلم الملف وأنهى مهمته، قال لي:

ـ هو المفروض ان أعضاء كل مجموعة مايعرفوش أعضاء المجموعات التانية، مش كده؟

ـ مظبوط.

ـ طب إزاي الشاب اللي إستلم الملف مني اتعرف عليا؟

كان سؤاله مفاجئا وخصوصا بعد أن اكتشفت أن عصام قد فاتت عليه تلك التفصيلة، أم يكون قاصدا؟ حذر كمال الزائد قد يعجل بفضح بما نحاول إخفاءه، قليلا وقلت له:

ـ ساعات بيكون فيه استثناءات زي كده.

هز رأسه وبدا لي أنه لم يقتنع، أعرف أنها إجابة ضعيفة لكن مفاجأة السؤال عجلت بانتقاء أقرب الحلول إلى عقلي وقتها.

تمشينا قليلا وبدأنا حوارا ممتدا حول كل شيء، قررت أنا ألا أفتح معه حديثا عن الاعتقال أو عن تجربته السياسية السابقة، بعد أن بدت لي محاولاته لإزالة آثار تلك الحقبة من حياته في أقرب الجوانب المظلمة داخل عقله، اكتشفت أنه يملك روحا خفيفة وحسا ساخرا كان مختفيا وراء إحساسه بالألم، أعجبت بولعه بالسينما وعرفت أن هناك بعض الخيوط التي تصلنا ببعض، جسورا تبدت لي باتجاهه ومحاولة حذرة للعبور فوق مجهول لم تتضح جميع تفاصيله بعد.

حدثته عن أشياء من الماضي فرأيت في عينيه اهتماما أكثر بالمستقبل،

fb/mashro3pdf

كنت أظن أنني هنا لأسمعه لكنني أسهبت في الحكي، ساعدتني في ذلك قدرته الجيدة على الاستماع، حكيت له كل شيء عن مخاوفي وأحلامي والشعور بالوحدة، وفي وقت معين شعرت أنني أعامله معاملتي لمن اعرفه من سنين، وهو أمر استغربته جدا وقتها، لا يحكي أحد لآخر كل هذا وهو يعرفه منذ أيام فقط، هل كنت أتمنى أن أجد مستمعا أم أنه هو السبب في الأمر؟ لم أعرف حينها.

ذهبنا لنتغدى معا في أحد المطاعم المطلة على البحر في ميامي، في هذه اللحظة بدأ هو مهمته مع الحكي، حكي لي عن أحلامه القديمة والتي يبدو أنها طارت مع أول نسمة هواء، كان يحلم أن يصبح مصورا سينمائيا وكانت له بعض التجارب مع عدد من الهواة، في عمل بعض الأفلام القصيرة المستقلة، وقضى المعتقل على آخر علاقة له بها، في هذه اللحظة وأنا أبصر الحزن يملأ مقلتيه لم يكن هناك مجال لمطالبته بالخروج من تلك الحالة والمحاولة من جديد، هناك أشخاص عندما يحكون لك عن أحلامهم الموؤودة لا تجرؤ على نصحهم أو مواساتهم، تستمع وتصمت وتدع الألم يتخذ بأريحية مكانا داخلك، خصوصا حينما تكون أزماتهم أكبر بكثير من هراء كليشيهات التنمية البشرية إياها، كما كان واحدا من هؤلاء.

ذهبنا إلى السينما حتى يأتي موعد القطار، وبصورة ما تزايدت الألفة بيننا حتى بدأت أشعر أن جميع القيود المحيطة قد بدأت في الانزواء، قال لي مبتسما قبل أن تبدأ آلة العرض في الهدير:

ـ على فكرة، أنا عمري ما حبيت أدخل السينما ومعايا حد، سينما يعني لوحدي.

fb/mashro3pdf

أبادله الابتسام وقد بدأت أفهم ما يريد أن يرمي إليه وقلت:

ـ وإيه اللي خلاك تغير رأيك المرة دي؟

ـ مش عارف.

صمت لحظات وبدا لي أنه يريد الإفصاح عن شيء بداخله، قليلا وقال:

ـ تعرفي ان الشغل مع المجموعة غير حاجة جوايا؟

ـ غير إيه؟

ـ وقف الكوابيس اللي كانت ملازماني مع كل مرة عيني تغمض فيها.

تدور ماكينة العرض وينظر كمال إلى الشاشة مبتسما، وساعد شريط الصوت الذي بدأ الهدير في إخفاء صوت مشاعري المضطربة وتصاعد ضربات قلبي.

* * *

في القطار عائدين لفنا صمت غريب، وكأن الكلام قد انتهى قبل أن تطأ أقدامنا عربة القطار العائد إلى القاهرة، حاولت أنا أن أكسر هذا الصمت بأن قلت له:

ـ ماقلتليش بقى ليه مش بتحب تدخل السينما مع حد؟

فكر قليلا وكأنه يبحث عن إجابة بين عدد من الاختيارات وقال:

ـ يعني... بحب حالة التوحد اللي بتكون بيني وبين الشاشة، وجود حد معايا بيكسر الحالة دي.

ـ أتمنى ماكونش كسرت لك الحالة دي.

fb/mashro3pdf

ـ الغريبة انه ماحصلش.

نضحك معا ونبدأ نقاشا جديدا بخصوص السينما، يقول إنه كان يتمنى أن يكون واحدا ممن عاصروا بداية ظهور السينما وقبل وجود التليفزيون، وقلت له:

ـ ليه يعني؟

ـ لأن دي كانت المتعة الوحيدة بالنسبة للناس، شيء ساحر ومبهر وجديد، لو اتفرجتي على فيلم «سينما باراديسو» أو قريتي رواية «راوية الأفلام» هتفهمي أقصد إيه.

يلاحظ هو نظري المعلق على يده اليسرى التي أخذت في الارتعاش، نسي أن يقيدها بيده الأخرى أو خذلته في وقت كان مشغولا فيه عنها، انطفأ لمعان عينيه وبدا أن الكآبة وجدت طريقها بيننا، اعتذرت له بعيني فقط، وهو ما زاد من وطأة الألم في عينيه، كمال شخص قوي، يكره أن يرى فيه أحدهم ضعفا متواريا أو يرى هو في أعين الآخرين شفقة فاضحة، يلفنا الصمت من جديد بعد أن زاد الألم وتوطن الاغتراب، وتظل حالنا كذلك حتى نصل من جديد إلى شقة باب اللوق.

قابلني عصام غاضبا وقال:

ـ كنت فين يا سلمى؟

ـ كان عندي شوية مشاوير.

ـ إحنا متفقين ان مافيش حد يختفي من غير ما يكون مبلغ، انتي بتهرجي؟

يتدخل كمال محاولا تهدئة الموقف في حين كانت شيرين ومحمود

fb/mashro3pdf

يتابعان الحدث بحياد:

ـ خلاص يا عصام حصل خير.

ـ اختفاء حد مننا هيدخلنا في دوامة احنا مش فاضيين لها، آخر مرة تحصل.

يرمي الجملة الأخيرة ناحيتي فأتجه ناحية غرفتي إنهاء للموقف.

أدلف إلى الغرفة وتلحق بي شيرين، تتجه ناحيتي وهي تنظر في عيني مباشرة وتقول:

ـ إنت سافرتي معاه مش كده؟

أحاول إشغال نفسي بأي شيء وأقول لها متعمدة أن يبدو ردي لامباليا:

ـ أيوة.

ـ ليه؟

ـ كنت محتاجة أغير جو.

ـ بس؟

أنظر إليها وأفهم ما ترمي إليه، يغلفنا الصمت قليلا ثم تقول:

ـ أنا مش بحاسبك يا سلمى، بس عايزة ألفت نظرك إن اللي انتي بتعمليه ده خطر على شغلنا.

ـ أنا عارفة انا بعمل إيه.

ـ عموما بكرة تفهمي كلامي كويس.

fb/mashro3pdf

وجاء الغد، وفهمت ما كانت شيرين متخوفة منه.

* * *

بعد أن أنهينا عشاءنا أخذنا السيوفي إلى شقته، كان الوقت يمر ببطء خصوصا وأن كمال كف عن النظر ناحيتي، في المطعم تلاقت نظراتنا أكثر من مرة بدرجة جعلتني أوقن أن ما استعادته ذاكرتي في السيارة وجد إليه طريقا بصورة ما، احتياج متبادل ورغبة تحتاج لها وسيلة للتحقق، بعد ذلك بدا أنه قرر أن يشغل نفسه عني بأي شيء عسى أن يساعد هذا في طرد التوتر البادي على ملامحه، هل شعر أنه يقترب من الباب وقبل أن يفتحه لي تراجع فجأة عن الفكرة؟ المهمة صعبة لكن هناك بوادر تقول إنها قد تحقق بعضا من مكاسبها المرجوة.

وقفت بالقرب منه بعد أن لاحظت انشغال السيوفي بفريدة وسامح بهاتياب، فجأة ومن دون مقدمات وضعت يدي على كتفه ونظرت مباشرة في عينيه، حاولت نظراته أن تهرب لكن إصراري كان عاتيا، أحاول ضبط نبرة صوتي وأنا أقول له:

ـ أنا محتاجاك قوي يا كمال.

لقد وطأت الجرح الآن ووقفت في انتظار تطهيره، أعرف أن أكثر ما يؤثر فيه هو أن يشعر بحاجة أحدهم إليه، فما بالك بي أنا؟ جاء صوتي ضعيفا فلم يسمعه سوانا، كان عميقا وصادقا بصورة استغربتها، وكأنه جاء محملا بكل ما بداخلني من احتياج، الآن كمال ينظر إليّ، أرى الكلمات تقف على بوابة فمه الموصدة، في حين تجمعت حواسي كلها انتظارا لما سيتفوه به، لكن الصوت جاء من ناحية أخرى.

السيوفي يتجه ناحية مصدر الصوت، هناك أحد سوانا في الشقة،

fb/mashro3pdf

يتحرك الجميع خلف السيوفي في حين أشعر أنا بسوء حظ ممزوج بالغضب، لربك يفصلني عنه إلا لحظات أبت أن تمد لي يد العون، يتجه السيوفي ناحية الغرفة ويفتح الباب، ويتسمر نظري على المشهد الجديد، رجل وامرأة عاريين في السرير وقد امتلأت ملامحهما خوفا وتوترا، السيوفي يطأ الغرفة ونسمعه يقول:

- إيه المفاجأة الحلوة دي؟

ويقول الرجل:

- رشدي؟

المرأة تحاول أن تداري جسدها بملاءة السرير متمنية أن تختفي الآن عن أنظارنا المعلقة بها، يزيد التوتر داخلي وأشعر بوطأة المشهد على أعصابي، وكأن القدر قد اختار تلك اللحظة بالذات ليعرض على كادر مشهد مسيطر أصلا على أعصابي منذ فترة، حرمان واحتياج في مقابل انفصال عن مصدر الإشباع! أتحرك مبتعدة عن المشهد ويلاحظ كمال توتري، هل انتقلت إليه مشاعري الآن؟ يغلق السيوفي الباب وأقف أنا وأمامي كمال، وفي أنحاء متفرقة أرى ماهيتاب وسامح وفريدة مشتتين من أثر الموقف الذي لن يزول سريعا، أنظر ناحية كمال فأرى أن نظره معلق بي، أتحرك ناحيته وأضع يدي في يده وأشعر بملامسة أصابعه لي، هل بدأ يتحرر؟ أم أن مفاجأة الموقف جعلته يترك العند إلى حين؟ تتشابك أيدينا وأشعر بوطأة التوتر الساري في أطرافنا، نتجاور صامتين وكأننا نحاول أن نشعر بالطمأنينة من خلال الصمت كعادتنا، قليلا ويقول سامح:

- تفتكروا دي مراته؟

لا أهتم بالسؤال ولا بمحاولة الإجابة عليه، الحكاية كلها لا تهمني،

fb/mashro3pdf

...ط أتمنى أن تطول تلك اللحظات وأن تظل يدي عالقة بكف كمال، ا بد أن توصل إليّ بعضا مما يزدحم به صدره، الحاجة إلى المعرفة وأنت .خبط وسط الظلام، لكن السيوفي أبى ذلك، خرج من الغرفة ولحقنا .، قابلنا عبد السلام عند باب العمارة وركبنا السيارة عائدين إلى المصحة من جديد.

* * *

في المصحة تبادلت مع كمال نظرة أخيرة قبل أن تلتهمه غرفته، فكرت ان اذهب إليه عسى أن يوافق على أن أظل بجواره لبعض الوقت، لكن ترددي وخوفي على ضياع المكاسب البسيطة التي تحصلت عليها اليوم، وقفا أمام رغبتي الشديدة في الإقدام على ذلك.

دلفت إلى غرفتي أحاول أن أستعيد لحظات ملامسة الأيدي متسائلة عن المزيد، لم يكن الأمر محصورا في احتياجاتي الجسدية، بقدر ما كان شعور بأنك على طريق استعادة نفسك من جديد، كمال بالنسبة إليّ ليس مجرد رجل تعلقت به أو جمعتني معه علاقة كان لها الأثر الأقوى في حالتي النفسية، لقد كان الوقود الذي يدفعني إلى الاستمرار في الحياة، براح أحتاج إليه، ونفس لن أستطيع أن أكمل حياتي من دونه.

أتحرك ناحية المرآة وأنظر تجاه ملامحي المعكوسة عليها، ابتسامة صغيرة تتخذ من ركن فمي ملاذا لها، وتجاورها رغبة حارقة موقدة داخل مقلتي، وأقول لنفسي بصوت مرتفع:

ـ هانت!

* * *

fb/mashro3pdf

(٤)

كان التأثر البادي على ملامح كمال بحديث توفيق المصري الوافد الجديد منعكسا على ملامحي كذلك، أحيانا تكون مأساة من حولك دافعا لاسترجاع بعض من مأساتك، فيكون حزنك على آلامهم نابعا بالأساس من قسوة الألم المستشري داخلك أنت.

تراجيديا الحياة حينما تتبدى في أبهى صورها، وحكايات تراها على شاشة السينما أو تقرأها في أخبار الحوادث فلا تحرك داخلك إحساسا بنفس القدر الذي تفعله بك، حينما تراها متجسده أمامك بتداعياتها وإحباطاتها ونتائجها العالقة في الأذهان. يقول توفيق:

ـ كنت راجع أنا ولبنى مراتي وملك بنتي من مرسى مطروح، متهيألي لو كانت الدنيا وقفت عند اللحظة السعيدة دي، كان الواحد قال انها جديرة بإنها تتعاش، لكن واضح اني كنت مغفل.

حتى السيوفي والذي بدأ الأمر بسخريته المعتادة، بدا أنه قد ندم على ما تلفظ به لسانه، ألم مستوطن وآخر محيط، أتساءل عن جدوى كل هذا

fb/mashro3pdf

...حتى يتبدى خط النهاية فلا أصل إلى قرار، فريدة تبكي بحرقة فتدعوني إلى المصير نفسه، هل تبكي على مصير توفيق أم أن لمصيرها دورا في الأمر؟ استمع إلى عذابات الناس واشعر أنك واقف أمام مرآة. تركض فريدة عائدة إلى غرفتها والحق بها ومعي ماهيتاب، لكنها تغلق الباب دوننا، اتبادل النظرات مع ماهيتاب والمح دموعا تجتمع في مقلتيها، فنتبادل معا لحظات من البكاء.

من قال إن بعضا من البهجة قد يخرج من بين الألم؟

بعد أن عدت إلى غرفتي سمعت طرقا على الباب، كانت سحابة من الكآبة تطوف بي ولم تكن لدي قدرة على التفاعل مع أحدهم، أيا كان القادم، لكن ماذا لو كان هو كمال بنفسه؟!

فتحت الباب ووجدته واقفا بذات التأثر الذي تركته به في غرفة الاستماع، تقابلت الأعين لثوان قبل أن يبدأ في النظر إلى اتجاهات مختلفة محاولا أن يهرب من تأثير الحديث المتبادل عبر الأثير، لم أتفوه بكلمة، وكأن مفاجأة الموقف أثرت في لساني وأصابته بالشلل، لكن حواسي كلها بجتمعه في أذني الآن، ويقول لي وهو ينظر في اتجاه مختلف عني وبصوت حاول أن يجعله محايدا إلى حد بعيد:

ـ إنتي كويسة؟

أومئ برأسي حينما نظر لي منتظرا الإجابة، فبادلني بإيماءة تماثلها وعاد أدراجه من جديد ليتركني مرة أخرى وسط صراعات الكآبة، وكأنه مجرد زميل عمل يطمئن على زميلته التي عنفها المدير منذ قليل، لكن هل هذا ما أظنه في تصرفه؟ منذ يومين كنت أنتظر منه كلمة مباشرة لي، والآن بعد أن جاءت يحاول عقلي خلق مبررات ليضيع

fb/mashro3pdf

عليّ فرحة الانتصار الضئيل، مؤلف يعجب بأعماله آلاف القراء لكن تتملكه الكآبة من رأي سلبي لقارئ واحد، أطرد عن ذهني مبررات الفشل وأحاول خلق بعض من أطياف الانتصار، القصة تتحرك إلى الأمام وعلي أن أبرح مكاني الذي اعتدت التحرك في نطاقه الضئيل، براح يتبدئ ونسمات من الهواء تحرك خصلات شعري فأبتسم.

* * *

في اليوم التالي سمعت طرقا جديدا على باب غرفتي، فانتابتني رعشة خفيفة في أطرافي، أيكون هو مرة أخرئ؟ اتجهت ناحية المرآة وعدلت بعضا من التفاصيل الصغيرة، فتاة في الثانية عشرة تشعر بالفخر مع الاستدارة الجديدة البادية على صدرها الشاب! اتجهت ناحية الباب فوجدت أن ماهيتاب هي الطارقة، بعض من خيبة الأمل وجد طريقا إلى ملامحي، لكنه انزاح سريعا لفضولي لمعرفة ما تريد ماهيتاب البوح به، تلك الشابة التي يغلب عليها التحفظ مع المحيط قادمة إلى في غرفتي، هذا حدث جدير بالملاحظة، دعوتها إلى الدخول فدلفت وبدا لي أنها تحاول انتقاء الكلمات قبل التفوه بها، وكأنها قضت سنين عمرها في محاولة بناء جدار يفصلها عن الناس، وقررت فجأة أن تهدم هذا الجدار، مشقة وتوتر ورغبة متأخرة في البوح.

جلسنا متقابلتين وابتسمت لها في انتظار أن تبدأ الحديث، قليلا ثم قالت:

ـ آسفة لو كنت أزعجتك.

ـ لأ خالص، أنا مبسوطة انك جيتي.

ـ حسيت اني محتاجه أتكلم مع حد، فلقيت انك أقرب حد ممكن أعمل معاه كده.

fb/mashro3pdf

ـ وانا مستعدة أسمع.

تنظر ناحيتي تحاول مغالبة التوتر البادي على ملامحها، قليلا وتقول:

ـ سامح.

هنا تبدأ في الكلام، تحكي لي عن سامح وعن محاولاته معها، تحاول أن تعكس لي حالتها النفسية من جراء الضغط الذي يمارسه عليها، لاحظت أنا أنها ترفض الأمر وتريده في الوقت نفسه، أشعر بالشفقة عليها وأحاول تخيل تاريخ المأساة التي كانت هي بطلتها، وأتأكد من أنها تحيط تلك المأساة بسور عملاق لن يقوى أحد على اختراقه، استمرت في الحكي وتابعت أنا الاستماع على الرغم من أن توترها كان سببا في حالة من التشتت الظاهرة، وعلى الرغم من تشتتها فإن ما تريد توصيله لي كان قد تبدى فعليا أمامي، هي أيضا انعكاس لصورة في المرآة، تختلف التفاصيل لكن الإطار واحد. أقول لها:

ـ شوفي انتي حاسه بإيه واعمليه، من غير ما تكعبلي نفسك بحاجات غالبا مالهاش وجود.

ـ مترددة وقلقانة، فيه حاجات بتكون حصلت في حياتك بتخليكي تفكري ألف مرة قبل ما تاخدي قرار معين.

ـ بصي أنا مش عارفة الحاجات اللي حصلت في حياتك دي، ومتهيألي انك مش هاتقوليها، لكن مهما كانت فهي خلاص حصلت وانتهت، لو فضل اللي ورا مسيطر على حياتك فاللي قدام هيعدي من قدامك ويجري من غير ما تلحقيه.

ـ تفتكري سهل ان اللي ورا ده ينتهي فجأة؟

fb/mashro3pdf

ـ لا هيتهي ولا هيتنسي، بس على الأقل مايبقاش مستحوذ على كل تصرفاتك بالصورة دي.

تفكر قليلا في كلامي، ويبدو أنه لامس أشياء عدة داخلها، ماهيتاب تريد من يشجعها على قرار تريده ليس إلا، تبدأ ملامحها في الهدوء بعد أن وجدت ضالتها عندي، قليلا وتقول:

ـ تعرفي انه بيفكر يعمل فيلم هنا؟

* * *

في اليوم التالي عرض سامح فكرة الفيلم على المجموعة، وقف بعد خروج الدكتور فؤاد وقال وهو ينظر باتجاه ماهيتاب:

ـ أنا بفكر نعمل فيلم سوا.

ابتسم أنا وأتبادل النظرات معها، كانت قد حكت لي عن تفاصيل ما يدور في ذهن سامح، وبالأخص أنها تشعر أنه يختلق هذا الحدث من أجلها بالذات، لا أعرف مدى صدق ما قالت وإن كان هذا ما أكدته الأحداث التالية.

يبدأ النقاش بين المجموعة بشأن الاقتراح، بعضهم تحمس بصورة كبيرة مثل عبد السلام وبعضهم سخر من الفكرة مثل السيوفي والبعض الآخر بدا محايدا تماما، مثل فريدة وكمال، أما توفيق فقد كان يرفض بصورة قاطعة الاشتراك في الموضوع.

ـ أنا بره الموضوع ده يا جماعة.

يقولها فتبدأ المجموعة في إقناعه بالعدول عن قراره، تنجح المجموعة وننخرط في الحدث الجديد.

fb/mashro3pdf

كنت قد فكرت أكثر من مرة عن مدى تأثير الحدث على كمال، أحلامه القديمة قد تتفتح الآن دافعة إياه للاشتراك في التجربة بصورة أكثر من دونه أحد أبطال الفيلم، هل يطلب من سامح أن يتولى مهمة التصوير أم أن لامبالاته سوف تستمر؟ وإن استمرت، هل أعرض أنا الفكرة على سامح علها تساعد في إخراج كمال من دوامة الاكتئاب اللعينة؟ لا أعرف، أكثر من مرة أفكر في الذهاب إلى سامح ومفاتحته في الأمر ولكن قلقي من رد فعل كمال كان يدفعني إلى العدول.

وسط كل هذا بدأت ألاحظ إلى أي حد صرت أتعامل مع كمال بحساسية مفرطة، مجموعة الخطوات التي اتخذتها تجاهه أصبحت كنزا أخشى أن يقع ما يفقدني إياه، لم أصل إليه بالكامل ولم أخط بقدمي باتجاه مرحلة الانصهار المرجوة، لكنها على الأقل وبمقارنتها بالأيام الخوالي، تقدم ملحوظ نحو استعادة البراح من جديد.

ينشغل سامح بكتابة السيناريو المراد تصويره وتنقل لي ماهيتاب تفاصيل ما يدور بينهما من لقاءات، بدأت أشعر أن ماهيتاب في طريقها فعلا للتحرر من القيود التي ترسف بداخلها، ملامحها بدأت في التفتح وكأنها وجدت طيفا مضيئا وسط العتمة المفزعة، سعدت لحالها واكتأبت لحالي، وإن قررت أن أعتبر ما تمر به ماهيتاب لا يخلو من ضوء في حياتي، مصير من حولك قد يعدل من مسار حكايتك، هكذا قلت ممنية النفس أن يكون الفيلم خطوة كبرى في اتجاه كمال.

* * *

يقف كمال أمام الكاميرا لينهي لقطاته الارتجالية في الفيلم، ملامحه هادئة وبدا لي أن التجربة بدأت تزيح من داخله بعضا من ورم اللامبالاة

fb/mashro3pdf

والاكتئاب، أحيانا تعد التجارب البسيطة غير المرتب لها أقصر الطرق للوصول إلى النفس، تتمادي النفس في الانزواء وتتلاعب بنا، ونعيش العمر كله في محاولات ترويضها والتعاطي معها، ونفشل!

يوجهه سامح للوقوف إلى نقطة بعينها، ويشير له إلى المكان المراد النظر إليه، وراء الكاميرا وقفت أنا بجوار سامح وماهيتاب من أجل أن أصل إلى أفضل مجال للرؤية، هل الصدفة فقط هي التي وضعتني عند ذات النقطة التي سينظر إليها كمال ملقيا ما في جعبته أم أن مشاعري هي التي دلتني إلى الطريق؟ إن كانتا فعلتا ذلك مجتمعتين فأنا مدينة لهما بالكثير.

ينظر كمال ناحيتي ويبدأ في ضبط نبرة صوته، وأفهم أنا أن ما سيقوله سيكون موجها إليّ أنا بالأساس، أعصابي ومشاعري تقف عند فتحتي أذني الآن في انتظار الحوار المنقول عبر الأثير، ويقول كمال:

ـ مين اللي قال ان الموت بيجي للإنسان مرة واحدة بس؟ ساعات سنين عمرك بتبقى عبارة عن تنقلات ما بين موت والتاني، وما بين كل نهاية ونهاية بتتولد جواك أفكار ومشاعر مختلفة عن الفترة اللي قبل النهاية الأخيرة، بس إن الموت الجديد يجي لك من اللي كنت بتظن إنه سبب فعلي في حياتك، الموازين كلها بتتقلب جواك وبتتمنى إنها تكون آخر موتة فعلية عشان ماتكونش مضطر تتعامل معاه في حياتك الجديدة، ويكون من تاني سبب في موتك الأخير.

تغيم الرؤية وينقبض قلبي، أتحسس أطرافي فأشعر ببرودة غريبة تكتنفها، الحقيقة تتراءى الآن أمام عيني بعد أن كان كمال يحاول حجبها، لكن هل كنت أظن أن الأمر غير ذلك؟ نظره الآن معلق عليّ ويبدو أنه اختار أن يخرج ما بداخله كاملا هنا والآن، يغمرني الارتباك وأحاول

fb/mashro3pdf

ا، أحول نظري عنه لكن عقلي لم يتمكن من إرسال أوامره إلى عيني، ، جمدت محدقة في ملامحه، قليلا ويقول سامح من وراء الكاميرا:

ـ طب مش ممكن تكون انت كمان ساعدت في إنه يموت؟ يمكن اللي .فكر انه سبب في موتك كان سبب في موته هو كمان.

ينظر كمال إلى سامح صامتا وتتسارع دقات قلبي، سامح تقمص شخصيتي الآن ويخرج على لسانه ما يموج بداخلي، أنظر إلى كمال متحفزة وأرى ارتباكه، قليلا ويرد:

ـ مش هقدر اقول لك لأ، بس كل اللي أقدر أأكدهولك إن الخطوة الأولى ماجاتش من عندي، إنت سألتني في مرة عمرك قبل كده جربت تنطط من منتج للتاني عشان يديك ميزانية تعمل بيها الفيلم اللي على مزاجك مش اللي على مزاجه هو... أنا بقى بسألك دلوقتي، عمرك جربت تتنقل ما بين وهم ووهم تاني وفي كل مرة تطلع مغفل وتفتكر إنه حقيقة؟!

ينقل كمال نظره من ناحية سامح إلى ناحيتي، سؤاله الأخير في وسط الصراع، وزر تم ضغطه من أجل استجلاب ذكرى أبت أن يكون لها قبر ترقد فيه إلى الأبد.

* * *

احتوتنا غرفتي بشقة باب اللوق لآخر مرة، وأجدني أتساءل الآن: ماذا لو كنت أعلم وقتها أنها ستكون المرة الأخيرة التي تجمعنا فيها غرفة واحدة ووهج واحد؟ بالتأكيد لم أكن لأقدم على ما أقدمت عليه.

كنت أسند رأسي على كتفه وكان هو يدخن سيجارة محدقا في السقف

fb/mashro3pdf

بعد أن نهلنا من الانصهار ما روئ بداخلنا بعضا من عطش، يحرك يديه على رأسي فأشعر بطمأنينة مفاجأة، أنظر إليه وأحاول أن أزن كلماتي جيدا قبل أن أقول:

- ما تيجي نتجوز.

ينظر ناحيتي وأحاول أن أقيس مدئ تأثير الجملة على ملامحه، يبتسم ابتسامة خفيفة ويقول:

- فكرت في الموضوع ده.

- وبعدين؟

- مش عارف، حاسس انه ممكن يعطلنا عن شغلنا في التنظيم.

فأقول بغضب استغربه:

- ملعون أبو التنظيم، المهم احنا.

- إنتي بتقولي إيه؟

- بقول لك اللي بينا ده هو اللي باقي، مش التنظيم.

- مش فاهم.

هل أخطأت بانفعالي فأثرت داخله حذرا متوقدا على الدوام؟ ينظر إليّ ويقول:

- إنتي مخبية إيه عليا؟

يزيد ارتباكي وأشعر بدنو الخطر، وأتساءل: هل خوفي من انغماسه الشديد في التنظيم كان دافعا لأن أفكر في مصارحته بالحقيقة، خوفا عليه

fb/mashro3pdf

.. المصير المحتوم؟ لقد كان التنظيم بالنسبة إلى كمال هو السبب الفعلي ام، دته إلى الحياة مرة أخرى، بعد أن آثر أن يعيش بعد خروجه من المعتقل ي النهام ما تبقى من أنفاسه انتظارا للموت، أعرف أن الحقيقة ستصل إليه عاجلا أو آجلا وكان كل ما أفكر فيه هو أن أجعل تراكم حماسته لماء التنظيم في أقل صورة، لتكون قدرته على التغلب على الصدمة أقل ، طأة، هل اخترت التوقيت الخاطئ؟ وهل عرض الزواج له علاقة أصلا بالتنظيم؟ هل خفت أن أفقده إلى الأبد بسبب تعلقه بالتنظيم فآثرت أن أقول له كل شيء؟ لم أكن أعرف، كل ما أعرفه أن لحظة الحقيقة دنت بأسرع مما توقعت، نظراته القوية تجاهي تزيد من وطأة التوتر على أعصابي، عليّ أن أترك الغرفة الآن.

أعدل من ثيابي وأتحرك للخروج من الغرفة لكن جسده يحول بيني وبين ما أريد، لقد تأكد أن هناك ما يخفى عليه ولن يتركني حتى أبوح، والبوح هنا تناجه بمجهول، لكنه المصير.

يقول لي وهو يمسك معصمي بقوة:

- مش هتخرجي من هنا من غير ما تقوليلي إنتي مخبية إيه جواكي.

- مش مخبية.

- لو فيه حاجة لازم اعرفها يا سلمى قوليها دلوقتي، لأني لو عرفتها في وقت تاني ماتعرفيش ممكن رد فعلي يكون عامل ازاي.

قلت له كل شيء، الحقيقة الموجعة التي خفت عليه من مصيره بسببها فدفعته إليه، القطة تشعر بالذعر على أبنائها فتأكلهم ظنا منها أنها بذلك تخلق لهم الحماية. كثير من الحماقة وبعض من الازدواج.

fb/mashro3pdf

أقول له وأنا أنظر في الأرض:

ـ مافيش تنظيم.

ـ يعني إيه؟

ينظر لي ويجتاحه الغضب، تحولت ملامحه فجأة ولم تشفع لي ثنايا وجهي التي أخذت في الشحوب خوفا عليه، ومنه، جملة واحدة أفهمته كل شيء فهل كان يشعر بالحقيقة؟ صفعته على وجهي كانت زلزالا أشعر بوطأته حتى اليوم، لم يكن الألم الظاهري هو الدافع بقدر ما كان الألم المستوطن في الداخل، اليوم قلت له الحقيقة واليوم سوف أخسره، ربما إلى الأبد.

يندفع كمال خارج الغرفة ويتجه ناحية غرفة عصام، يدخل ويغلق الباب دونهما، تخرج شيرين وخلفها محمود ليفهما ما يحدث فيصطدما بملامحي التي كانت جديرة بنقل الصورة تماما، وتقول شيرين:

ـ أنا حذرتك يا سلمى، حذرتك وماسمعتيش الكلام.

الجحيم يدور في غرفة عصام الآن، كان عصام يعرف أن تلك اللحظة سوف تأتي في أي وقت، معرفته الجيدة بكمال كانت تزيد من تخوفه من دنو تلك اللحظة، لكنه كان يضع في حساباته بعضا من المبررات التي قد يسوقها إلى صاحبه عله يقتنع بالأمر... هراء!

كان من الصعب على كمال أن يفهم أن قوما من اليائسين، لا حياة لهم من دون وهم يخلق لهم واقعا من ورق، بعد أن فقدوا آخر أمل في الحقيقة المجردة، افتعال وجود تنظيم ننفث فيه بعضا من الطاقات المحبطة داخلنا، كان طريقا واحدا ووحيدا من أجل بعض من هواء أبى أن يجيء،

fb/mashro3pdf

شقة باب اللوق كانت مكانا يحاول تغيير الواقع بالخيال وتوظيف الخيال مكان الواقع، لا وجود للأستاذ ولا لمجموعات أخرى، فقط مجموعة من الملفات التي تحتوي على معلومات لا وجود لها على أرض الواقع، ومهمات نحيطها بالسرية لم تحدث وليس لها علاقة بأي حقيقة، ألم دائم لا يتسرب، وأتساءل الآن، وهم حاضرا أم حقيقة غائبة؟ أنت فقط من يحدد الإجابة.

* * *

يأتي دوري أمام الكاميرا فأقرر أن أكمل حديثي مع كمال من خلاله، أعصابي متوترة جدا وأنا أشعر أن كمال ينتظر أن يسمع مني مثلما فعلت معه، قلت:

ـ الحياة أقصر من إننا نضيعها في توصيف أي حاجة بنمر بيها، حقيقة ولا وهم المهم النتيجة الفعلية اللي هنوصل لها، تفتكروا الناس اللي بتملى الشوارع أيام العيد بيبقوا مقتنعين فعلا انهم بيحتفلوا بفرحة العيد؟! ده جزء من وهم بيحاولوا يعيشوه عشان ماعندهمش غيره، الاحتمالات أقل من إنك تدور غير على وسيلة تخليك تكمل حياتك، هو بيقتنع إن خروجه ده بيسليه أو يخليه مبسوط، بينسيه شوية الوجع المعشش جواه، ده وهم، بس بيخليه يكمل حياته.

كمال يفكر في ما أقول، ماهيتاب تلاحظ نظري المعلق على كمال وأرى ابتسامتها، وأكمل:

ـ أسوأ حاجة إن البني آدم اللي بتحبه يحس إنك كنت سبب في موته، وإنه يكون مش عايز يفهم إن تصرفاتك اللي هو شايفها قتله، كنت انت بتعملها عشان يعيش، تزيح عنه وجع مش عايز يسيبه، إنت مش بتوهمه

fb/mashro3pdf

بشيء عشان عايز تإذيه... إنت بتديله بديل عشان يقدر يكمل حياته.

أقول الجملة الأخيرة وأخرج من غرفة الاستماع ركضا إلى غرفتي، لم تتحمل أعصابي أكثر، حاولت فقط أن أصرخ بكل ما بداخلي عله يشفيني من ألم لا يزول، أدلف إلى غرفتي وأتساءل عن أثر ما قلت على كمال، هل بدأت الآثار العالقة داخله في الانحسار أم أن الأمل صار معدوما؟! احتمالات عدة ولا إجابة واحدة تشفيك من الكآبة المسيطرة، دوامة قاسية لا تبرح مكانها وكأنها القدر.

أجلس على السرير وتتداعى باقي الأحداث على ذهني، منذ أن عرف كمال الحقيقة وحتى محاولة الانتحار ودخوله المصحة.

وقتها تلقفه الألم من جديد وبدأ يتحرك بآلية ناحية المجهول من دون هدى أو تفكير في المصير، وأتساءل: لو لم يكن عصام قد قابل كمال يوما ما في باب اللوق، فأي مصير كان سيلقاه وقتها؟! وماذا عن مصيري أنا؟! لا إجابات.

بعد معرفة كمال بالحقيقة بنحو أسبوعين، وجدناه يدلف إلى شقة باب اللوق وسط نظرات الدهشة والقلق، أنظر ناحيته ويعتصرني الألم، يتجه ناحية أقرب مقعد له ويجلس، يبتسم ابتسامة خفيفة ويقول:

ـ هنعمل إيه في قضية شركة أبو الريش؟

حاول كمال أن ينخرط في الوهم فدفعه دفعا إلى الانتحار، كان يحاول أن يجارينا في ما اقتنعنا به لكنه فشل تماما، وقتها كان يعاملني بصورة عادية كزملاء فقط في التنظيم، لم يثر موضوع معرفته بالحقيقة وكأنه نسيه، ولم يحاول أن يجتمع بي في غرفتي وكأن الزمن قد عاد إلى ما قبل رحلاتنا مع الانصهار، لم أتوقع رد فعله هذا، كنت أظن أن اختفاءه بعد

fb/mashro3pdf

أن عرف الحقيقة قد باعد بيني وبينه إلى الأبد، اختفى لأسبوعين وعاد وكأنه محا من ذاكرته كل ما حدث.

بعد يومين من محاولته مع الأوهام، وجدناه ملقى في الحمام بعد أن قطع شرايينه بموسي الحلاقة.

يتوقف سيل الذكرى وأسمع نحيب البكاء الصادر من صدري، أتحرك في الغرفة ويتعمق إحساس المرارة داخلي، ألا لعنة الله على الذكرى والكوابيس المحيطة، دقائق وأسمع طرقا على الباب، أتجه وأفتح فأجد كمال واقفا أمامي.

* * *

fb/mashro3pdf

(٥)

دلف إلى غرفتي صامتا، ولم أتفوه أنا بأي كلمة.

جلسنا متجاورين على طرف السرير وأخذنا ننظر إلى البراح من حولنا، الصورة من الخارج تقول إن ثمة شخصين لم يجدا من أطراف الحديث ما يدعوهما إلى الكلام فغلبهما الصمت، لكن الحقيقة أن ما دار بيننا في تلك اللحظات الصامتة كان أكثر بلاغة من ألفي جملة حوارية يتضمنها مشهد طويل، ربما تكون تلك الكيمياء الغريبة التي بيني وكمال هي الدافع الحقيقي إلى اجتيازنا جمع الخطوط الحمراء في علاقة بين شاب وفتاة، بل ربما تكون هي الدافع الحقيقي وراء قراري ادعاء الانتحار بما فيه من أخطار، فقط من أجل أن أكون بالقرب منه.

أو أنها على الأرجح، قد تكون السبب الفعلي وراء محاولة كمال أن ينسى كل ما حدث، وأن يبدأ معي من جديد على الرغم من وطأة الألم الذي يرتع بأريحية داخله.

تساءلت عن مدى تأثير الجملة التي ألقيتها أمام الكاميرا عليه، وعن

fb/mashro3pdf

علاقتها بوجوده معي في غرفتي الآن، المشكلة في كمال أنه دائما ما ينتظر حتى تصل الأزمة إلى ذروتها، قبل أن يتحرك فعليا للتصرف إزاءها، هل انتظر كمال كل هذا الوقت منذ أن وطأت أقدامي أرض المصحة، ومحاولاتي المتكررة لأن أفتح معه الحديث وفي داخله رغبة حقيقية في أن يسمعني وأن يحتويني، ولم تحن تلك اللحظة بالنسبة إليه إلا بعد أن سمع مني وسمعت منه؟! فيلم ممل تدفعك إلى الاستمرار في مشاهدته معرفتك اليقينية بأن نهايته سوف تقلب الموازين بالنسبة إليك، تنتظر وتستمر وتخرج من قاعة العرض وقد شعرت بالسعادة لأنك لم تقرر الخروج قبل أن تصل إلى النهاية العبقرية للفيلم.

يطول الصمت ويأخذ الأمر بهدوء في مرحلة الانحسار.

يتحرك كمال ويقف أمام نافذة الغرفة وأعرف أنا أن مرحلة الصمت قد انتهت، أتحرك ناحيته وأقف بجواره تماما، أترك أصابعي تنساب بأريحية بين أصابعه وتتوحد أعصابنا المتوترة، ندخل في مرحلة صامتة جديدة لكنها لم تطل، يستدير ناحيتي وأشعر بوهج شفاهنا المنصهرة في تفاصيل المعادلة الجديدة، أغمض عيني وأتوه في تفاصيله التي غابت عني خلال السنوات العجاف، موسم الحصاد قد بدأ بعد أن تكفلت الأمطار الغزيرة في تلقيح تربة بائرة، واهبة إياها قبلة الحياة، قبل أن يغمرها موت نهائي لا خلاص منه، يحتضنني وأشعر بوطأة الأنفاس الملتهبة الخارجة من صدورنا والتي تكفلت بزيادة سخونة الأجواء، تغيم الدنيا من حولي وأشعر أننا غبنا عن المكان وضاع منا الزمان، لم يكن الدافع إلى كل هذا رغبتنا المتوهجة والتي تكفلت الأيام الماضية بعد الصدمة في كبتها، لكنها كانت ببساطة هي الوسيلة الوحيدة للشعور أننا ما زلنا نتحرك فعليا على ظهر هذا الكوكب، وأننا لم ننزو بعد.

fb/mashro3pdf

ووسط لحظات البكاء المتبادلة بدا أننا وقعنا عقدا جديدا سوف يجدد إطار العلاقة العائدة من عصر الظلام، لا عودة للوراء ولا حديث عما جرى، لا ذكرى صادمة ولا ألم ينهش الصدور، فقط نحن هنا والآن، ووسط حالة البهجة التي كفلها لي العقد الجديد، طافت بي سحابة من الكآبة بعد أن تساءلت عن ردة فعل كمال الجديدة ناحيتي، هل يشبه قراره هذا عودته إلى التنظيم بعد أن عرف الحقيقة؟ بعد أن عرف أن ما نفعله لا وجود له على أرض الواقع لكنه آثر التعايش معه كبديل عن الموت؟! كمال لم يستطع أن يكمل معنا وآثر الانتحار لإنهاء المعاناة، فهل يفعل معي المثل؟! أسئلة عدة تحوم في رأسي لكنني آثرت أن أطردها على أمل أن يكون ما بيني وبينه أقوى مما كان بينه وبين التنظيم، تنزوي الكآبة إلى حين وأشرع في التهام بعض من سعادة كانت غائبة داخل الغرفة المظلمة.

أقول لنفسي، كمال عاد ولن يغيب مرة أخرى، الصورة الممزقة عادت من جديد إلى التوحد، روح واحدة وإطار واحد ورغبة متدفقة وجدت لها في الخلق الجديد وسيلة كبرى في التهام سنين العمر وسط ضوء النهار، ينزوي الظلام، وتنصهر الأوصال من جديد.

* * *

ينتهي سامح من الفيلم، وأعترف أن تلك التجربة كان لها الأثر الأكبر في حياتي.

كنت أتابع مع ماهيتاب آخر التطورات، ليس فقط بخصوص الفيلم ولكن بخصوص علاقتها بسامح، والتي بدأت أظن أنها قررت أن تتوغل فيها حتى يتراءى لها المصير، حالتها النفسية كانت تُظهر تماما قدر التغيير

fb/mashro3pdf

الذي اكتنفها، فسعدت للحالة الجديدة التي أخرجتها ولو إلى حين من طور الكآبة وتفاصيل الظلام.

في العرض الأول للفيلم جلست بجوار كمال في انتظار أن تتوالى الصور أمام أنظارنا، سامح يجاور ماهيتاب والسيوفي يجاور فريدة وقد بدا أن هناك علاقات بدأت تنشأ على الرغم من الظلام المحيط والكآبة المسيطرة، توفيق يتوحد نظره مع الشاشة انتظارا للحظة العرض، وعبد السلام ينقل نظره إلى ملامح أفراد المجموعة وأرى في عينيه نظرة ظفر وإحساسا بالانتصار.

حضر الفيلم كل من تحتويهم المصحة من مرضى وأطباء وحتى مدير المصحة الذي لا نراه كثيرا، تجربة جديدة ربما لم تطأ أروقة المصحة من قبل، وجمع من البشر كان للكآبة دور كبير في رحلتهم مع الحياة، حكايات متعددة ومصير واحد، معطيات مختلفة ونتيجة ثابتة لا تتغير.

تركض الصور أمام عيني فتزداد مساحة الابتسام من حولي، نصل إلى لقطة الحوار المتبادل بيني وبين كمال فيأسرني سامح بقدرته على تحويل لحظة هامة إلى حكاية متكاملة الأطراف، صنع خلال مرحلة المونتاج قطعا متوازيا بين كلامي وكلام كمال فبدا وكأننا كنا نجري حوارا ممتدا، لا لقطات متفرقة لشخصين لا يعرف من حولهما تفاصيل الحكاية التي جمعتهما يوما ما، سامح استطاع من دون أن يدري أن يوحد الصورة التي كانت ممزقه، وأن يضعها في إطار جمالي لم أتوقع أن يصل إليه، حتى كمال نفسه بدت على ملامحه الدهشة، بعد أن كان يظن أن سامح مجرد صنايعي آخر لا يأبه بالفن بقدر ما يأبه بما يكفله له من ثروة سريعة، مستخدما عبر أفلامه الضعيفة تجميعة ثابتة للعنف والجنس والإفيهات

fb/mashro3pdf

السخيفة الساذجة، وبدا لي أن سامح قد وجد نفسه في تلك التجربة بعد أن استطاع أن يتخلص من وطأة التجارب المبتذلة التي كان أسيرا لها أو ضحية، أتبادل النظرات مع كمال ويبدو أننا نفكر في الأمر نفسه في ذات الوقت.

ينتهي شريط الفيلم وتتعاظم صيحات الإعجاب من حولي، سامح في أسعد أوقاته الآن، ماهيتاب تتحرك في اتجاهه وتعترف له بحبها، فأعرف أنها اتخذت القرار ولن تتراجع عنه مرة أخرى، تخلصت من الأمر وبدأت تتحرك ناحية مرحلة جديدة للانصهار مع أحدهم، تتشابك يدي في يد كمال ونتبادل نظرات تفوح منها رائحة السعادة للمرة الأولى منذ وقت طويل، يتحرك كمال ناحية سامح ويحتضنه وكأنه يعتذر عما بدر منه في السابق، فتكفل ردة فعل كمال بزيادة مساحة السعادة على ملامح سامح، تجتمع المجموعة في كادر واحد ونتبادل النظرات التي كان لها أثر في تخلص بعضنا من أمواج الوجع والتشتت في الداخل.

الخلاصة أننا نتحرك جميعا إلى الأمام، بعد أن كان كل همنا أن نتحرك في نفس الموضع، أو أن نرجع فقط إلى الخلف!

* * *

في الحفل الذي تكفل توفيق بإقامته بعد أن شعر بتعاظم الاحتفاء بأدائه في الفيلم، جمعتني رقصة طويلة مع كمال، تتلامس الصدور ونتقاسم ضربات القلب السريعة، وكأنها جزء من الموسيقى التي نتراقص عليها الآن، نتبادل النظرات وتتوحد المشاعر، وأقول له وأنا أشعر بأن أقدامنا تطأ أديما من المروج الخضراء العامرة بالألوان:

fb/mashro3pdf

ـ أنا عايزة منك تعويض عن كل لحظة قضيتها وانا حاسه ان مبقاش ليا دور في الحدوتة بتاعتك.

ـ وليه تعويض؟ إنتي فعلا مالكيش دور في الحدوتة بتاعتي.

أنظر إليه بدهشة فيزيحها هو بقوله:

ـ إنتي الحدوتة نفسها، مش مجرد دور فيها.

يبتسم قلبي وأزيد من التصاقي به، نهر من العسل لقوم لم يذوقوا الحلاوة أبدا! أقول:

ـ وقبل ما آجي لك المصحة؟

ـ كنت شايفك كويس من هنا، وكنت متطمن.

ـ عشان كده ماحستش انك مهتم تعرف أنا جيت هنا ليه؟

ـ عشان كنت عارف، إنتي فاكرة انك ممكن تحاولي تنتحري بجد من غير ما احس؟!

ـ ولو كنت حسيت إني عملت كده بجد؟

ـ متهيألي كنت انا أول حد هيوصل لك مكان الانتحار.

أضع رأسي على صدره وأغيب عما يدور من حولي، أتمنى أن يتوقف الزمن عند هذه اللقطة بالذات، فقط أعبق صدري برائحته وأطرب أذني بصوت تنفسه المستمر، قليلا وأقول له:

ـ تفتكر ممكن الدنيا تدينا كل البهجة دي فجأة؟

ـ هي مش بتدينا، إحنا اللي بنجبرها تعمل كده.

fb/mashro3pdf

ـ ولو وقفت قدامنا؟

ـ هندور على البهجة في مكان تاني غيرها.

نتبادل النظرات، وننهل من نهر العسل بعد أن كانت المرارة عالقة في حلوقنا وكأنها المصير.

* * *

fb/mashro3pdf

(٦)

صدق حدسي وبدا أن الحياة لا يمكن أبدا أن تكون مصدرا للبهجة، وأقول لنفسي إنها ليست جديرة إلا بأن تكون آلية فعالة لتوطين الألم والكآبة أكثر بداخلنا، ينزاح أثر الحلاوة الضئيل ولا يبقى إلا أثر المرارة في حلوق أعياها تقاطر الألم.

البداية كانت عند فريدة، انتحرت فجأة، ثم توالى الوجع وكأنه المصير، فطال ماهيتاب ثم سامح، قدر لا يريد أن ينشغل عنا ولو لبعض الوقت، الهستيريا المحيطة كانت دافعا إلى مزيد من الهستيريا الداخلية وكأننا أصبحنا مساحة ممتازة لتجارب عنوانها كيف تقتل إنسانا ويظل حيا! أرى في عين كمال انعكاسا لما تحتويه عيناي، خوف وتوتر يجاوران الرغبة في فهم ما يدور، أنت لا تريد أن تفهم من أجل أن ترتب خطواتك التالية في الحياة، بقدر ما تريد أن تتوقع مصيرك المحتوم فتستعد له لكي يهزمك بسهولة.

أبصر السيوفي وقد بدا أنه توغل حتى الثمالة في حالة من الجنون،

fb/mashro3pdf

أتساءل عن مدى تعلقه بفريدة لدرجة أن تموت بموتها مساحات كبرى بداخله بهذه الصورة، حتى سامح عرفنا أنه لم يطق أن يظل واقفا على ذات الأرض التي لفظت ماهيتاب فجأة ومن دون سبب حقيقي أو معلومات تقودنا إلى الحقيقة المجردة فارتاح لقراره الأخير، توفيق بدا أنه استعاد ذكريات كان يحاول عبر انسجامه مع المجموعة أن يتخلص منها، فتأكد أنها عالقة إلى الأبد، عبد السلام الذي كان ينظر إلى المجموعة بشعور النصر الذي لا أعرف سببه، بدا الآن أنه يرزح بأريحية في أتون من الهزيمة، يستدعونا للتحقيق فلا يصلوا ولا نصل إلى بر ينتشلنا من حالة الضياع الحتمية، يتعاظم الألم وتتوطن الكآبة، إنها الهستيريا المجنونة حينما تغتصب أوصالا لم تعد تملك القدرة على تحمل الحياة بصورتها الطبيعية، فما بالك بتفاصيل الغرابة التي تحتوينا؟!

رائحة الدم تزكمني وتطبق على صدري وكأنها تدلني إلى المصير، الخوف من الوحدة يجاور الرغبة في الهروب، أغلق باب غرفتي فيغلبني الخوف، أتلفت حولي وكأنني أشعر بالقدر يحوم، الظلال المفزعة والأصوات الغامضة وأعصاب ترقد في سلام بقبرها هناك، لم أستطع أن أنام، شعور أن الموت سوف يدق بابك فجأة فتصير مجرد اسم آخر في لائحة قوم فارقوا الحياة مخلفين وراءهم غموضا لا ينزاح وحقيقة لم يعرفها سواهم، أتحرك في الغرفة بتوتر وأقرر أنني لن أقضي ليلتي في تلك الغرفة اللعينة، سوف أذهب إلى كمال وأنام بين ذراعيه، هذه وسيلة جيدة لانتظار الموت، وطريقة وحيدة تجعل من تقبلي لنهاية الحياة احتمالا قائما، لم أستطع أن أحيا من دون كمال، ولن أموت إلا بعد أن أتأكد أنه وحده سيكون الصورة الأخيرة التي أغلق عيني عليها ترقبا لما ينتظرني هناك على الناحية الأخرى من الحياة.

* * *

fb/mashro3pdf

تم العثور على هذه المذكرات في غرفة المريضة المتوفاة/ سلمى صبحي وتم قراءتها بواسطتي، ولاحظت من نهاية المذكرات أنها أنهت كتابتها قبل الذهاب مباشرة إلى غرفة المريض/ كمال مندور حيث تمت عملية القتل بالتفاصيل المرفقة بالتقرير الأولي، مع ملاحظة أنه لم يتم العثور على أي مذكرات مشابهة في غرفة كمال مندور.

على أن يتم تقديم تلك المذكرات إلى الإدارة لعمل اللازم.

طبيب/ فؤاد ذهني

fb/mashro3pdf

كشف بيان الحالة/ تقرير أولي

الاسم: رشدي السيوفي

تاريخ الميلاد: ١١ مارس ١٩٥٦

العنوان: ١٥ ميدان المساحة ـ الدقي ـ الجيزة

المهنة: رجل أعمال

ملاحظات: ورد المريض الينا بواسطة صديقه/ نائل مصطفى بعد محاولة انتحار ناتجة عن حالة اكتئاب حادة.

التشخيص المبدئي: حالة اكتئاب حادة تمت السيطرة اللحظية عليها بواسطة المهدئات الكبرى مع انتظار نتيجة التحاليل التي ستؤكد أو تنفي تعاطي المريض للمخدرات.

طبيب/ فؤاد ذهني

fb/mashro3pdf

رشدي السيوفي

(١)

أكتب إليك يا فريدة هذه الأوراق وأنا أرى صورتك الأخيرة حاضرة أمامي تملأ الفراغ من حولي.

أنت فقط من له الحق في قراءة كل هذا، وأتمنى الا يقحم أحدهم نفسه يوما ويقرأ هذه الكلمات، فلتعتبريها شفرة سرية بيني وبينك، محاولة لاقتناص لحظات ابت أن يكون لها مكان على الأرض، أو طريقة للشروع في تكملة علاقة أوقفها الزمن بحسن نية من ناحيتنا، وسوء نية من ناحيته.

لقد باعد بيني وبينك الموت ولم أتمكن من أن أنقل لك صورتي الحقيقية بلا رتوش أو تفصيلات تُغيب الحقيقة المجردة، اليوم أظن أن من حقك أن تعرفيها عسى أن يجمعنا ذات المكان في وقت قريب فتخبريني قرارك الأخير تجاه طلبي.

fb/mashro3pdf

تطوفين بأحلامي يا فريدة كل ليلة، لكنك في كل مرة لا تخبريني قرارك الأخير بشأن ارتباطنا، ولم ألمح أنك قد عرفتِ حقيقتي كما يجب، وأظن أنه سبب في ترددك المستمر، في هذه الأوراق سأنقل إليك كل شيء، عسى أن يساعد هذا في قرارك الذي ما زلت انتظره حتى وإن لم يعد ذات المكان الذي تطأه أقدامي يحتويكِ، أكتب إليك يا فريدة وجملتك الأخيرة عالقة في ذهني لا تبرح مكانها أبدا، لسانك لم ينطق بالكثير يومها لكن نظراتك تجاهي فعلت المطلوب.

أنت تعرفين أن عبد السلام كان قد ألح علي أن أشرع في كتابة مذكراتي ولم يصله مني إلا المزيد من التقريع والسخرية، وقتها لم أكن أهتم بما يقول، لم أكن أشعر برغبة ملحة في البوح، وأجدني أتساءل الآن: ماذا كان سيتغير في الحكاية إن كنت قد فكرت مليا في طلب عبد السلام وبدأت في كتابة أوراقي؟ هل كان هذا سيدفعني إلى أن أقول لك حقيقتي كاملة من دون مواراة أو قلق من المصير؟! تفصيلة صغيرة قد تتكفل باختلاف المعطيات وصولا إلى نتائج مغايرة، لا أعرف يا فريدة، كل ما أعرفه أنني أشعر أن آخر شيء سوف أفعله في حياتي التي بدت لي قصيرة جدا وسريعة جدا هو أن أقص عليك تفاصيل ما غاب عنك، عسى أن يشفع لي هذا في ما أرنو إليه أو يصل بي إلى مرحلة التطهر الغائبة.

تذكرين يا فريدة بعد انتهاء الحفل الذي أقامه توفيق بعد عرض الفيلم، يوم أن ذهبت إليك في غرفتك محاولا أن أقتنص منك ردا صريحا على طلبي إليك بالزواج، يومها كان ارتباكك لا حدود له، خبرتي تقول إن هذا الارتباك ما هو إلا رغبة تحاولين سترها حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا، لكنك كنت عنيفة معي إلى أقصى درجة، أحيانا تكون حاجتنا الملحة سببا أكثر قوة للرفض العنيف، نحيط احتياجاتنا بالعنف حتى

fb/mashro3pdf

لا نفضحها صدورنا، نؤجل الحاجة فيسبقنا إليها الموت.

يومها طرقت بابك وقد شعرت أنك هناك بانتظاري، باب غرفتك ،مصلني عنك وأنا الذي بدأت أكره الفواصل ما بيننا، حاجتي إليك ،دفعني من أجل أن ألبي حاجتك المكبوتة، وسيلتنا الوحيدة للتخلص من الألم تبدأ حينما نشرع في مزج آلامنا بآلام الغير، نستعذب الألم أولا، نتطهر، ثم ننتصر عليه بعد ذلك!

تفتحين لي الباب يا فريدة ونتبادل النظرات في صمت، صدورنا تملأها الرغبة وأطرافنا عاجزة عن تحقيقها، يطول الصمت وألمح في عينيك إجابات عدة على أسئلة منقرضة، أدلف إلى غرفتك ولا تمانعين، ينغلق الباب وأشعر أن أرواحنا تطوف هائمة في الفراغ.

أخذت نظراتك تهرب مني، محاولة للخروج من القيود بأن نرسف في قيود أكثر قسوة، اتجهت ناحيتك وعلقت نظري فيك، نظراتك تحاول معاودة الهروب لكن إصراري كان عظيما، يطول الصمت إلا من صوت أنفاسنا الملتهبة والمرتعشة الخارجة من صدور ألهبها الضيم والرغبة المنزوية، وقتها قلت لك:

ـ إيه سبب التردد ده كله يا فريدة؟

قلتها لاعنا التردد فزاد ترسبه على ملامحك، لم تجيبي على السؤال، لكن عينيك فعلتا، أحاول تخيل تاريخ مأساتك التي كنت تحيطينها بأسوار مرتفعة حتى عني أنا، قليلا وأقول لك:

ـ طب التردد ده أنا سببه ولا فيه سبب تاني؟

تشيحين بوجهك عني، وأحاول أن أطرد عن ذهني الفكرة التي

fb/mashro3pdf

سيطرت علي وقتها بأنك ترفضيني لشخصي وليس لأسباب أخرى، أقف أمامك مباشرة وأقول:

- إجابة واحدة يا فريدة عشان أقدر أقفل الصفحة دي، أنا السبب ولا فيه حاجة تانية؟

نظرت تجاهي وفي عينيك جواب بالنفي، أضع يدي على وجهك وأشعر باضطراب أنفاسك حينما بدا أنك انتفضت من ملمسي، قليلا وتقولين:

- مش انت السبب يا رشدي، أنا وصلت لمرحلة ان أي حاجة عايزاها بتموت.

- مش فاهم.

- مش مهم تفهم، بس عايزاك تتأكد اني مش رافضاك، أنا خايفة.

- قولي لي على اللي مخوفك وسيبيني أنا أتصرف.

- تفتكر تقدر؟

- على الأقل هحاول، بس أحس انك بتشركيني معاكي في أزمتك.

تنظرين تجاهي وكأنك تحاولين التأكد من صدق ما أقول، ما الذي وقع في حياتك يا فريدة، لتفقدي الثقة في كل من حولك بهذا الشكل؟! وتقولين:

- خايفة حتى أصدق ده.

وقتها لم أطق انتظارا، اقتربت منك حتى لفحت أنفاسي ملامحك

fb/mashro3pdf

المتوترة، وغبت معك في قبلة حملت كل العذابات والاضطرابات التي تغمرنا معا، أتذكرين تلك اللحظة يا فريدة؟ وقتها شعرت بك وأنت تذوبين معي وخلالي، نطأ معا أديما واحدا ولا نلتفت إلى الوراء، يتلاشى كل شيء ولا يبقى سوانا، فقط نحن ودوننا السراب، لم أكن أعرف وقتها أننا كنا جثتين تحاولان العودة مرة أخرى إلى الحياة فلفظتهم، ولم أكن أشعر أن تلك اللحظة سوف تكون لقطة «فينالة» في فيلم لم يبدأ بعد، لا صوت لموسيقى تصويرية إلا فحيح أنفاسنا وضربات القلب المتسارعة، زاوية واحدة لكاميرا لا وجود لها من أجل توثيق مشهد لم يطل، فجأة وجدتك تنتفضين فزعا وكأنك اكتشفتِ فجأة أنك هنا، تضعين كفك على جبهتك وكأنك تتساءلين عن معنى الخطيئة وكيف تبدئ أمامنا فجأة، تعطيني ظهرك محاولة أن تمسحي آثارا عالقة على ملامحك، غبتِ عني يا فريدة لكني كنت أشعر بك، كنت أرى أطياف الصراع الدائر داخلك وقتها، لكن من دون أن أفهمه، فقط حاولت أن أخطو بك نحو الطريق الذي تترددين في أن تطأيه بقدميك، واكتشفت أن طريقا مظلما لا تصلح معه شمعة واحدة، وحقلا واسعا مترامي الأطراف لن تشفع له بضعة قطرات من الماء العذب.

يومها كنت أود أن أبوح لك بكل شيء، أن أضع أمامك صورتي بكامل تفاصيلها انتظارا لقرارك النهائي، لكن حالتك النفسية وقفت حائلا دون ذلك، طال الصمت بيننا وكنت أشعر أنك غائبة في تفاصيل مترامية، أنت لم تعودي هنا الآن، فلم كل هذا العذاب؟! وكأنك تتساءلين عن البداية والمصير، وسنين العمر أقصر يا فريدة من أن نستنزفها في كآبة لا طائل من ورائها، اتجهت ناحيتك محاولا أن أنهي ما تعانيه، وقلت لك:

fb/mashro3pdf

ـ شيلي العند من جواكي، دلوقتي حالا نتجوز.

تجلسين على طرف السرير وتضعين وجهك بين كفيك وتغيبي عن المحيط، تغمرني الحيرة ولا أفهم طبيعة ما تعانيه، هناك أزمات من السهل تفهمها على الرغم من قناعتنا بكونها أضعف من أن تقتل داخلنا مساحات البهجة المطلوبة، لكن أزمتك كانت عصية على فهمي بصورة مدهشة، لاحظي أن حالتك النفسية خلال الحفل كانت ممتازة واستطعت أن أرئ في ملامحك ألوانا من السعادة الغائبة فما الذي جد؟! ما الذي وقع في المسافة ما بين رقصتنا معا ووجودك في غرفتك؟ مسافة ضئيلة وكآبة مسيطرة، وأتساءل: هل تذكرتِ بعضا مما تحاولين نسيانه؟ أم أن الأزمة في النسيان بالأساس؟ أسوأ ما في الموقف أنني على يقين بأنك تملكين إجابات على أسئلة لا تنتهي، لكنك تأبين أن تناوليني مفتاح اللغز، أقف ناظرا إليك في انتظار أي بادرة يمكن أن تساعدني في فهم ما يدور، أجلس جوارك وأقول:

ـ مش ممكن اللي انتي فيه ده.

تحركتِ بعصبية يا فريدة، غضب تكاثف أمام عينيك وبدا أنك قررت أن تطئي بقدميك أديم البوح، وتقولي:

ـ عشان الدنيا مش بتديني حاجة إلا عشان تاخدها مني، كل حاجة حصلت لي انتهت قبل ما تبدأ، كل حاجة افتكرت انها هتعوضني عن وحدتي كانت سبب في زيادة الوحدة دي، افهم بقى.

أنظر إليك يا فريدة وأبدأ في تخيل تاريخ الصراع، وتقولين:

ـ مش سهل إنك كل ما تقرب، تحصل حاجة ترجعك تاني أسوأ مما كنت... يمكن ده اللي واقف بيني وبينك يا رشدي.

fb/mashro3pdf

تحركت ناحيتك وكنت أود أن آخذك بين ذراعيّ، فقط من أجل ان ألمح بعض الهدوء والاطمئنان يغمرك، لكنك منعتِني وقلتِ قولك الفصل:

- أنا بحبك يا رشدي، عشان كده عايزاك تسيبني لوحدي دلوقتي، استحملني شوية معلش.

جملة واحدة أنهت كل شيء، ومحاولة أخرى للهروب في وقت كنا نظن أننا وصلنا إلى الحافة معا، بدأ يصلني بعض مما تعانينه فآثرت أن أتركك تأخذين وقتك في عملية انحسار الألم، لكن الموت كان قد بدأ خطواته ناحيتك منهيا المعادلة قبل أن تبدأ.

خرجت من غرفتك تتلقفني حالة من الصمت، وأكثر ما كان مؤلما بالنسبة إليّ وقتها أنني لم أتمكن من أن أبوح لك بكل شيء، اصطدمت بزغلول الممرض واقفا أمام باب غرفتك فدُهشت، ما الذي جاء به إلى هنا؟ نظراته ناحيتي تفوح منها رائحة الغيرة فهل كان يعلق آماله عليك يا فريدة؟ موقف يدعو للسخرية لكن حالتي النفسية وقفت حائلا دون ذلك، دخلت غرفتي وقلت لنفسي إن أوان التطهر لم يحن بعد.

* * *

الآن أظن أن أوان التطهر قد حان، لا أعرف كيف سيصل إليك اعترافي هذا، لكنني موقن بأنه سيفعل حتما.

* * *

حقيقتي يا فريدة تبدأ من عند نائل مصطفى، أنت شاهدتِه مرة من قبل، لكنني سوف أذكرك به في وقتها.

fb/mashro3pdf

كان نائل من أكثر الشخصيات التي من الممكن أن تصطدمي بـ غرابة، وغرابته ليست ناتجة عن مواقفه وردود أفعاله فقط، بل عن طريقة حياته نفسها، كان هو ابن البلد الذي يجلس ليتحدث طويلا مع فنى تلميع الأحذية في أي مقهى شعبي، وهو في نفس الوقت الرجل الثري الذي يقابل معارفه في أفخم فنادق المحروسة، هو الصعلوك الثري أو الثري الموصول بالشارع، هو الذي يدخن «الكليوباترا» وفي نفس الوقت تجدين معه دائما أفخر أنواع السيجار الكوبي، يحتسي البراندي الرديء في بارات وسط البلد، أو النبيذ المعتق الفاخر في بارات الصفوة، هو كل شيء وعكسه، التناقض يسير على قدمين، هذا التناقض يجعلك تتساءلين دوما عن حقيقته، وهي الشيء الذي سيظل غائبا مهما حاولتِ أن تصلي إلى أبعاد حكايته.

كان شبكة علاقات متنقلة، أخطبوط بشري في كل طرف من أطرافه مفتاح لعالم مختلف تماما، لديه القدرة على معرفة كل أسرار الحكايات الخفية وعلى سردها بطريقة النميمة المثيرة، التي فضحت أمامي كثيرا من الأسماء اللامعة قبل أن أطأ بأقدامي أديم الدائرة الملعونة، يحكي لي مرة عن «الجنرال» وعن علاقته بـ «لولو» الفاتنة ذات الأصل الأرمني، سماع هذه الحكاية من نائل كان له وقع مختلف، خصوصا وأنه لديه القدرة على أن يصيغ لك الحكايات الغامضة لأسرار الأبواب المغلقة، أسرار تفوح منها رائحة السلطة والمال والجنس بطريقة مشوقة، تجعل من التفاصيل الصغيرة مساحة واسعة للكثير من الخيال، الحكاية منتشرة بقوة في أوساط وسط البلد ما بين «مقهى ريش» ورواده من عجائز يحملون على أكتافهم حكايات من زمن لا يريد أن ينتهي، تقول الحكاية إن الجنرال وقع في غرام لولو بعد أن شاهدها يوما بالشورت الأبيض المثير، لولو

fb/mashro3pdf

ـات الأصـل الأرمني وصـاحبة الهالة العملاقة التي تحيط بها حينها تتنقل ـا بين رجل وآخر من أجل الحصول على حظوة سلطة تمتلك كل شيء، ـحكايات لولو المتعددة ولهفة العجائز على اقتران أسمائهم بها كانت سببا ـوبا في شهرتها الواسعة، كمثال للفتنة التي تسير على قدمين، فتنة تثير ـخيال عجائز يحلمون بتاريخ كان فيه الجنس والسلطة على علاقة حميمة ـحرك الأحداث وتكتب التاريخ! وكنوع من استحضار حكايات عبد الحكيم عامر المثيرة إلى الواقع الجديد الذي لم تكن ملامحه قد اتضحت بعد، صارت حكاية الجنرال ولولو وسيلة لاستحضار الماضي وطريقة لنسج أطياف من الأساطير القديمة، والتي يغلب عليها الطابع المثير، وكمحرك لدائرة النميمة التي لا تنتهي.

بدأت حكاية الجنرال ولولو بتفصيلة صغيرة، تعاظمت حتى قادت الجميع إلى نسج حكايات متباينة حولها، تتسع أبعاد الحكاية وتصير الكذبة حقيقة ساطعة لا يستطيع حتى محرفوها إنكارها، تفاصيل كثيرة عن علاقة لولو بالجنرال، رجل في أواخر الخمسين يهتم بمظهره جيدا، مع لمسة ريفية لا تخطئها عيناك في ملامحه، تجسيد لصورة الجنرال القديمة التي ارتفعت منذ الخمسينات حتى بداية التسعينات، قبل أن تتحول القوة من أيدي الجنرالات إلى أيدي رجال الأعمال، وما بين المعسكرين كانت لولو خيطا واصلا تتجمع من حوله الحكايات المثيرة، وبعد أن كانت واحدة ممن سمحت لهم الفتنة والإثارة في الاقتران بذوي السلطة في مصيفهم القديم بالعجمي، انتقلت أيضا مع ذوي السلطة الجدد إلى مصيفهم الجديد في مارينا، وما بين منطقتين وجيلين وزمنين مختلفين، مات الجنرال من دون أن يكون قد رأى لولو هذه من قبل!

الحكاية أن لولو كانت لديها أزمة خاصة مع طليقها الذي هرب إلى

fb/mashro3pdf

أستراليا، وكان القدر قد جمعها باتصال وحيد مع الجنرال، فوعدها أن يرى ما يستطيع فعله، هكذا من دون أن يراها أو تراه، المكالمة المراقبة والتي ظهر فيها صوت الجنرال كانت وسيلة سهلة لأعداء ينتظرون هفوة بسيطة من الرجل، من أجل إزاحته من منصبه المهم، فضيحة إعلامية واستجوابات في البرلمان وسيرة رجل تم هتكها علنا، ساعدت هذه الحكاية لولو أكثر على الاقتران بذوي السلطة الجدد، والذين كانوا يتمنون أن تصير الحكايات الجنسية سبيلا لتخليد أسمائهم في سجل التاريخ الوحيد الذي يبقى، تاريخ الجنس والسلطة، ومع الوقت تحولت لولو إلى أيقونة يهرع الكثيرون إليها في محاولة لنسج حكايات خيالية لا وجود لها، أما الجنرال وبعد أن انزوى عن السلطة، لم يعرف أن مكالمة صغيرة مع لولو كانت سببا لنهاية كل شيء.

نائل كان الوحيد الذي يعرف الحكاية بأبعادها الحقيقية، أو على الأقل هو الوحيد الذي يعتبر أن هذه هي أبعادها الحقيقية، خصوصا وأنه على استعداد لسماع نفس الحكاية من مصادر مختلفة ومتعددة، هو فقط من لديه القدرة على استخلاص الحقيقة من كومة الحكايات، حقيقة مجردة يخرجها من بين ترهات الخيال وتأوهات الكذب وأساطير اللعنة المكتوبة!

لا أذكر يا فريدة كيف اجتمعت للمرة الأولى مع نائل، لكن ما أذكره من هذا اليوم أن ملاحظتي عنه، كانت أنه يمتلك شخصية قادرة على امتلاك أذنيك من بداية اللقاء حتى نهايته، مجلد ضخم من الحكايات المثيرة، وخبرة غائرة في أسرار الأبواب المغلقة، كنت أظنه في البداية مجرد مخرف آخر، لديه القدرة من خلال الخيال على نسج حكايات لا تمت للواقع بصلة، وأنه فقط لديه القدرة على تحويل التفاصيل البسيطة إلى

fb/mashro3pdf

قصة متكاملة الأركان، لاحظي يا فريدة أن اقتران أي حدوتة / فضيحة بأسماء المشاهير، دائما ما تلقى الترحيب من المستمع من دون أن تدفعه إلى محاولة التأكد من صحة المعلومة التي يسمعها، طريقة للانتقام من ذوي الشهرة / السلطة من خلال تصديق أكاذيب تحوم حولهم، حتى وإن كانت ضد المنطق بالأساس، لكنني مع الوقت تأكدت من أن هذا الرجل كنز حقيقي ويمتلك بالفعل الشفرة السرية لفهم طبيعة العالم السفلي، الذي يمتلك المقدرات المصيرية لهذا البلد العجيب!

توطدت علاقتي بنائل مع الوقت، وتحولت جلساتنا من مجرد دردشة بين صديقين تكفلت ظروف غامضة في الوصل بينهما، إلى ثغرة صغيرة أو عين سحرية شاهدت من خلالها العالم الثاني القابع خلف الأبواب الموصدة، عالم لشخوص تشاهدينهم على شاشات التليفزيون، أو تبصرينهم جالسين بجوارك في باحات فنادق «فور سيزونز» أو «ميريديان» بهالتهم العملاقة، من دون أن تكون هناك أي علاقة مباشرة بينكما، لكنك تعلمين عن حكاياتهم السرية جميع التفاصيل.

لم أكن يا فريدة من الطراز الذي تغلبه الدهشة، أو يتوقف مبهورا أمام الجديد أيا كانت تفاصيله، لكن مع نائل كان الأمر مختلفا، لا أعرف إن كانت طبيعة الأسرار التي نقلها إليّ هي الدافع الحقيقي وراء حالة الدهشة المستمرة، أم أن طريقته في عرض تلك الأسرار هي وحدها التي فعلت، كل ما أنا متأكد منه أن بدايتي مع الدائرة الملعونة بدأت من هنا، من قدرته على إدهاشي وإثارة الفضول داخلي!

* * *

حينما احتوانا بار مطعم «كوسينا راستيكا» بفندق «فور سيزونز»

fb/mashro3pdf

كانت البداية، وسط الدخان وكؤوس الإسكوتش الأثيرة قال لي نانا

ـ فوفا سألت عليك.

أنظر تجاهه محاولا تذكر الاسم، وأقول له:

ـ فوفا مين؟

ـ فايزة الداغي، نسيتها ولا إيه؟

ـ دي اللي كانت قاعدة معانا من يومين في «مريديان»؟

ـ آها.

ـ إيه حكايتها؟

ـ عايزاك!

هكذا قالها ببساطة وهو يصب كأسا جديدة، لم أستطع وقتها أن ألم بأبعاد ما يقول، حالة جديدة من الدهشة وطريقة سهلة لإثارة الانتباه، وقلت له:

ـ مش فاهم.

ـ عشان حمار!

ـ إنت بتلف وتدور ليه؟ ما تجيب من الآخر.

ـ وهو فيه آخر أكتر من إني أقولك انها عايزاك؟

ـ وهي قشطة كده بتختار أي واحد عشان ينام معاها؟

ـ طبعا!

أشعلت سيجارة وبدأت أنظر إليه من بين أسراب الدخان العالقة،

fb/mashro3pdf

ـ قد بدأت أشعر أنني على أعتاب مرحلة جديدة، وكان أسلوب نائل يزيد من توطن هذا الإحساس داخلي... قليلا وقلت له:

ـ والمقابل؟

ـ اللي انت عايزة.

ـ أيوة اللي انا عايزة ده هيوصل لأي حد؟

ـ وسع خيالك.

ـ هي مش بنت المرة دي متجوزة؟

ـ ده سبب أدعى يخليها تعوز!

ـ يعني إيه؟

ـ إنت عارف حجم جوزها في البلد، وخليني أقول لك إن كل ما حجمك يزيد في البلد، كل ما اسمه إيه ده عندك حجمه يصغر!

أكثر ما أدهشني يا فريدة هو الطريقة العادية لكلامه، وكأن ما يقوله لا يستدعي الدهشة أو الاستغراب، هذا الرجل من عِظم ما رأى في حياته، تحول كل شيء من حوله إلى تكرار ممل لقصة لا تنتهي، كل هذا ساعد على تحويله إلى لغز محير لا يستطيع أحدهم فك شفراته، ينظر إليّ في انتظار قراري وكأنه يدعوني إلى العشاء، وأقول له:

ـ وانت برضه بتطلب كده؟

ـ طبعا يا رشدي.

ـ وبتاخد إيه بقى في المقابل.

ـ فلوس، مصلحة معصلجة تتفك، أي حاجة.

fb/mashro3pdf

ـ وفايزة؟

ـ ما لها؟

ـ عدت عليك؟

ـ أظن مرة ولا اتنين، ابسطها وحاول تتبسط.

ـ إنت بتتكلم وكأني موظف عندك بتديله أوردر شغل.

ـ يا حبيبي لو مش عايز قشطة... بس صدقني انت الخسران.

أنظر إليه محاولا أن أغوص داخله أكثر فلا أصل إلى قراره، مجرد سطح لامع بدأت أظن ـ من قدرته على إخفاء ما يموج داخله ـ أنه فارغ من الداخل! أنظر حولي بعد أن ظننت أن كل المحيطين قد سمعوا تفاصيل الحوار، كل في حاله لكنني لست كذلك! ومع الوقت بدأت أكتشف أن كل ما أعرفه عن نائل لا يمثل أي شيء بالنسبة إلى الحقيقة، وأتساءل: هل هو رجل أعمال واسع الصلات أم أنه مجرد مفتاح لعالم سحري لم أتوقع وجوده؟ لم أعرف وقتها يا فريدة، لكن تعمقي معه كان سببا في زيادة الفهم وتعمق التفهم! قليلا ثم قال لي:

ـ اسمع يا رشدي، عايز الخلاصة؟ دوس في المشوار ده، إحنا بتعمل إيه؟ بنبسط ونبسط ونخرج في الآخر بمصلحة؟ تفتكر ممكن تحتاج إيه تاني يعني؟

ـ إنت بتتكلم وكأنه كارير بتحضرني ليه.

ـ ما هي دي الحقيقة.

ـ حقيقة؟

fb/mashro3pdf

ـ آه، هم محتاجين نصك التحتاني واحنا عايزين شوية من اللي عندهم، ملاقة واضحة من غير عقد ولا كلاكيع.

وكان صمتي يا فريدة إيذانا ببداية جديدة، مجرد خطوة أولى على أديم الدائرة الملعونة.

* * *

بدأت رحلتي الجديدة يا فريدة والدهشة لا تبرح مكانها، علاقات متعددة مع نساء في العقد الخامس أو السادس يشتركن معا في أمرين لا ثالث لهما، الحرمان وشره إشباعه هذا أولا، وكونهن جزءا من العالم السري أو مجتمع ما خلف الأبواب المغلقة أخيرا، منهن وبمساعدة نائل عرفت أسرارا كنت أظنها لا وجود لها على أرض الواقع، أسرار عالم هن فقط المحرك الرئيسي له، أن ترى شخصيات مشهورة في مؤتمرات متلفزة شيء وأن تتداخلي معهن شيء آخر، أن تقتربي من رغباتهن الشاذة وإقبالهن الغريب على كل وسائل الإثارة المتاحة والمحرمة، طريق واسع متعدد الشخوص يقربني إلى مجتمع مختلف تماما.

من هنا بدأ الشطر الثاني من حكايتي مع الحياة، بعد أن بدأت الدهشة في الانحسار من داخلي، حتى صرت أقرب إلى مسخ لا يؤثر فيه أي شيء، نسخة مطورة من نائل بلا قدرة على الشعور بالفضول، من قال إن الدهشة هي وقود الحياة نفسها؟ لا أعرف لكنه كان قريبا جدا من الحقيقة.

تحولت يا فريدة ـ إن جاز التعبير ـ إلى عاهرة تبيع جسدها لمن يطلب ويدفع أكثر! وعلى الرغم من الكآبة التي كانت تلفني بعد أن وجدت ساقي قد انغرستا تماما في العالم الجديد، وبصورة تجعل الخلاص منه

fb/mashro3pdf

عـيرا قاسيا، فإني آثرت أن يكون لي طابعي الخاص بعيدا عن كليشيهات السادة الداعرين!

نائل نفسه كانت تغمره الحيرة من طريقة تعاملي مع سيدات العالم السري، وهو ما كان مثار إعجابه الدائم! أن تتعاملي مع الصفوة بقدر من السوقية، أن تعامليهن كعاهرات وفقط من دون خوف من سلطة يملكنها أو غدر متربصا يقف خلف رغباتهن الشاذة وقدرتهن على التقلب، كان في هذا الأمر سحر خاص لديهن، طريقة جديدة لاستجلاب بعض من المتعة الغامضة أو إحساس بالقيمة الحقيقية التي يستحققنها! صرت أنا يا فريدة نجما ساطعا في مجتمع العهر الجديد، ومفتاحا سحريا يساعد نائل على إنهاء مصالحه المتعددة والمتشابكة، والتي أصبحت شريكا فيها مع الوقت، تحولنا إلى مؤسسة تبيع المتعة في مقابل مال أو تقرب للسلطة ودخولها من أبوابها المتعددة.

وبمرور الوقت تمكنت من أن أفهم تفاصيل كل ما يدور من حولي، اقتربت يا فريدة ورأيت الصورة كاملة، تفاصيل مثيرة قادرة على جذب انتباه الجميع، خصوصا مع غلافها الرقيق من الجنس والشراهة، أنت تعرفين فايزة الداغي يا فريدة وتعرفين قيمتها في المجتمع! أنا الوحيد الذي كان يعاملها كما تستحق، حاولت أكثر من مرة أن تهددني بما تملكه، لكن ما تريده مني كان أعظم لديها من متعة الانتقام، كانت واحدة ممن يستعذبن الألم وكنت أنا جديرا بتلبية رغباتهن، وكأني يا فريدة كنت أنتقم منهن بطريقتي الخاصة، أحاول من خلال عذابهن أن ألفظ بعضا من الألم السارح داخلي، كانت الداغي هي أكثرهن شراهة، وكانت في أوقات ما بعد إشباعها تبوح لي بكل شيء، كل شيء عن نفسها وعن زوجها صاحب الاسم الذي يهز مؤسسات متكاملة، بعد أن تصل إلى

fb/mashro3pdf

شهوتها التي لا تنقطع إلا لماما، وبعد أن يكون لحمها الأبيض قد تحول إلى لون الدم من آثار الصفع والعقر كما تحلو لها العلاقة، تصير مثل الحيوان الأليف الذي يأتمر بأمرك ملبيا لك كل شيء حد العبادة! كانت واحدة ممن ساعدنني على فهم ما يدور من حولي كما يجب، وبقدر ما أعطيتها من متعة أخذت منها الكثير، وبقدر ما كان كل جزء صغير من جسدها عليه توقيعي، كان كل ما امتلكته بعد ذلك من خلالها أو خلال زوجها القوي، أو من خلال معلومات أبلغتني بها تخص أناسا آخرين يقطنون ذات العالم السفلي، ويتحركون بأريحية خلف الأبواب الموصدة، هكذا كان الأمر ببساطة يا فريدة!

وكلما انغرست ساقاي أكثر في المستنقع، وكلما ماتت مساحات داخلي بصورة غائرة لا تنزاح، تمكنت من أن أصل إلى شفرات كنت أظن أن القدر يقصرها على نائل وحده.

وعلى الرغم من ذلك كانت علاقتي به تتوطد أكثر، صارت علاقتنا متشابكة معقدة لا مجال لانفصامها يوما، أو هكذا ظننت، خصوصا أن الأمر كان يبدأ من عنده دائما، هو الذي يمتلك كتالوج النساء المحرومات، وهو همزة الوصل بين الوفود الجديدة، هو الذي ينتقي أيهن نتوغل معها ومن قد نتركها على قائمة الانتظار! وهو الذي يختار اللحظة المناسبة لطلبات لا تنتهي، أما أنا فكنت أعرف متى أعامل الزبونة برقة ومتى تكون الوحشية هي عنوان العلاقة، وقراري هذا لا ينبع من رؤيتي أنا فقط لها، لكن من رؤيتها هي أيضا لنفسها وللمدى الذي وصلت عنده شهوتها المجنونة!

كنت أكره يا فريدة أن أشعر أنني سلعة تُشترى بالمال والسلطة، لذلك

fb/mashro3pdf

كانت قدرتي على تكييف العلاقة كما يحلو لي، دافعاً إلى مزيد من سحر قلبي إنني امتلكته دائماً، نائل نفسه أدهشه ما حيته له من تفاصيل حدثت بيني وبين حكمت واصف ابنة توفيق واصف، وصاحبة الامتيازات السياسية والاقتصادية التي لا تنتهي، علاقتها جيدة بالرجل الكبير، وتعرف كيف تؤثر في قرارات السياسيين في الدولة، كانوا يسمونها الغول لقدراتها التي تعرفينها، هذه المرأة الوقور التي تقف أمام المايكروفونات وتؤثر في جموع متناثرة حولها، كانت واحدة ممن تعاملت معهن كجارية من عصور العبيد، أنا فقط من أملك الحقيقة وأنا فقط من يطوّعها كما يريد، كنت أنهي لقاءاتي بها بصفعة مهينة أو سباب قاسي المصطلحات أو بصقة يبقى أثرها عليها طويلا! وكانت تعود!

لقد امتلكت الشفرة السرية لحالة الدونية التي قد تستشري بين بعض ممن يعاملهن الجميع كعزيزي قوم لن يذلوا إلا أمامي! لقد كنت ونائل يا فريدة نؤثر في سياسات الدولة من خلال عاهراتها! علاقتي بحكمت واصف كانت سببا في قوانين تم تمريرها لصالح عدد من رجال الأعمال، مقابل نسب في المشاريع أو عمولة توازي قيمتها ضعفي رأس المال! سياسة واقتصاد تبدآن من خلال معارك ضارية في غرف النوم، ومن خلال حركات المحمومة واللهاث ناحية إشباع شهوات لا تنزوي، التاريخ يكتب من هنا، من تصارع اللحم واختلاط قطرات العرق، من اللهاث والتأوهات المحمومة، هذا هو تاريخنا وقد كُتب بقلم أحمر الشفاه على مرآة شاهدت الكثير من دون أن تفكر يوما في أن تفصح عما يختبئ داخلها!

* * *

fb/mashro3pdf

كانت هذه هي البداية يا فريدة، حتى بدأت حكايتنا مع جاكلين أبو النجا، ليختلف بعدها كل شيء!

* * *

fb/mashro3pdf

(٢)

كان لقاؤنا الأول مع جاكلين أبو النجا في «لا ييراري بار فور سيزونز»

لم أكن أعرف عنها أي شيء قبل هذا اللقاء، وكنت كلما سألت نائل عنها كان يرجئ الإجابة حتى نصل إلى هناك، أنا لا أحب المفاجآت يا فريدة، خصوصا حينما يكون نائل نفسه يتعامل مع الأمر بهذه الخطورة، كانت حالته النفسية مختلفة في هذا اليوم، بدا طوال الطريق سارحا مكتئبا أو خائفا من مصير لا أعرفه، يجيب على أسئلتي المتعددة باقتضاب يدفعني إلى المزيد من التساؤلات لا العكس، قلت لك يا فريدة إن ما رأيت وسمعت منذ أن وطأت الدائرة الملعونة قد جعل قدرتي على الدهشة تنزوي، وجعل خوفي من المصير لا وجود له بالأساس، تعاملاتنا كانت مع نسخ منتقاه من الصفوة، وبصورة جعلت الذروة انتهت بالفعل بعد أن دخلنا في مرحلة ما يسمى بالـ «anticlimax» إياها، لقد رأينا كل شيء ومرت أمام أعيننا كل التفاصيل، فما الذي استجد؟

لم أتحمل هذا الغموض أكثر من ذلك، طلبت من نائل أن يوقف

fb/mashro3pdf

السيارة وإلا لن أكمل طريقي معه، نظر ناحيتي ثم ضغط على فرامل السيارة بعصبية محدثا صوتا كان جديرا بزيادة حالة التوتر من حولنا، كل من يسير بالشارع ينظر إلينا الآن، لكن نائل كان يجاوب نظراتهم المستنكرة بإشارة من إصبعه الوسطى الجديرة بإخراس الفضول داخلهم! تهدأ الأجواء قليلا وأقول له:

ـ مش هتحرك من هنا من غير ما أفهم، إنت من ساعة ما جاكلين دي طلبت تقابلنا وانت مش مظبوط.

يتناول علبة السجائر من على تابلوه السيارة ويشعل واحدة، يغيب بعض الوقت ما بين الدخان والأسئلة المتصارعة داخلي، ثم يقول:

ـ ست بنت قحبة.

ـ متهيألي كل اللي بنتعامل معاهم كده مش جديدة.

ـ جاكلين غير.

ـ مش فاهم.

يحاول أن يتخلص من بعض التوتر البادي على ملامحه لكنه يتعمق فيه أكثر، ويقول:

ـ معاها توكيل توريد الفضايح.

ـ يعني إيه؟ ولمصلحة مين؟

يفتح نافذة السيارة سامحا بدخول بعضا من الهواء ويقول:

ـ إوعى تكون فاكر ان انا وانت بس اللي بنبيع نصنا التحتاني، فيه ناس تانية كتير، إحنا ترس جوه مَكَنة عملاقة، وجودنا ضروري أيوة بس في

fb/mashro3pdf

نفس الوقت لازم نكون تحت السيطرة، وكلنا مرصدوين ومعروف كل حركاتنا وتعاملاتنا والمصالح اللي بنوصل لها، البلد دي مفيهاش أبواب مقفولة إلا للي لازم تتقفل قدامهم، بس عشان أسهمنا زادت بقت العين علينا أكتر.

ـ مش فاهم، وإيه علاقة جاكلين دي بالموضوع؟

ـ جاكلين وظيفتها انها تجند ناس زي حالاتنا، عشان نصور لهم اللي بيدور بيننا وبين الهوانم، «إتش دي» يا معلم وبكاميرات من كل الزوايا، محترفة بنت المرة.

ـ لهم؟ مين هم دول؟

ـ هـيب دي لخيالك.

أنظر إليه وقد وصلت إليّ الشفرة، وأقول له:

ـ وبعد ما نصورهم؟

ـ يعني، الفيديوهات دي بتبقى ورقة ضغط في إيديهم تتحط في عين أي حد بيفكر إنه يطلع برة السرب، ده غير طبعا ان اللي جوه الفيديوهات يعتبر التاريخ الطبيعي بتاع البلد دي، منها بتفهم انت واقف فين ورايح لأي ناحية.

ـ وتفتكر عايزة تقابلنا عشان كده؟

ـ المشكلة أكبر من كده.

ـ ليه؟

ـ لأنها طلبت مني ده من سنة وأنا رفضت.

fb/mashro3pdf

ـ وعملت إيه معاك؟

ـ ساعتها أنا سافرت برة، ومارجعتش إلا لما كنت ظبطت الدنيا مع اللي أكبر منها.

ـ طب يعني الموضوع انتهى.

ـ أولا جاكلين مابتنساش اللي بيعلم عليها، ثانيا اللي أكبر منها مابقاش كده دلوقتي.

ـ والعمل؟

ـ هنسمع منها، ونشوف ممكن دماغها توصلها لغاية فين.

ـ وانت كنت رفضت ليه من الأول؟

ـ عشان أنا مارضاش بكده ده أولا، مهما كنت وسخ بس في حدود للوساخة لازم تقف عندها، ده غير ان أنا اللي هكون أضعف ركن في المعادلة، أنا اللي بنفع يتداس عليه لما ده يحصل، مش اللي اداني الأوردر.

قال جملته الأخيرة وأدار محرك السيارة بعد أن بدا على ملامحي فهم الوضع الجديد، لم نتبادل حرفا طوال الطريق، وكأن كلا منا يضع احتمالات متعددة لأبعاد الحدث الجديد، كانت قد تكونت بيني ونائل شفرة سرية كانت كفيلة بأن يفهم كل منا ما يدور في ذهن الآخر، وأظن أن تلك الشفرة ستكون وسيلة للتخلص من الأزمة التي تلوح في الأفق.

وصلنا البار يا فريدة وجلسنا في انتظار جاكلين، تأخرت عن الموعد نحو ساعة ونصف الساعة، وسط ابتسام نائل الذي أخبرني أنها عادتها التي لا تتخلص منها، قال إنه متأكد أنها جالسة في مكان ما قريب منا، فقط من أجل أن تحرق بعضا من الأعصاب المتوترة لدينا، وقلت له:

fb/mashro3pdf

ـ فكرت في حل لطلبها طيب؟

ـ عمال بدور لها على ثغرة نفوت منها بس مش لاقي، أكتر واحدة بتضف وراها هي جاكلين دي.

ـ تعرف عنها كل حاجة؟

ـ أهم حاجة في صالحنا، إنها رغم الهالة الضخمة اللي حواليها، جبانة جدا، بتخاف من أي حاجة مش متوقعة، حتى لو كانت متأكدة انها تقدر تتعامل معاها.

ترتسم على وجهه ابتسامة واسعة وكأنه تذكر موقفا ما، قليلا ويقول ضاحكا:

ـ مرة كنت نايم معاها، كانت في عالم تاني وكنت حاسس انها بقت عامله زي العجينة بين إيديا، كنا خلاص بنقرب وفجأة رن تليفوني، فألاقيها زقتني من عليها ونطت من على السرير وهي عماله تسب لي الدين وتحدفني بأي حاجة تلاقيها قدامها.

ـ إشمعنى؟

ـ عشان من طلباتها إن الموبايلات تكون مقفولة وتبقى برة الأوضة خالص، أنا يومها نسيت أخرج الموبايل تقريبا فحصل اللي حصل.

ـ خافت لاتكون بتسجل لها؟

ـ آها، يومها ماجاش عليا إلا هيستيرية ضحك، طبعا كسرت التليفون وقعدت تنطط زي العيال الصغيرة.

ـ رغم انها عارفة انك ماتقدرش تستخدم حاجة زي دي ضدها.

fb/mashro3pdf

ـ عشان كده بقولك انها بتقلق من أي حاجة غير متوقعة، فيه ناس كده مهما كانت القوة والسلطة بين إيديهم، كل حاجة بيعملوها لازم تكون مدروسة ومتخطط لها صح، ولو حصل حاجة مفاجأة أو مش معمول حسابها، بيتحولوا الشوية بقر ومابيعرفوش يتصرفوا ازاي.

قلت لنفسي، هذه نقطة في صالحنا.

قليلا وألمح نظر نائل معلقا على شيء ما خلفي، وأفهم أنها جاءت أخيرا.

* * *

كيف أصفها لك يا فريدة من دون أن يغمرك الغضب من ناحيتي؟

كانت مثيرة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، كل تفصيلة صغيرة تملكها هذه المرأة تصلح لتكون دافعا للهاث وراءها، الشعر الأحمر الناري مترامي الأطراف بصورة مجنونة، الوجه البض الناصع الذي يبدو أنه لم تطف عليه حقن البوتكس اللعينة، ولم تمسه يد جراح التجميل قط، الجسد الفائر الجدير بامرأة في الثلاثين وليس في السادسة والأربعين كما عرفت، نظرة عينيها المقتحمة تحرك في الصدور نارا لا تنطفئ إلا بالمزيد من النظرات، الشفاه الممتلئة والصوت المبحوح يمتزجان معا في توليفة عصية على الفهم، كانت ترتدي فستانا بلا أكمام ينحسر عما دون الركبة، وقد تكفلت منطقة الصدر بشف بعض مما يختبئ وراء القماش الحريري للفستان الوردي، هكذا كانت هي بكل بساطة يا فريدة!

اتجهت ناحيتنا وعلى وجهها ملامح باهتة، ملامح لا تصل بك إلى فهم ما يدور داخل تلك المرأة، تصافحنا متبادلين ابتسامات لا معنى لها،

fb/mashro3pdf

جلست أولا لينحسر الفستان عن فخذ ملفوفة بعناية ثم تبعناها جالسين، تتبادل النظرات معي أولا ثم مع نائل، تشعل سيجارة بهدوء ثم تقول:

ـ عاش من شافك يا نائل.

ـ أنا موجود يا جاكي، صحيح مش بنشوف بعض من مدة بس أخبارك عندي.

ـ كلها؟

ـ على الأقل لغاية امبارح.

ـ يبقى ماتعرفش كل حاجة.

تلتفت ناحيتي وتطيل النظر صامتة، تنفث دخان سيجارتها التي انطبع لون شفاهها عليها، وأبادلها أنا نظرات قوية واثقة أو لامبالية إن أردت الدقة، قليلا وتقول لي:

ـ انت بقى السيوفي اللي بيتكلموا عنه؟

أبتسم بسخرية ولا أرد، أنتقي من أدواتي الآن ما يجدر بي استخدامه إزاء هذه المرأة، ويقول نائل:

ـ هو يا ستي، سمعتي عنه إيه بقى؟

ترد على نائل وهي ما زالت تطيل نظرها ناحيتي:

ـ كتير.

أشعل سيجارة مبتسما وأقول لها:

ـ مهما كتر هيكون أقل من الحقيقة.

fb/mashro3pdf

ترفع حاجبها استغرابا وتقول:

ـ عموما هنشوف.

ـ مين قال؟

ـ أنا قلت.

ـ وأنا موافقتش.

نائل يبتسم بخبث وإن كان قد بدا عليه القلق من أسلوبي الجاف معها، هي تكمل رحلتها مع الاستغراب وتقول:

ـ مابحبش الأفورة في الثقة كده.

ـ إنتي حرة.

تبدأ لمحات الغضب تظهر عليها، الآن فقط استطعت أن أخرجها من السيلوفانة الأنيقة التي تحاول أن تداري بها ما بالداخل، ويتدخل نائل:

ـ أجيب لك مارتيني ولا غيرتي؟

ـ صاحبك سد نفسي.

تقولها وهي تنظر ناحيتي، وأبدأ أنا في تغيير مدروس لأسلوبي، طريقة سهلة لجعل الصلادة تلين، الجزار في لحظات ما يحنو على الذبيحة قبل أن يحرك نصل سكينه على أنحاء رقبتها، وأقول لها:

ـ أنا طبعا آسف لو ده حصل، خليني أطلب لك حاجة على ذوقي ونعتبرها عربون بداية.

تبتسم وألمح الموافقة على ملامحها، أستاذن منها وأذهب بنفسي إلى

fb/mashro3pdf

البارمان لأوصيه على الكوكتيل الجديد، مزيج من الفودكا والمارتيني مع بعض الليمون، كوكتيل قادر على هدم آخر جدران محاولتها الادعاء، أريد أن أعرف ما يدور في عقل هذه المرأة وسوف أفعل.

تطول الجلسة من دون أن نصل إلى السبب الفعلي للقاء، فقط المزيد من النظرات المتبادلة بيني وبينها، نائل يتمكن من فك الشفرة ويتحرك قائلا:

ـ أنا هقوم عشان عندي معاد يا جاكي، هسيبك شوية مع السيوفي وابقي كلميني.

تومئ له برأسها ويغمز لي بطرف عينه ويتحرك مغادرا، أستأذن منها وأتجه ناحية نائل الذي ابتعد بعض الشيء عنا وأقول له:

ـ قمت ليه؟

ـ الولية عايزة تجربك، ماليش دور في الحدوتة.

ـ تجربني؟

ـ سمعت كتير وقررت تدوق، دوقها يا رشدي، بس على القد، إديها نقطتين مية ووريها الإزازة المليانة، إنت فاهم الليلة طبعا بس بأكد عليك.

ـ ولو فتحت معايا الحوار بتاع التصوير؟

ـ مش هتفتحه، على الأقل مش دلوقتي.

أومأ لي برأسه وتركني مغادرا، وعدت أنا إليها من جديد.

كنت قد بدأت ألمح أبعاد مهمتي الجديدة يا فريدة، على الأقل بداية ما تريده جاكلين، نظراتها والمواضيع التي فتحتها معي كانت تدلني

fb/mashro3pdf

على الطريق، ليس طريقا وعرا بقدر ما كان باعثا على الحذر والترقب، وأجدني أتساءل الآن: هل كنت مؤثرا لتلك الدرجة أم أنني فقط كنت قادرا على نسج هالة مختلفة من حولي، بصورة جعلت جاكلين وأخريات يقطن ذات العالم السري، في احتياج دائم لي أنا بالذات؟ هل فعلا أمتلك القدرة على قراءة احتياجات المحرومات، وأمسك بيدي أدوات تلبيتها؟ أم أنهن يعانين من نقص ما جعل مهمتي أكثر سهولة؟ لا أعرف يا فريدة ولم أتوقف عند تلك الأسئلة طويلا، فقط أنا أعرف مهمتي المحددة وأعرف كيفية الاستفادة من ورائها، هكذا ببساطة.

قالت لي وقد بدأ أثر أكواب الكوكتيل المتعاقبة يحرك لسانها قليلا:

ـ حكمت واصف أخبارها إيه معاك؟

ـ أخبارها إيه يعني إيه؟

ـ إنت فاهم اللي أقصده.

ـ أعتقد دي حاجة ماتخصكيش في حاجة.

تنظر ناحيتي بغضب، هذه المرأة لم يعنفها أحدهم من قبل، أنا سوف أفعل، وتقول لي:

ـ طالما أنا قاعدة معاك دلوقتي يبقى إنت تخصني، وأي حاجة بتحصل في العالم بتاعك لو حابة أعرفها هعرفها.

ـ بيتهيألك.

تنظر لي بصرامة ظنا منها أن هذا قد يحرك داخلي خوفا مكبوتا أو توترا لم تلمسه على ملامحي، وتقول:

fb/mashro3pdf

ـ شكلك جديد في اللعبة.

ـ إنتي اللي شكلك جيتي عنوان غلط.

أقول الجملة وأمسك مفاتيحي وعلب سجائري من على المنضدة وأقف للمغادرة، أرى على ملامحها دهشة من قراري المفاجئ، أمر جوارها في طريقي للخروج فتمسك يدي وتقول:

ـ ماتمشيش.

أبتسم أنا من دون أن ترى ملامحي، نبرة الصوت الصادرة منها تقول إنني بدأت خطواتي على الطريق الصحيح.

بعد ساعة واحدة كانت معي في شقتي هناك.

* * *

أعطيتها يا فريدة بالقدر الذي يجعلها تحت السيطرة، بحيث ألا يكون هناك مجال لشعورها بالملل مني، جاكلين ومن يماثلنها يقتربن بسرعة ناحية حافة الملل، من السهل أن يقدمن على التجربة ومن الأسهل أن يملوا منها، وكان مفتاح اللغز أن يظلوا في حاجة إلى المزيد، الاقتراب من درجة الإشباع من دون الوصول إلى ذروتها، أو كما قال نائل، نقطتان من زجاجة مملوءة وضعت أمام أعينهن، لكنهن لا يحصلن منها إلا على القدر الذي آذن به أنا.

بعد أن دخلنا الشقة كانت قد أخذت تنظر إلى أنحائها كمحاولة منها لقتل الوقت حتى أبدأ أنا في الحركة، اتجهت ناحية البار الصغير وصببت كأسي إسكوتش وأعطيتها واحدة، بدأت تحتسي ببطء وهي تصوب ناحيتي نظرة انتظار واضحة، كان أسلوبي المعتاد أن أترك العميلة بعض

fb/mashro3pdf

الوقت في انتظار تحركي أنا، أختلس النظرات في أكثر اللحظات ضعفا لديهن، في هذه الفترة يكن أقرب إلى ورقة بيضاء شفافة أستطيع أن ألمح ما يدور وراءها، منهن من يبدأن بالحركة فأتمادي أو أعنف، ومنهن من يتظرن خطواتي أولا! بعض من حياء الجثث اعتادت السير عارية! كان كل ما يهمني وقتها أن أبعث إليها برسالة واضحة، أنا لست هنا تحت ضغط سلطة تملكينها بصورة ما، أنا هنا السلطة وأنتِ الشعب الجديد بالانقياد!

اقتربت منها وبدأت أنفاسها في التهدج، هذه المرأة لم تطأ أديم المتعة منذ فترة وهو ما استغربته، تحاول أن تمسك بزمام الأمر بأن مسكت رأسي بكفيها مقدمة ناحية شفتي في طريقها للالتهام، لكنني أبعدت يديها برفق معلنا أن خارطة الطريق في يدي أنا فقط، أخذت أخطو ناحية إشعال الجمرة بداخلها، فدرتي على ضبط شعلتي الخاصة كانت سببا مهما في التكيف مع الأمر، أعرف متى أجذب بقوة ومتى تكون الأوصال في حاجة إلى الارتخاء، يمر الوقت حتى ألمح مصباحها وقد أضيء منبها إياي أنه قد حان الوقت وإلا غابت عني هي في عالم آخر!

قضينا بقية اليوم معا في الشقة، ما بين إشباع رغباتها التي لا تنزوي وما بين محاولات وصول كل منا إلى ما بداخل الآخر، كنت محايدا تماما معها، تطلب مني كلمات بعينها أصبها في أذنيها، فأفعل بالقدر الذي يجعلها تطلب المزيد، فلا تنول إلا ما قررت أن أناولها إياه، حركات محمومة وتأوهات تصدح في الأجواء، ومن بين تأوهاتها المختلطة استطعت أن أغوص بداخلها أكثر، تنزاح الهالة عنها مثل البقية، ولا يبقى إلا جسد عارٍ مكتوب على أديمه.تاريخ طويل تفاصيله تقع عند المسافة ما بين العهر والأسرار الفاضحة.

fb/mashro3pdf

بعد أن أنهينا إحدى الجولات، وبينما هي تسند رأسها على صدري وندخن معا من ذات السيجارة، قالت:

ـ ماسألتنيش يعني إشمعنى سألتك عن حكمت واصف بالتحديد؟

ـ عموما الإجابة بالنسبة لي كانت هتكون واحدة لو كنت قلتي أي إسم تاني.

ـ وانت أسماءك كتيرة.

ـ ماعتقدش انها معلومة جديدة بالنسبة لك.

ـ إنت عارف إيه أكتر حاجة مختلفة فيك؟

ـ إيه؟

ـ زي ما تكون بتحس أنا عايزة إيه بالظبط من غير ما أقولهولك.

لا أرد، أتابع تفاصيل جسدها العاري من بين دخان السيجارة، وتقول:

ـ حكمت كانت صاحبتي زمان.

أنظر إليها منتظرا حكاية جديدة من حكايات العالم السري التي لا تنتهي، وتقول:

ـ إحنا الاتنين كنا بنتحرك على نفس الأرضية ومع نفس الناس، بس هي طلعت أكتر وَطيَنة، عرفت ازاي تحجمني زي ما عرفت ازاي تنط بسرعة لفوق.

تحكي وكأن صنبور الذكريات قد تلف الآن، ما بين علاقات متشابكة

fb/mashro3pdf

وشخوص متعددين بانت أبعاد العلاقة السابقة بين جاكلين وحكمت، وربما أكون أنا همزة الوصل الجديدة بينهما، وتقول جاكلين:

ـ ينفع وانت معايا ماتقابلهاش؟

ـ أكيد مش هاجيكم انتم الاتنين في نفس الوقت يعني، مع إنها والله هتبقى حاجة لطيفة قوي!

ـ ماقصدش كده.

ـ أومال إيه؟

ـ مش عارفة!

المرأة هي المرأة مهما اختلفت التفاصيل، لم أرد عليها وتعمدت أن أبدي سخريتي من طلبها، يطوف بي تساؤل عن رد فعل حكمت حينما تعرف أنني أعطيت لصديقتها القديمة بعضا مما تأخذ، بعض من الدراما الكوميدية وسط أحداث فيلم كئيب. وأقول لنفسي، نائل يفكر الآن في كيفية الاستفادة من هذه العلاقة، التضاد الذي بين المرأتين قد يكفل لنا مصالح متعددة وعلينا فقط أن نوجه الدفة في اتجاهها الصحيح، فمن جهة كل منهن تريدني، ومن جهة أخرى سوف يفكرن في استخدامي كوسيلة للانتقام، لنرَ.

لقد تحولت يا فريدة إلى سلاح جديد في معركة قذرة لا يربح فيها أحد.

* * *

fb/mashro3pdf

(٣)

عرفت حكمت واصف تفاصيل ما دار بيني وبين جاكلين.

في أول لقاء بيننا بعد لقائي مع جاكلين كانت غاضبة بشدة، ليس غضب امرأة متسلطة على شخص تظن أنها قادرة على أن تضعه تحت حذائها، بقدر ما كان أقرب إلى شعور غيرة وخوف من الفقدان، تلقفت أنا إحساسها هذا وغزلت من حوله تفاصيل عدة تعمق هذا الشعور لديها وتزيحه في الوقت نفسه! المعادلة معقدة جدا يا فريدة والحقيقة تكون دائما أكثر قسوة من الخيال، نائل يشاهد الموقف من بعيد من دون تدخل، بعد أن آثر أن يتركني أتعامل معه بأدواتي الخاصة، ولا أنكر أنها كانت فترة مختلفة في حياتي، إحساس بالسيطرة على قوم مسيطرين بالأساس، وطريقة سهلة لعقاب بعض من السادة قاطني الدائرة الملعونة.

عكفت طوال هذه الفترة على التنقل ما بين حكمت وجاكلين فقط، وتكفل نائل بالتعامل مع الأخريات، عرفت أبعاد ما كان بينهما من خلال

fb/mashro3pdf

حكايتين مختلفتين في وجهات النظر، وإن كانتا تتفقان معا في التفاصيل القذرة.

غريبة هي الحكاية يا فريدة، ولا أقصد بذلك الحكاية الدائرة بين حكمت وجاكلين، بل أقصد المعنى الأوسع والأكثر شمولا، صراع من أجل السطوة تزول معه كل الحواجز، أن ينتقل الإنسان من خانة البشر إلى خانة الحيوانات المتوحشة، من أجل هدف يظن أن فيه النهاية السعيدة للأبطال، أنت تقرأين يا فريدة هذه الكلمات وتظنين أن في الأمر مبالغة وأنا أعذرك، لكن من اقترب من التفاصيل ورأى بعينه ليس كمن سمع أو نقلت إليه القصة بصورة ما.

سارت الأمور بعد ذلك بصورة رتيبة، لم تقطعها إلا محاولات كل من جاكلين وحكمت للسيطرة أكثر عليّ، صراع ظاهره محاولة الظفر برجل، أو هكذا ظننت في البداية، لكن ما تكشف لي مع الوقت أنه كان بالأساس صراعا من أجل انتقام سنحت فرصته، وطريقة سهلة لإزاحة العقبات المترسخة، وكنت أنا فقط الوسيلة لتحقيق بعض من الغايات المدفونة في صدر كل منهن.

ذهبت إلى نائل في شقته بناء على طلبه، وكان باديا عليه التعمق في التفكير، هناك أمر ما يلوح وعلينا اتخاذ قرار بشأنه الآن، وأقول له:

ـ خير؟

ـ مش خير.

جلست بجواره وأشعلت سيجارة، منتظرا أن يشرع في البوح، قليلا ويقول:

fb/mashro3pdf

ـ حكمت وجاكلين.

ـ ما لهم؟

ـ كل واحدة فيهم عايزة تدوس بيك ع التانية.

ـ طلبوا منك إيه؟

ـ كالعادة.

ـ كل واحدة عايزة تصور التانية معايا.

أومأ برأسه إيجابا ثم أغمض عينيه، فاستطعت أن ألمح أبعاد ما يدور بداخله، استغربت من أن أيا منهما لم تطلب هذا مني أنا مباشرة، وتساءلت: هل لهذا الأمر علاقة بطريقة تعاملي معهن؟ أم أنني بالفعل كنت منذ البداية مجرد وسيلة سهلة ورخيصة لتحقيق المطلوب؟ لم أعرف وقتها يا فريدة، كل ما كنت على يقين منه أننا إزاء مشكلة ضخمة طرفاها حكمت وجاكلين، ونحن واقفان في المنتصف نتابع ما يدور بينهما خلالنا، الاثنتين على نفس القدر من السطوة والعلاقات الواسعة، ولن تحمينا إحداهن في مواجهة الأخرى إلا في حالة أن وافقنا على ما تريد، حتى تلك الحماية قد تنزوي سريعا بمجرد ما يتم استهلاكنا، كأننا مجموعة من المناديل الورقية، الحاجة إليها ملحة والتخلص منها أكثر سهولة.

قليلا وأقول له:

ـ أنا عندي حل.

ينظر ناحيتي وبدا أن ثقته في وجود حلول معدومة، وقال:

ـ إيه؟

fb/mashro3pdf

ـ نصورهم هم الاتنين.

ـ إنت اهبل؟

ـ ليه؟

ـ بدل ما هنكون في مشكلة مع واحدة بس هنبقى في مشكلة مع اتنين.

ـ أيوة بس لما يبقى معانا فيديو لكل واحدة مش هيقدروا...

ـ مش هيقدروا إيه بس؟ سيبك من شغل المسلسلات والأفلام ده، الحقيقة حاجة تانية.

أفكر مليا ثم أقول:

ـ على الأقل نصور الفيديوهين ونسلم واحدة منهم فيديو التانية، والفيديو التاني يفضل معانا ويبقى ورقة تفاوض مع التانية لو فكرت تتقم.

يبدو أن الفكرة الأخيرة أضاءت شيئا ما داخله، يسرح في محاولة وزن الأمر ويقول لي:

ـ تفتكر أي فيديو اللي يتسلم الأول؟

ـ دي حاجة انت اللي تقولها.

يقوم من مقعده ويتحرك في أنحاء الشقة مستغرقا في التفكير، نائل هو الجدير بمعرفة ما يدور في الكواليس، وهو القادر على تأليف السيناريو الذي سأخرجه أنا، قليلا ويلتفت ناحيتي ويقول:

ـ ندي لجاكلين الفيديو بتاع حكمت، ونشوف إيه اللي هيتم.

fb/mashro3pdf

اتفقنا يا فريدة وشرعنا في التنفيذ، كنا نتحرك بحذر ونحن على يقين بأن خطأ صغيرا قد يرسلنا إلى الجهة الأخرى من الحياة، وكان عليّ أن أضبط مشاعري وأنا أعرف أن ما يدور بيني وبين جاكلين أو حكمت يتم تصويره، اضطراب بسيط في مشاعري مع محاولات مضنية للتخلص من القلق، أنهينا ما تم الاتفاق عليه وأصبح الفيلمان مع نائل الآن، لكن كيف يكون المصير؟!

بعد أن عرفت أن نائل سلم فيديو حكمت إلى جاكلين انقلب كل شيء، طرقات عنيفة على باب شقتي فأهرع لأفهم ما يدور، فتحت فوجدت نائل واقفا يلهث بتعب واضح، أدخلته الشقة وأغلقت الباب وجلبت له كوبا من الماء، نائل في حالة أقرب إلى الانهيار وهو الديناصور الذي لا تؤثر فيه الأحداث، هدأ قليلا ثم جرع من زجاجة الويسكي مباشرة حتى كاد يلفظ أنفاسه، ثم قال:

ـ إنت لازم تختفي.

ـ إيه اللي حصل؟

ـ جاكلين ابتدت تلعب بالفيديو اللي معاها وحكمت وصل لها الموضوع.

ـ يعني نطلع الفيديو التاني دلوقتي؟

ـ مش هينفع دلوقتي خالص، بس عرفت ان حكمت بتتحرك عشان تضرب.

ـ والعمل؟

ـ لازم تختفي لغاية ما أتصرف.

fb/mashro3pdf

ـ أسافر؟

ـ لا، مهما سافرت هتجاب، عايزين حاجة مش متوقعة وتكون غريبة في نفس الوقت.

ـ زي إيه؟

يغلفنا الصمت وأبدأ أرى أبعاد الأزمة الجديدة، عاري الجسد وسط عاصفة قوية، إحساس أن كل شيء ينهار أمامك وأن حياتك تقف على المحك، انتظار الموت يا فريدة أكثر قسوة من الموت نفسه، حينما تكون وسيلة إنهاء المعاناة هي الخلاص من الحياة ذاتها، كنت أظن أنني أكثر قوة من هذا لكن جاءت الحقيقة مغايرة تماما للصورة التي كنت أظنها في نفسي، وما بين القلق والتوتر تترسب المعاناة الأبدية التي لا تنتهي، في هذا الوقت جالت أمام عيني كل التفاصيل التي عشتها طوال السنة الماضية، منذ أن تعرفت على نائل ووطأت بأقدامي أديم الدائرة الملعونة، الأبواب المغلقة التي انفتحت عن آخرها، كانت بالأساس مقصلة حادة تم تجهيزها لتفصل رأسي عن الجسد المتهالك، من دون أن تكون هناك وسيلة واحدة لتخليص الرأس من بين ضفتي الباب، رائحة الدم ودوي الصراخ هما الأساس الآن يا فريدة.

قليلا وأسمع نائل يقول:

ـ لازم يتأكدوا انك مش هتتكلم أو إن كلامك مش هيكون له قيمة مهما اتقال.

ـ إزاي؟

ـ مستشفى مجانين أو مصحة نفسية.

fb/mashro3pdf

ـ نعم؟

ـ دي الطريقة التي تخلي الانتقام منك مالهوش قيمة، كارت اتحرق مش هينفع حد يستخدمه.

ـ أيوة وده هيحصل ازاي؟

ـ سيب لي الحكاية دي أنا هتصرف فيها.

ـ طب وانت؟

ـ أنا هحاول أتحرك من ناحيتي، والفيديو التاني هطلعه في الوقت المناسب ولما أحس أن الدنيا هديت هخرجك.

استطاع نائل بقدرته الفائقة أن يغزل من حولي حكايات تدور في فلك الحالة المجنونة التي وصلت إليها، قال إنني صرت أقرب إلى متشرد يهذي على الدوام، انتشرت حكايتي في أوساط الدائرة الملعونة وصارت وسيلة جديدة للنميمة، وقد تكفلت تلك الحواديت في إخماد بعض من النار التي كانت قد بدأت التحرك ناحيتي.

هكذا انتقلت يا فريدة من أحد قاطني الدائرة الملعونة، إلى مريض يقبع في مصحة نفسية بعد محاولة انتحار مزيفة.

* * *

fb/mashro3pdf

(٤)

دعيني أقل لك يا فريدة إنك رأيتِ نائل وجاكلين من قبل!

تذكرين يوم الححت عليك من أجل أن نخرج من المصحة بضعة ساعات؟ وقتها لم أكن أريد إلا أن أتعمق داخلك أكثر، بعد أن كانت حالتك والحالة التي تحيطين نفسك بها دافعا لميلاد شعور جديد داخلي ناحيتك، كنت أبحث عن علاقة نظيفة لا علاقة لها بالدائرة الملعونة ولا بمصالح سلطة، راغبا في أن أنهي كل ما يربطني بالعالم الذي لفظني، وأن أبدأ من عندك أنت بالذات يا فريدة، أذكر جيدا ملامح الخوف التي انتابتك يوم أن طرحت الفكرة على المجموعة، الجميع بدا محايدا تماما إلا أنت، واستطعت أنا أن أترجم خوفك من العالم الخارجي بمقدار الوحدة والمعاناة المستوطنة داخلك، يومها قررت أن أخطو بك نحو عالم لا يعرف من الوحدة إلا ذكريات غائبة، حتى وإن كانت البداية أن أريك جزءا ضئيلا من عالمي، كجدران الشقة التي رأيت في عينيك ملامح الإعجاب بتفاصيلها.

fb/mashro3pdf

تذكرين يا فريدة؟ يومها سألتك هل ترغبين في العيش معي بين هذه الجدران؟! نظرتك وقتها باحت لي بقدر الرغبة المكبوتة داخلك، الرغبة التي أودعتِها صدرك الشفاف من أجل أن آتي أنا وآراها، أنا فقط يا فريدة.

بعد ذلك أنت تعرفين ما حدث، صوت مريب صادر من غرفة النوم، أذهب إلى هناك وأفتح الباب لنرى نائل وجاكلين عاريين، فزعا من المفاجأة وكذا فعلت أنا، وإن كنت الأسرع في ترجمة ما يدور، استطعت أن أترجم ما حدث منذ أن قابلت جاكلين، مرورا بدخولي المصحة وحتى تلك اللحظة التي اجتمعا فيها وجاء بي القدر وحده لأفهم ما حدث، تساءلت عن مدى تأثير الصدفة في تاريخنا يا فريدة، لدرجة أن تكون سببا في تحريك حياتنا إلى الإمام أو إيقافها عند لحظة معينة.

خطوت داخل الغرفة وقلت:

ـ إيه المفاجأة الحلوة دي؟

نائل تكتنفه موجة فزع لا تليق بتفاصيل شخصيته التي عرفتها، ويقول:

ـ رشدي؟

وأغلق الباب دوننا وتدور بيننا الحكاية بصورتها الحقيقية، أنظر ناحية جاكلين وأبتسم بسخرية وهي تحاول مداراة جسد أعرف كل تفاصيله، لكن هل فزعها ناتج عن وجودي أنا بالذات؟ أم أنه مجرد خوف من شيء طارئ لم تتوقعه كعادتها؟

نائل يعتدل ويرتدي بنطاله ثم يتقدم ناحيتي، ابتسامتي الساخرة ما زالت عالقة على ملامحي بعد أن تكفلت ملامحها في إيصال أبعاد الحقيقة،

fb/mashro3pdf

وقلت:

ـ طب ماجبتوش ليه من الآخر ساعتها من غير اللفة دي كلها؟

أنظر ناحية جاكلين منتظرا الإجابة، فتأتي من نائل:

ـ اقعد يا رشدي خلينا نتكلم.

ـ من غير ما اقعد يا معلم أنا سامع.

ـ اللي عملته ده كان الصح.

ـ وإيه علاقة الصح بإنك تخترع اللفة دي كلها عشان تضربوا حكمت بيا؟

أنظر ناحية جاكلين التي بدأت في تدخين سيجارة بأعصاب متوترة، ويقول نائل:

ـ كان لازم تحس بالخطر عشان تقبل تصور حكمت.

ـ وبالنسبة للفيديو بتاع الهانم؟!

أقولها مشيرا إلى جاكلين التي أبلغتني ملامحها الغاضبة الفزعة، أنها لا تعرف شيئا بخصوص شريط جنسي هي بطلته، لقد قلبت المنضدة على الجميع الآن!

عرفت أن نائل كان يجهزني من أجل إنهاء خصومته فقط مع جاكلين، من خلالي استطاع أن يحقق لها ما أرادت، حتى رفضه القديم لطلبها بخصوص تصوير الهوانم لم يكن إلا وسيلة أخرى من جهته لرفع السعر! لماذا أنا بالذات؟ لأنني من استطاع أن يمتلك حكمت وأن يقوضها كما يريد، أنا الذي قضت معي حكمت شهورا وما زالت تريد،

fb/mashro3pdf

هكذا ببساطة، لكن ما فات عليهما أن شريط جاكلين الجني ما زال معي، كنت قد احتفظت بنسخة من الشريطين من دون أن أعرف لذلك سببا وقتها، الآن عرفت.

أقول لهما:

- لعبتوها غلط، شريطك عندي يا جاكي، لو حابة ممكن أبقى أبعت لك نسخة على عنوان بيتك.

أتبادل معهما بعضا من النظرات، ثم أفتح الباب وأخرج وأتركهما في جحيم هما صنعاها، أتجه مباشرة إلى باب الشقة وتلحقون بي، ونعود معا إلى المصحة.

* * *

كذبت عليك يا فريدة حينما قلت لك إنها زوجتي، لم يكن هناك حل غير هذا، خصوصا أنني وقتها لم أكن قد قررت بعد أن أبوح لك بتفاصيل عالمي، ولا أخفي عليك أن سؤالك كان له أثر كبير على مشاعري وقتها، أنت تشعرين بالغيرة يا فريدة على الرغم من محاولاتك إخفاء مشاعرك، هل هناك سبب آخر للسعادة من أن أشعر ببعض مما يموج داخلك ناحيتي؟!

يومها تأكدت أن مصيرنا سوف يقترب يوما ما، وأن علاقتي بك قد تكون بمثابة الوسيلة الوحيدة نحو رحلة التطهر الغائبة.

* * *

كان موتك يا فريدة بمثابة موتي الثاني، أوله وطأة الدائرة الملعونة على

fb/mashro3pdf

مصيري وثانيه أنت بكل ما يحمله موتك من نهاية حقيقية لحياة لم يعد بها الكثير.

بعد أن عرفت الخبر كانت تطوف بي كآبة الظنون، هل كان قرار انتحارك ناتجا عن تصرف بدر مني في اللقطة الأخيرة التي جمعتنا؟ هل كنت في أثناء محاولاتي إخراجك من دائرة التوتر والكبت والحرمان، أمارس نوعا من الضغط النفسي الذي لم أفهم أبعاده؟

أحيانا تكون خطواتنا حمقاء إلى درجة الجنون من دون أن ندري، فهل كانت خطواتي ناحيتك تزيد من ترسب المعاناة لا انحسارها؟! لكن حالتك في أثناء الحفل لم تكن تعكس أي أثر من هذا، كنت أشعر باضطراب أنفاسك ونحن نرقص معا وكان هذا الاضطراب يترجم مدى حاجتك إلى هذه العلاقة، ملامحك السعيدة ونظراتك الخجلى كلما مسست يديك أو مررت أصابعي على وجهك المضيء، حتى قبلتنا الأخيرة كنت أشعر أنك تتشبثين بها حد الحياة، فلماذا كان هذا هو المصير؟! أنت فقط من يملك الإجابة يا فريدة.

* * *

بعد موتك يا فريدة لحقت بك ماهيتاب ثم كان سامح وبعدهما كمال وسلمى.

كنت في حالة نفسية جعلتني عاجزا عن فهم ما يدور، وكأن موتك يا فريدة قد أنهى كل مساحات التأثر من داخلي، لم أتوقف طويلا أمام الحالة الهستيرية التي اندلعت بالمصحة وبمجموعتنا على وجه التحديد، لم أكن أفهم ولا أريد، لقد انتهى كل شيء بموتك يا فريدة ونحن نتحرك الآن

fb/mashro3pdf

خلف الكواليس بعد أن انسدل الستار وغادر الجمهور القاعة متأففا!

بعد موت كمال وسلمى بدا أن في الأمر لغزا، ليست إذن مجرد قرارات متعاقبة لقوم لم يجدوا بدا من الانتحار وإنهاء حياتهم بأيديهم، بل كان للأمر أبعاد لم نفهمها، وقتها جاء إليّ توفيق المصري واقترح أن نخرج من هذه المصحة الملعونة، لم يكن صعبا أن يقبلوا هذا الطلب، خصوصا وأن كل من بالمصحة أصبح مهددا من المصير المجهول، وكأن هناك قوة من قوى ما وراء الطبيعة تتحرك في المصحة ليلا فقط من أجل أن تحصد المزيد من الأرواح.

كانت أزمتي الحقيقة في الخروج من المصحة يا فريدة، أنني بهذا أبرح المكان الذي شهد آخر لقطاتك في الحياة، هنا ابتسمتِ وضحكتِ وتفاعلتِ، هنا اقتربتِ من معاناتك وحاولتِ إنهاءها وفشلتِ! هنا فقط أحببتك، لكنني أعرف أن الذكرى ستظل أبدا داخلي لا تنزاح، وهذه الأوراق التي أكتبها يا فريدة دليل على أنك ما زلت تتحركين بأريحية داخلي.

وأكتب جملتي الأخيرة: أشعر أن اللقاء قريب!

* * *

fb/mashro3pdf

توفيق المصري

(١)

لريتيقي سواي والسيوفي....

عرفنا أن عبد السلام مجرد طبيب آخر حاول تنفيذ تجربة علاجية جديدة في إحدى المجموعات وجره حظه العثر إلى المجموعة «ب» على وجه التحديد لتكون سببا في فشل مهمته وفي حالة الاكتئاب التي وصل إليها، هو أيضا في حاجة إلى طبيب نفسي حاليا!

الأحداث تمضي سريعا وحالة الهستيريا تضرب كل شيء من حولنا وبداخلنا، السيوفي يقضي أغلب وقته منعزلا وهو الذي كان كتلة من السخرية تسير على قدمين، غابت السخرية وشلت القدم! أبصره في بعض الأحيان يهذي أو يتحدث بصوت عال لنفسه أو لقوم غير مرئيين، وأكثر من مرة رأيته واقفا أمام الغرفة التي كانت لفريدة قبل أن تنتحر، يتحرك ببطء ونظره معلق على الباب، نظرة عينيه وهو ينظر إلى بابها

fb/mashro3pdf

كانت تقول إنه ينتظر أن تخرج له ليحدثها بخصوص مصيرهما المستقبلي، يعرف أنها ماتت لكنه يتمنى العكس، وما بين المعرفة والتمني تغيم الرؤية وتتفشى الكآبة.

يحاولون إجراء تحقيق لكن بلا جدوى.

كل شيء يقول إن فريدة وماهيتاب وسامح قد انتحروا بإرادتهم، لكن ماذا عن سلمى وكمال؟! لقد وجدوا الاثنين يفترشان أرض الغرفة وفي عنق كل منهما طعنة مميتة مع وجود آثار شجار أو مقاومة بادية على أنحاء الغرفة، فهل اقتتلا لسبب ما؟ أم أن الجاني قد تفاجأ بوجودهما ما في غرفة كمال فلم يستطع أن ينهي الأمر بصورة الانتحار المعتادة والتي نفذها مع الآخرين؟! لا يقين ولا تفاصيل قد تقودهم إلى الحقيقة، فقط أنت تعرف أن تلك التحقيقات لن تفضي إلى شيء، خصوصا وأنها عاجزة عن إرجاع الموتى إلى الحياة، ربما يتمكنون من إلحاق أحد الأحياء إلى سجل الموتى لكن سيظل الغموض مسيطرا حتى على منفذ الإعدام نفسه!

رائحة الدم تحيط بنا من كل جانب، ووسط كل هذا أتساءل: أين أنا من تلك الأحداث؟! وكيف كان أثرها فيّ؟! يقولون إن من خسر من كانوا محور الحياة لديه لا تنتابه نفس درجة التأثر بسبب فقدان جديد، وكأن مساحات الحزن تتبدل حسب ظروفك أنت، ومنها تولد الحاجة إلى النسيان أو القدرة على التعايش، أو لا تفعل! وما بين النسيان والتعايش تختلف ملامح الشخص نفسه، تختلف انطباعاته وقدرته على المضي في درب الحياة، يحاول أن يتهادى في تعايشه لكن تظل المرارة عالقة كأنها القدر، لا نسيان إلا لمن أراد، ولا تعايش إلا لمن يمتلك تفاصيل حقيقية تدفعه للعودة إلى الحياة، جثث ميتة وأخرى حية والمسافة بينهما

fb/mashro3pdf

ضئيلة جدا، والاختلافات لا وجود لها بالأساس، خصوصا وأن الجثتين ـ الحية والميتة ـ تعيشان ذات التفاصيل بنفس درجاتها الثابتة والمتقلبة، الاختلاف فقط في مكان حدوثها!

أرى السيوفي جالسا في حديقة المصحة ويبدو أنه بدأ يستعيد قدرته على التعايش مرة أخرى، المرارة عالقة على ملامحه لكنه لم يمت بعد، هناك على الأقل نسبة بسيطة قد تجعل التفاعل معه مجديا، اتجهت ناحيته وجلست بجواره وقلت له:

ـ إحنا لازم نمشي من المصحة.

ينظر ناحيتي كأنه استغرب الفكرة، وكأنه يريد أن يقول لي مستنكرا: نحن هنا بانتظار الموت ولا يجوز أن نخرج قبل أن يجيء! وكأن مصير فريدة وسامح وماهيتاب وكمال وسلمى أصبح قدرنا نحن أيضا، أنتظر منه ردا لكن لا يجيء، فأقول له:

ـ إنت عندك استعداد تكمل هنا؟

تنتابه نفس درجة الدهشة فيغلبني الحنق، ألمس بعضا من مشاعره وإن كان ليس بالدرجة التي توصلني إلى تصور كامل لحالته، وأقول له:

ـ تعالى معايا نقابل حد من الإدارة عشان نخرج من هنا.

ينظر ناحية نافذة غرفة فريدة ثم ينظر ناحيتي ويقول:

ـ تفتكر ممكن يسيبونا نخرج؟! مش في تحقيقات شغالة؟

ـ نقول لهم اننا مش طايقين نقعد هنا، ولو فيه حاجة علينا يواجهونا بيها، بس مش هنقعد هنا لحظة واحدة كمان.

fb/mashro3pdf

لا يبدي أي درجة من الاعتراض، أقف فيفعل مثلي ونذهب إلى غرفة الدكتور فؤاد معا.

* * *

لم يكن صعبا إنهاء ما نريد، كل من بالمصحة أصلا يريد أن يبرح مكانه فيها تماما، حتى ولو كان في هذا خراب بيته، تحولت المصحة إلى مكان مقيت مقبض تشم فيه رائحة الموت على الدوام، الدكتور فؤاد نفسه وصل إلى حالة نفسية من السهل تخيلها مع ما يمر به الآن، عرفت أن أفرادا من مجموعتنا كانوا قد كتبوا مذكراتهم، ووصل إليها فؤاد لكنها لم تكن كفيلة بتوضيح أي مما حدث، سامح الوحيد الذي وصف ما ينوي فعله وبصورة تجعل من يقرأ كلماته الأخيرة تبرد أطرافه وترتعش، أنت تقرأ الكلمات الأخيرة لأحد ممن قرروا إنهاء حياتهم بأيديهم ولتترك لخيالك التكفل بالتوصل إلى بقية التفاصيل!

قبل أن أبرح المصحة ذهبت إلى زغلول الممرض، وطلبت منه أن يجلب لي شيئا من الإدارة مقابل ألفي جنيه من دون أن يخبر أحد، فعل بلامبالاة ولم يأخذ المبلغ فغلبتني الدهشة!

خرجت من المصحة ومعي السيوفي، وقد بدأنا نشعر أن الهواء بالخارج مختلف تماما عما هو بالداخل، الشعور بالخروج من صندوق خشبي لا براح فيه ولا إمكان للحركة، هل هذا ما يشعر به الخارجون لتوهم من بوابة السجن؟!

أوقف تاكسي وأستقله مع السيوفي، لم نتبادل كلمة واحدة طوال الطريق وإن كنا نبدو وكأننا عائدان من سفر مرهق ومؤلم، رحلة طويلة ممتلئة بالأحداث مع شعور عام بالخواء، أن تشعر أنك لا تفهم ما يدور

fb/mashro3pdf

من حولك ولا تأبه أصلا، أطلب سيجارة من السائق فيناولني واحدة وأتابع الشوارع من حولي، أنظر ناحية السيوفي فيبدو في عالم آخر، أعطيه السيجارة فيتناولها مني ويدخن سارحا، فيمَ يفكر الآن؟!

نصل أسفل عمارة السيوفي وينزل هو من التاكسي بعد أن أخذت رقم هاتفه، وينطلق التاكسي بي وتتلقفني مشاعر متضاربة، وأقول لنفسي، لقد بدأت الحكاية ولا مجال للتوقف.

في اليوم التالي اتصلت بالسيوفي، جاءني صوته مرهقا بصورة كبيرة وكأنه لم ينم بالأمس، تأكدت أنه موجود في المنزل وقررت الذهاب إليه، بعدها بساعة كنت عنده لإنهاء ما بدأته.

* * *

fb/mashro3pdf

(٢)

لم يقاوم السيوفي طويلا على عكس ما كنت أتوقع، وكأنه وقت أن رأى السكين في يدي لم تكن لديه بالفعل رغبة حقيقية في أن تظل قدماه تطآن أديم هذا العالم، مجرد جثة لم تعد تملك مساحة جديدة للحياة فاستسلمت لموتها الجديد، وعاء تم إهماله فآثر الانزواء في صفيحة القمامة مرحبا بمثواه الأبدي، قلم جف الحبر منه لا يطلب من أحد أن يكتب به! أو شريان لم يعد يحتوي على نقطة واحدة من الدم لا يُنتظر أن يصدر عنه نبض رتيب يدل على الحياة، مجرد جثة كانت تتمنى أن تنتهي حياتها فجأة ومن دون أسباب معلنة، فاستقبلت الموت حينما جاء وكأنه المنقذ والمخلص والمصير الجدير بالترحيب به.

أقرأ المذكرات التي وجدتها في شقة السيوفي ويتأكد لدي هذا الإحساس، السيوفي لم يعد يملك ما يعيش من أجله فآثر إنهاء حياته، أم تراه كان ينتظر موته وحينما رآني علم أن النهاية قد حان وقتها فتماشى معها؟!

أعترف بأن هذه العملية كان لها الأثر الأكبر في حياتي، ربما لو لم أوافق

fb/mashro3pdf

على تفاصيلها كما سلمها لي العميل ما كنت شعرت بتلك الغصة، وبهذة الكومة من المرارة، أتجه إلى مكتبتي الضخمة وأراجع ملفات عملياتي السابقة فلا أشعر فيها بنفس الأثر الذي تركته داخلي هذه العملية، ربما لأنني وللمرة الأولى أغير المبدأ الصارم الخاص بعدم التفاعل مع العميل المراد قتله، لقد اقتربت منهم بصورة جعلتني أشاهد في أثناء وجودي بالمصحة كل لحظات السعادة أو الألم التي عاشوها، وشاركتهم فيها، رأيت فريدة وهي تحاول مواربة باب مشاعرها إزاء السيوفي، ورأيت السيوفي وهو يحاول التطهر من تاريخه القديم من خلال فريدة، تابعت ماهيتاب وسامح بعد أن حاولا معا أن يتخلصا من آثار كانا يظنان أنها ستظل عالقة كأنها القدر، وتقدما خطوة، كمال وسلمى توحدا بعد أن كنت أظن أن علاقتهما القديمة كما بدت لي أطراف منها، قد انتهت إلى الأبد من دون أن أعرف تفاصيل ما فات أو تفاصيل العودة من جديدة، وأتساءل، هل أشعر بالشفقة الآن على مصيرهم الذي سطرته بيدي؟ وهل سيكون لتلك الشفقة أثر عليّ في ما بعد؟ شعور جديد في مساحة لم يعد بها براح للشعور بالأساس! ولماذا كنت ـ للمرة الأولى في حياتي ـ أبكي بعد أن أرى روح كل ضحية جديدة تغادر الجسد الذي كان يتحرك من حولي بالمصحة منذ قليل؟! أسئلة متعددة وحالة عامة من التخبط، وأنت واقف في المنتصف بالضبط، من دون أن تكون قادرا على وصف مشاعرك الحقيقية والجديدة على أعصابك إزاء الأمر برمته.

حتى زغلول المرض استغربت ما فعل، بعد أن علمت أن إدارة المصحة قد اتهمته بقتل المجموعة، لم يحاول أن ينفي عن نفسه تلك التهمة أو يلقي كلمة لها علاقة بالحقيقة، زميله حسن قال إنه رأى أسماء المجموعة محفورة على جدران شقته، وقد تم رسم علامة (إكس) بجوار

fb/mashro3pdf

الأسماء التي تم قتلها، فهل هذا سبب كاف للاتهام؟ بمجرد أن واجهوه بالأمر هز رأسه وابتسم بسخرية ثم وضع يديه على المكتب حتى يقيدوه! هكذا ببساطة، تساءلت مستغربا عن سبب عدم نفيه التهمة وعن انزلاقه بأريحية ناحية المجهول، لقد استسلم لمصير لا علاقة له بمعطياته، هل شعر من داخله أنه مشارك في القتل لسبب ما لا أعرفه فآثر معاقبة نفسه بنفسه؟ أم أنه تخيل قتله إياهم بتفاصيل لم تحدث على أرض الواقع؟ وكيف يصل المرء إلى مرحلة يستعذب فيها الموت من دون أن يكون هناك سبب منطقي واحد لهذا الاستسلام الغريب؟ «أنت يا زغلول متهم بقتل فريدة سالم وماهيتاب رفعت وكمال مندور وسلمى صبحي، وتسببت في انتحار سامح زكي» فيهز رأسه موافقا ويقول بصوت مرتفع: «كنت أعشق فريدة» هكذا فقط! لكن ماذا بعد أن يجدوا جثة السيوفي؟! وكيف ستكون ردة فعل زغلول نفسه؟! دوامة العثور على إجابات منطقية على أسئلة لا علاقة لها بالمنطق، ومحاولة للوصول إلى بر بعد أن وصل سطح الماء إلى قمة رأسك، لكنني وسط دوامة الفكر أعثر على إجابة قد تترجم كل تلك الغرابة من حولي، إنها المساحة الواسعة ما بين الشعور بالإحباط والرغبة في التنازل عن الحق في الحياة، كوسيلة سهلة جدا للتخلص من العناء المترسب والألم الذي لا ينتهي.

أجلس وحيدا في شقتي وأحاول تأمل الفارق ما بين الموت والحياة، أيهما أقوى أثرا؟ وأيهما يظل عالقا في الذاكرة؟ وأي ذاكرة؟ ذاكرة القتيل أم ذاكرة القاتل؟ ذاكرة الجثة التي لم يعد للحياة فيها أثر أم الجثة التي ما زالت ترتع بأريحية على سطح الكوكب؟ الكل جثث متحركة لكن الفارق في المساحة التي تتحرك خلالها، الجميع متساوون في الرغبات وفي طرق إشباعها المعدومة! وهل النفس الذي يتردد داخل صدرك هو

fb/mashro3pdf

الوحيد القادر على ترجمة مدى علاقتك بالحياة أو الموت؟ أم أن هناك معطيات أخرى لها نفس المنحني في خطواتك على الأرض؟ وأين الله من كل هذا؟ أين القدر وكيف يكون المصير؟! وإلى أي حد تبقى علاقتك مع الله قائمة على الرغم من كل الدماء التي اتخذت من سطح يديك الخشن ملاذا لها؟! كيف تتلو صلواتك وأنت تعرف أنك قتلت بعضا ممن خلقهم الله؟! فهل ما تعبده هو نفسه الذي خلقك؟! وإن كنت تعتقد أن طقوس العبادة التي تهتم بأدائها، جزء من الحالة الكونية العبثية التي وصلت إليها أنت، فهل هذا يعني أن رؤيتك لعلاقتك مع الله قائمة على الصدق؟! أنا أصلي لك يا الله وأقتل خلقك كذلك، تتصالح مع نفسك وتقتلها في ذات الوقت!

أنت تعتبر أن وظيفتك كقاتل محترف، لا تختلف في تفاصيلها عن وظيفة النادل أو المحاسب أو حتى ميكانيكي السيارات، لا تنظر إلى الأثر الذي تخلفه بقدر ما تنظر إليها بعين أنت نفسك لا تدرك تفاصيلها!

تتمادى في العبادة، وتغوص أكثر في مهمة لها إطار محدد بلون الدم.

* * *

fb/mashro3pdf

(٣)

كيف تكون الصدفة محركا للحدث وجالبة لمصير نهائي في حياة المرء؟!

في مذكرات السيوفي كتب عن حكاية لولو والجنرال، وإن تمعنت في مغزى الحكاية ونحيت عنها حكايات ما وراء الأبواب المغلقة بتفاصيلها المريبة، ستجد أن الصدفة وحدها كانت هي المحرك الفعلي لتلك القصة، امرأة مثيرة ورجل ذو سلطة، لم يتقابلا ولم يمس بيديه جزءا ولو صغيرا من تفاصيل ما تملك هي! صدفة بسيطة جمعتهما خلال مكالمة تليفون لتكون سببا في أساطير متعددة حول العلاقة الجديدة، حكايات مثيرة ومفتاح لأبواب النميمة التي لا توصد، فقط لتنتهي تلك الأسطورة بنهاية علاقة الرجل بالسلطة وبتمكن لولو من الانغماس أكثر في حظوة مجتمع الأسرار الذي يملك كل شيء، صدفة وقدر، بداية غير مرتب لها ونهاية مرسومة بعناية.

ما استغربته وجعلني أوقن أنني جزء من لعبة الصدفة وتحركاتها

fb/mashro3pdf

وأثرها في التاريخ، هو أن حكاية المجموعة «ب» وقدرها الذي كتبته بيدي، تبدو مشابهة جدا حد التطابق مع حكاية لولو والجنرال! صدفة بسيطة أنهت حياة الرجل العملية، وصدفة بسيطة أنهت حياة ٦ أفراد من رواد مصحة نفسية لم يكونوا على معرفة مسبقة ببعض، لكن نهايتهم كانت واحدة وناتجة عن السبب نفسه!

أتذكر أولى جلسات الاستماع التي شاركتهم فيها، يومها لاحظت أن عليّ أن أهدم الجدران المرسومة بيني وبينهم، حتى تكون مهمتي أكثر سهولة، لم أكن أفكر حينها إلا في طريقة سريعة لإنهاء المهمة من دون أن يكون داخلي دافع للانغماس في أي تجارب أو مواقف أو أحداث مع المجموعة، تجعل هناك إمكانية لوجود علاقة بيني وبينهم، لا مكان للمشاعر هنا لأنها أقصر الطرق لإفساد مهامي المعتادة، يومها قلت لهم:

ـ كنت راجع أنا ولبنى مراتي وملك بنتي من مرسى مطروح، متهيألي لو كانت الدنيا وقفت عند اللحظة السعيدة دي، كان الواحد قال انها جديرة بإنها تتعاش، لكن واضح اني كنت مغفل.

وأرى الإشفاق يغزو عيون المجموعة، حتى السيوفي الذي بدأ الأمر بسخرية بدا لي أنه تراجع عن الفكرة وآثر الإشفاق مثل الجميع، وأسمع كمال يقول:

ـ إيه اللي حصل؟

ـ عملنا حادثة، هم ماتوا وانا كملت.

وقتها تذكرت الحقيقة، مشهد متخيل تحكيه، وآخر حقيقي يظل مترسبا داخلك لا تنساه، انتهت حياة زوجتي وطفلتي لكن ليس بنفس

fb/mashro3pdf

التفاصيل التي نقلتها إليهم، أشاهد فريدة وهي تركض باكية إلى غرفتها وسلمى وماهيتاب تلحقان بها، وتتداعى الذكرى التي لا تنزوي.

قتلتها بيدي! وصلت إلى حالة من الهياج جعلت الرؤية تغيم من حولي، دخلا علي الشقة وكنت أنا مثل من ركبه جني أو تحول إلى حيوان مسعور من دون سبب فعليّ لذلك، عرفت بعد ذلك أنه بسبب الدواء الخاطئ الذي تجرعته فدفعني دفعا إلى حالة من الجنون، أم كان الكوكايين هو السبب؟ لا مجال للسؤال! أن تبصر جثتي زوجتك وطفلتك أمامك شيء، وأن تبصرهما وأنت القاتل شيء آخر، نظرة طفلتي لا تغادر مخيلتي وأحيانا أراها واقفة تبتسم لي وأنا أشرع في قتل أحدهم، أبادلها الابتسام وأمسح آثار الدم التي تجمعت على أديم وثنايا يدي، مصير راسخ لا يتغير وطرق مسدودة للوصول السريع إلى الجحيم، وأتساءل: هل هذا كان سببا في أن أجعل من الموت مصدرا لكسب الرزق ومحاولة للتأثير في المسار؟! التعود على الدم بعد أن صار مكانه الطبيعي بين النتوءات الصغيرة المكونة لعلامات يدك، لا أدع أحدهم يقرأ ما هو مكتوب على كفي، لأنه إن فعل سيكون بهذا يقرأ تفاصيل حقيقتي كاملة، لن يرى إلا الدم!

أسئلة متعددة وإجابة وحيدة: لا أعرف ولا يهم، لقد ماتا يومها وكذا أنا أيضا.

* * *

علبة دواء واحدة \ جرعة كوكايين، كانت سببا في مصير لا ينتهي، صدفة! مكالمة تليفون واحدة كانت سببا في نهاية الجنرال وبداية لولو، صدفة! تجمع واحد لأفراد المجموعة «ب» كان سببا في موتهم، صدفة!

fb/mashro3pdf

الصدفة تكتب التاريخ، وتكون سببا في الموت أحيانا!

* * *

قابلت نائل مصطفى في شقته بالمهندسين، كانت بيننا معرفة قديمة لكنها لم ترق إلى حد العمل معا.

كنت أتعامل معه بحذر ناتج عن معرفتي بتفاصيل حياته وما يمتلك من أدوات، أعرف علاقاته بالصفوة وأعرف أنه أحد أبرع من يبيعون نصفهم السفلي لنساء يدفعن أي شيء في مقابل بعض من المتعة الغائبة، بعد أن وصلن إلى كل شيء، استغربت أن يطلب مقابلتي، خصوصا وأن أعمالنا تتعارض ظاهريا في تفاصيلها، وعلى الرغم من قلقي من اللقاء فإنني ذهبت حتى أفهم ما يدور.

استقبلني بابتسامة مرحبة ثم جلسنا معا في إحدى الغرف، سألني إن كنت أشرب الخمر أم لا، أجبته نفيا فجلب لي كوبا من العصير ثم جلس بجواري وشغّل قرصا مضغوطا في جهاز DVD، كانت الصورة صادرة عن إحدى كاميرات المراقبة في شقة مشابهة لتلك التي نحن فيها، لم أتأكد إن كانت هي أم لا، في الصورة أرى مجموعة أشخاص يقفون معا في غرفة واسعة، عرفت بعد ذلك أن هؤلاء هم السيوفي وفريدة وكمال وسلمى وماهيتاب وسامح، يدور الشريط ثم يوقفه نائل عند لحظة معينة، لحظة بدا فيها أنه قد جذب انتباههم شيء ما لم يكن واضحا بالنسبة إليّ وبالنسبة إلى زاوية الكاميرا كذلك.

وضع نائل الريموت على المنضدة ونظر لي... أشعل سيجارة وقال:

ـ الستة دول.

fb/mashro3pdf

وتم الاتفاق.

* * *

أمتلك في شقتي مجموعة من الملفات تضم كل تفاصيل العمليات التي نفذتها، هذا تاريخي الخاص أعود إليه كل فترة لأحدق قليلا في صور الضحايا وأقرأ حكاياتهم، وأستعيد سبب القتل ومشهد التنفيذ، وسيلة للعذاب وطريقة لتفهم من أنت حتى لا تضيع منك الحقيقة وسط صراع عقلي يأبى النسيان على الدوام، لا أخاف من وجود تلك الملفات في هذا المكان من الشقة، وكأنني أتركها دليلا سهلا قد يصل بي ببساطة إلى حبل المشنقة فأرتاح، لم أفكر يوما في الانتحار كحل سحري يأتي لي بالمراد، وكأنني أشعر أن العقاب يجب أن يأتي من الآخرين وليس من نفسي لنفسي، أم تراني أظن أن من المحرمات قتل النفس؟! هراء معتاد في عقل اهترأ مع الوقت.

حتى زوجتي وطفلتي لهما ملف قابع بجوار الآخرين!

صورتهما الضخمة المعلقة على الجدار المواجه لمكتبة الجرائم، أعتبرها وسيلة جيدة للعقاب والشعور بالألم، شرائط الفيديو التي كنت أهتم بتصويرها لمناسباتنا كأعياد ميلاد ملك، وسيلة جيدة أيضا ولكنها الأكثر إيلاما، هل كنت أنا السبب الفعلي في موتهما؟! وهل كان بيدي أن أتحول بهذه الصورة وأشرع في القتل من دون أن أشعر بها أنا مقدم عليه؟! متى تبدأ المسؤولية وأين تنتهي؟! لكن الألم أشد وطأة من أن يناولك حلا سهلا أو جوابا صريحا.

قبل أن أشرع في تنفيذ عملية نائل تمكنت من تجميع المعلومات الخاصة بالحكاية برمتها، واكتشفت أن الرابط الوحيد بين نائل والمجموعة هو

fb/mashro3pdf

السيوفي فقط، تاريخ قديم ولمحة بسيطة من لمحات العالم السري، أما الباقون فيقتلون فقط لأنهم وجدوا بالصدفة في مكان لم يكن يجدر بهم الوجود فيه، هكذا ببساطة، أنت تطأ أديم أحد الأماكن من دون أن تعرف تفاصيل ما فاتك من الحكاية فقط من أجل أن تموت، وكان وجود المجموعة في مصحة نفسية طريقا سهلا لتنفيذ المراد، محاولات انتحار لقوم يعانون الاكتئاب، مبرر سهل وطريقة سحرية لإنهاء قضية لن يتم فتحها!

حكاية مجموعة ب = حكاية لولو والجنرال = حكاية زوجتي والطفلة مع اختلاف التفاصيل!

لكن الأزمة الحقيقية أنني انغمست مع المجموعة بصورة كبيرة، بعد أن وطأت المصحة كمريض باكتئاب وهمي!

جمعني بهم رابط غريب كنت أظن أنني تخلصت من إمكانية حدوثه إلى الأبد، أن تقترب وترى صورة من تعرف أن مصيرهم أصبح بين يديك، أن تتفاعل وتناقش وتضحك وتتألم معهم، أنت تعرفهم! إحساس من الصعب وصفه، هو أقرب إلى كل شيء يظل داخلك ويموت بموتك من دون أن يبرح مكانه، شفرة لا تتمكن من حلها، حوار بلغة غامضة أو لوحة لأحد الرسامين العباقرة الذين يرسمون لأنفسهم فقط، لأن سواهم لا يفهم شيئا من إبداعهم.

أو رسالة من الله وقف البشر جميعا عاجزين عن ترجمة ما بها، وفعلوا عكسها!

* * *

fb/mashro3pdf

(٤)

كان لتجربة الفيلم التي اقترحها سامح أثرها الكبير في الألم الذي كان يزيد كلما أنهيت حياة واحد منهم.

شعرت وقتها أن كلا منهم يخرج ما بداخله من دون خوف أو مواربة، ربما يقول أحدهم كلاما لن يفهمه سواه، لكنها تظل أولا وأخيرا طريقة للصراخ وقت أن كان فمك مكمما على الدوام.

تتوارد على ذهني العبارات التي ألقوها أمام الكاميرا حينما أرى الحياة تفارق أعينهم، أسمع طنين الكلمات وأشعر بوطأتها على أعصابي، أتذكر موقفا وأهرب من مواقف!

تقف فريدة أمام الكاميرا وتقول:

ـ ساعات بحس إن الدنيا دي عاملة زي علبة الألوان، كل مرحلة بنمر بيها بتمثل لون معين، صحيح ساعات بنستخدم ألوان مش بتعبر عننا عشان نداري بيها حاجات جوانا، بس الأكيد، إن لونك إنت اللي بتختاره بنفسك في النهاية.

fb/mashro3pdf

وأنا اخترت لون الدم يا فريدة وسطرت بدمك جزءا جديدا من سيرتي الذاتية!

و تقول ماهيتاب أمام الكاميرا:

ـ الحكاية كلها في التفاصيل الصغيرة اللي ماحدش بيحس بيها غيرك، ساعات بتشوف انت التفاصيل دي وتعتبرها عادية، لكنها بتبقى بالنسبة لصاحبها كابوس، كابوس مابينتهيش.

وكأنك كنت تتوقعين المصير يا ماهيتاب، تفصيلة صغيرة لا علاقة لك بها وراءها من تاريخ دفعتك إلى الوجود في مكان واحد مع السيوفي والمجموعة، ورأيتم ما لم يكن يجب أن تروه، لكن النتيجة لم تكن كابوسا بقدر ما كانت نهاية للكوابيس!

ويقول سامح أمام الكاميرا التي تقف خلفها ماهيتاب الآن بدلا عنه:

ـ أنا كمان ليا حكاية كبيرة مع التفاصيل الصغيرة اللي ممكن تغير حياتك تماما، وساعات بعتبرها مجرد صدف، زي مثلا إنك تقابل حد وتحتاج تقرب منه مش بس علشان تخرجه من الحالة اللي هو فيها، لكن عشان انت كمان تخرج من حالتك، يعني نتيجة التفاصيل الصغيرة مش دايما كوابيس، ده غير ان أحيانا الكوابيس بتكون سبب إنها تحرك حياتنا لقدام مش العكس.

هذا يتوقف على نوع الكابوس يا سامح وقدرته على حفر الرعب داخلك!

ويقول كمال وأشعر أنه يوجه حديثه إلى سلمى:

ـ مين اللي قال ان الموت بيجي للإنسان مرة واحدة بس؟ ساعات

fb/mashro3pdf

سنين عمرك بتبقى عبارة عن تنقلات ما بين موت والتاني، وما بين كل نهاية ونهاية بتولد جواك أفكار ومشاعر مختلفة عن الفترة اللي قبل النهاية الأخيرة، بس إن الموت الجديد يجي لك من اللي كنت بتظن إنه سبب فعلي في حياتك، الموازين كلها بتقلب جواك وبتمنى إنها تكون آخر موتة فعلية عشان ماتكونش مضطر تتعامل معاه في حياتك الجديدة، ويكون من تاني سبب في موتك الأخير.

في النهاية الكل جثث يا عزيزي مع اختلاف رؤية المرء لنفسه! تختلف مرات الموت أو تتعدد، لكن يظل المصير واحدا!

ويقول له سامح:

ـ طب مش ممكن تكون انت كمان ساعدت في إنه يموت؟ يمكن اللي بتفكر انه سبب في موتك كان سبب في موته هو كمان.

ـ مش هقدر اقول لك لأ، بس كل اللي أقدر أأكدهولك إن الخطوة الأولى ماجاتش من عندي، إنت سألتني في مرة عمرك قبل كده جربت تنطط من منتج للتاني عشان يديك ميزانية تعمل بيها الفيلم اللي على مزاجك مش اللي على مزاجه هو... أنا بقى بسألك دلوقتي، عمرك جربت تتنقل ما بين وهم ووهم تاني وفي كل مرة تطلع مغفل وتفتكر إنه حقيقة؟!

الوهم هو الحقيقة والحقيقة هي الوهم، والرابط بينهما هو نحن، هكذا ببساطة!

وتقول سلمى وكأنها ترد على كمال:

ـ الحياة أقصر من إننا نضيعها في توصيف أي حاجة بنمر بيها، حقيقة

fb/mashro3pdf

ولا وهم المهم النتيجة الفعلية اللي هنوصل لها، تفكروا الناس اللي بتملى الشوارع أيام العيد بيقوا مقتنعين فعلا انهم بيحتفلوا بفرحة العيد؟! ده جزء من وهم بيحاولوا يعيشوه عشان ماعندهمش غيره، الاحتمالات أقل من إنك تدور غير على وسيلة تخليك تكمل حياتك، هو بيقتنع إن خروجه ده بيسليه أو يخليه مبسوط، ينسيه شوية الوجع المعشش جواه، ده وهم، بس بيخليه يكمل حياته.

و تكمل:

ـ أسوأ حاجة إن البني آدم اللي بتحبه يحس إنك كنت سبب في موته، وإنه يكون مش عايز يفهم إن تصرفاتك اللي هو شايفها قتلته، كنت انت بتعملها عشان يعيش، تزيح عنه وجع مش عايز يسيبه، إنت مش بتوهمه بشيء عشان عايز تإذيه... إنت بتديله بديل عشان يقدر يكمل حياته.

تلقي جملتها الأخيرة وتركض إلى غرفتها، وأقول بداخلي، الجميع يتحدث عن الوهم والموت والحياة، وكأن كل هذا هو الذي يسطر القدر، أنتم تلقون ما بداخلكم من هراء، والقدر واقف ينظر إليكم متهكما!

وأتساءل، أين يبدأ المصير الحقيقي بالنسبة إليهم؟ من بداية تحرك القدر ناحيتهم أم من آثار هذا القدر على المسار؟! لحظات ما قبل الموت أم لحظات ما بعده؟! هل منهم من تساءل عما ينتظره هناك على الضفة الأخرى من الحياة؟! هل يحاولون فقط أن ينهوا آخر الأنفاس العالقة داخل الصدور بمحاولة الاستمتاع بالمتاح؟! التعلق بأمل لا وجود له أم التعمق في يأس مستوطن بالأساس؟!

وأقف أمام الكاميرا وأقول:

ـ إحنا ليه بنتعامل مع الموت وكإنه نهاية؟! ليه مانعتبرش إنه مجرد

fb/mashro3pdf

تكمله لدورنا في الحياة؟! الفرق ان تكملة الحياة دي هتكون في مكان تاني غير اللي متعودين عليه، ولو شلنا فكرة الحساب والمجهول هتلاقوا انها مجرد رحلة جديدة بنكمل بيها، مش نهاية لرحلة كانت دايرة من ساعة ما اتولدنا هتقف لما يجي لنا الموت.

يبدو أن هذا الكلام كان صادقا لدرجة مرعبة لم أتوقعها أنا نفسي، أحيانا يتقمص الممثل الدور بصورة تجعله يلقي ما بداخله هو، وليس ما بداخل الشخصية التي يؤديها، أبصر ملامح المجموعة بعد أن أنهيت مرافعتي لهذا اليوم، وبدا لي أن هذا الكلام كان يدور بداخلهم بصورة ما، حينها تشعر أن أحدهم يفتش داخلك ويخرج ما تحاول أنت إخفاءه، أو يشير لك ناحية ما تعترف بوجوده لكن لا تراه، صياد يعرف أين يلقي شباكه أو مغناطيس قوي كما يصورونه في أفلام الكارتون يخرج الكلمات من داخلك بآلية فلا تستطيع ردعه.

لكن كيف أنظر أنا إلى كل هذا؟!

وهل بناء على ما قلت أعتبر نفسي مجرد جهاز ناقل من الأرض إلى الجهة الأخرى من الحياة؟! وسيلة مواصلات تحاول أن تغير مسار الضحايا وتساعدهم على الاستمرار، أو محاولة لإخراجهم من الكيان الذي يظنون أنه فقط المكان الوحيد الذي سيتحركون فيه بأريحية، ويتصرفون فيه وفقا لرغباتهم أو رؤيتهم للتفاصيل.

أنا رسول منزل ويمتلك رسالة التحول في حياة البشر!

أنشر رسالتي الجديدة في سرية لأنني أعرف أن قومي لا يفقهون، سيقولون إنني مجرد قاتل آخر يسطر بيديه مصيرا نهائيا للضحايا، ويقبض الثمن، لن يفهموا أن الثمن الحقيقي يكون في نظرة شكر أو

fb/mashro3pdf

عبارة امتنان! شكرا لأنك قتلتني أهم عندي من حسابي البنكي المتخم بأوراق البنكنوت!

ماذا عن طلبات القتل؟! تأتي من بشر مثلنا؟! هذا أيضا من قواعد اللعبة، أنت تظن أن أحدهم طلب قتلك لكن الحقيقة أنك تسير بآلية ناحية مصيرك وفقط، مهما كانت الأسباب، وإن نحينا السيوفي مثلا من القتلى، هل تظن أن الباقين تم قتلهم فقط بأوامر من نائل؟ ألا يكون السيوفي مشتركا في اللعبة؟! أو لننظر إلى أبعد من ذلك ونسأل: ألا يكون العالم السري ومجتمع الأبواب المغلقة هو الأساس؟! من الجاني وكيف تلومه الضحية؟! وماذا عن السلاح المتمثل في أنا؟! متى تبدأ مسؤوليتي عن القتل؟ وكيف تنتظر مني قرارا معينا يناسب اختياراتك أنت لا اختياراتي أنا؟

أنا فقط وسيلة صغيرة، تفصيلة بسيطة في الكون مترامي الأطراف، تحافظ على التطور الطبيعي للحياة، وتساعد في نشر الفلسفة الحقيقية للاستمرار... إخلاء مكان جديد لبشر آخرين من أجل استمرار البشرية في التحرك إلى الأمام!

أنا من يمتلك جهاز التحكم عن بعد، أحرك الضحايا في مسارات مكتوبة بعناية من دون مجال لسؤالهم عن رغباتهم قبل أن أدير المحرك، أقيدهم وأضعهم في سفينتي العملاقة وأضغط الزر، فينتقلون بأريحية إلى هناك.

أنتظر منهم رسالة شكر من العالم الآخر فلا تجيء، فأستمتع بقدرتي على إنكار الذات، وأستمر!

* * *

fb/mashro3pdf

(٥)

وسيلتي للاعتذار عن المصير كانت حفلا بسيطا يجتمع فيه الضحايا للمرة الأخيرة!

العشاء الأخير! محمد علي ومذبحة المماليك! وسيلة لجعلهم يستمتعون بلحظاتهم الأخيرة على هذه الأرض، لقطة «فينالة» في فيلم يظنون أنه مستمر، ليتهي فجأة، مجموعة الممثلين كانوا يظنون أن حياتهم جزء من فيلم طويل من دون أن يخبرهم المخرج أين بالضبط تنتهي مشاهد كل منهم، يتحركون بأريحية وتغلبهم الظنون، ربما يتساءلون عن مدى قدرة الحياة على أن تهب لهم بعدا جديدا من البهجة المحرمة، أو يظن أحدهم أنه مسيطر على الأحداث ويقوضها كما يريد، أو يفكر في أنه اقتنص بهذا شفاء متكاملا من اكتئاب يغزو حتى الأوصال، هنا علاقات تنشأ أو تعود، فقط من أجل أن تنتهي!

يعبون من الحياة حتى الرمق الأخير، يظنون أنهم خالدين فيها أبدا، فلا يدرك أيهم كم هم واهمون، هكذا هم أهل العشق، يتشبثون بالحب

fb/mashro3pdf

أملا في أن تكفل لهم المشاعر الدافئة بعضا من مكاسبها المرجوة، الخلود، ملامحهم تقول إنهم أحياء إلى الأبد، لكن الغد يحمل لهم بين طياته الخفية شبح الموت، وأنا فقط من يحمل على كتفيه مشقة التنفيذ!

يومها كانت مهمتي محصورة في مشاهدة الصور واللقطات الأخيرة للمجموعة، هنا كتالوج متحرك تتمنى أن تتوقف فيه اللحظة إلى الأبد، حتى تظل الذكرى بهذا القدر من الواقعية، لها شكل ولون وكيان مادي واضح المعالم، لا مجرد أسماء مجهولة أو صور ثابتة لقوم لم يفهموا أبعاد ما حدث، قابعين في ملف كئيب يتم إيداعه على رف خشبي ليجاور ملفات أخرى تماثله في الكآبة الظاهرية، ولا تماثله في التفاصيل التي يحتويها.

أشاهد السيوفي وهو يحادث فريدة فأتمنى أن يلقي ناحيتها كل ما يملك، وأن يهبها القدر الأكبر من السعادة قبل أن ينسدل الستار، ماهيتاب وسامح ينهلان معا من كأس النجاح والحب، بعد أن كانا يظنان أن الفشل والوحدة صارا المصير المحتوم، كمال وسلمى ينصهران معا بعد أن شفعت لهما تجربة الفيلم في التخلص من تفاصيل تاريخ لا أعرف أبعاده لكنني أشعر به، وأنا؟! أشرع في تجهيز نخب أخير قبل أن تنزل كلمة النهاية ويبدأ المصير في مرحلة التطبيق.

* * *

البداية كانت عند فريدة ولا أعرف لماذا هي بالتحديد، مجرد صدفة أخرى!

أدلف إلى غرفتها وأبخ الرذاذ المثبط أمام وجهها، تغيب عن الوعي وأضع السكين الصغير في يدها، وأشرع معها في قطع شرايين كانت توصلها يوما بالحياة! لون الدم يسطع أمامي وتجتمع بعض الدموع في

fb/mashro3pdf

مقلتي! قاتل يشعر بالشفقة أو شفقة تشفق على القاتل! أقتُلها قاتِلا بهذا مساحات جديدة بداخلي.

وكذا كان الأمر مع ماهيتاب التي كانت كما بدا لي تعد جلستها لتكتب! يوم أن قررت ماهيتاب العودة قطعت أنا عليها الطريق، إلى الأبد!

سامح سهل المهمة عليّ وتحرك بأريحية ناحية مصيره بنفسه، لا أعرف إن كان ما وجده على الضفة الأخرى من الحياة جاء مختلفا عما كان سيحدث، إن كنت أنا سبب موته أم لا؟ لكن الوضع بالنسبة إلى كمال وسلمى كان مختلفا!

بعد أن دلفت إلى غرفة كمال لم أجده بها فقررت انتظاره أسفل السرير، وبمجرد أن دخل بلحظات سمع طرقا على الباب، اتجه إلى هناك ليجد سلمى تطلب منه أن تقضي ليلتها معه لأنها تشعر بالرعب، هربت من الرعب لتجده هنا! صدفة! بمجرد أن شعرت أنهما غابا في النوم بدأت الحركة، كمال يلاحظ حركتي، يتأهب للدفاع فيجد نصل السكين في عنقه، سلمى تفتح عينيها لتفهم ما يحدث فتغلقها مرة أخرى بعد وطأة الطعنة القاتلة، هكذا ببساطة!

لماذا قتلت السيوفي خارج المصحة؟ ربما لأصل إلى الفيديوهات التي لديه، وربما كانت المسافة الفاصلة بين موت كمال وسلمى وموت السيوفي، طريقة للشعور ببعض الراحة! محاولة لغسل يدين تحول لونهما إلى الأحمر القاني! أرجأت الإمداد الجديد من الدم فزاد اللون من وطأته!

بعد أن أنهيت المهمة غبت مفكرا في إمكانية الانتقام للمجموعة! وكأنني بعد أن سطرت المصير أحاول أن أمحي بعضا من الخطيئة من ميزان السيئات! شريطا الفيديو اللذان كانا سببا في قتل المجموعة أو على

fb/mashro3pdf

الأقل بدأت بها الحكاية سطورها الأولى، تمكنت من أن أجدهما لدى السيوفي بعد بحث مرهق كدت أن أيأس من جدواه، وحينما عثرت على الكنز المتمثل في شريطي فيديو يحويان لمحة من تفاصيل ما يدور خلف الأبواب المغلقة، نشرتها على شبكة الإنترنت مبتسما ولا عزاء لنائل أو حكمت أو جاكلين!

أستطيع أن ألمح الآن ابتسامة السيوفي الساخرة من مكانه هناك، أنا الذي انتقمت بعد موتي أيها الأغبياء!

* * *

fb/mashro3pdf

(٦)

قبل أن أبرح المصحة مع السيوفي توصلت إلى آخر خيط يربطني بهذا الجزء من التاريخ، تفصيلة جديدة ستجد من ملف العملية ملاذا لها، نسخة الفيلم الذي صورناه معا وقالوا إنني كنت ممثلا عظيما به!

طلبته من زغلول الممرض نظير ألفي جنيه فنفذ المطلوب، وعافت نفسه أخذ المقابل!

جهزت وجبة عشاء خفيفة وجلست أشاهد الفيلم، أحاول أن أمحي من داخلي كل الصور القديمة عن أيام التصوير أو عن تاريخي مع الأبطال، أريد أن أكون محايدا جدا في أثناء مشاهدتي تلك اللحظات الأخيرة التي تم تسجيلها لقوم لم يعودوا يطأون ذات المساحة السابقة، حتى أنا!

أشعل سيجارة وأغيب مع الصور المعروضة أمامي، فريدة والسيوفي وسامح وماهيتاب وكمال وسلمى وعبد السلام، وزغلول الممرض، كلهم يتحركون على الشاشة الآن قبل أن يخرجوا من الجهاز ويطوفون

fb/mashro3pdf

بأريحية في أرجاء الشقة من حولي، لقطة ثلاثية الأبعاد لعقل اهترأ تماما، يتحركون ناحيتي وأسمع العبارات التي تكررت من قبل في أيام التصوير، لكن بملامح مختلفة، وكأنهم يقولون لي أنا بالذات ما قالوا، طريقة جديدة للعذاب ومحاولة داخلية للانتقام من النفس.

زوجتي وطفلتي تخرجان من العدم وتتحركان مع المجموعة من حولي، فريدة تداعب الصغيرة وماهيتاب تتعرف على زوجتي، السيوفي يؤدي بعض الألعاب السحرية البسيطة فأرى ابتسامة ملك ابنتي تتسع، سامح يُخرج الكاميرا ويشرع في تصوير ملك وهي تتراقص بمرح حول السيوفي وفريدة، أقترب منهم حتى أرى ملامح أعرف أنها ستغيب بعد قليل، ملك هربت رعبا حينما اقتربت منها وكذا زوجتي، سامح وكمال ينظران ناحيتي بإشفاق، فريدة تحاول أن تطمئن صغيرتي، يلقي الجميع ناحيتي نظرة أخيرة اكتشفت أنها تحتوي من الشفقة ما قد يكون كفيلا بآلام لا تنتهي في الضمير المهترئ، لقطة ثابتة لهم ثم تختفي أطيافهم فجأة.

وأغيب أنا في دوامة جديدة لها رائحة الدم.

* * *

نهاية

fb/mashro3pdf

الموت على طريقة تارانتينو

تُقرر أن تنام، في الصباح ستعرف أن (أنتيكة) قد مات نتيجة توقف مفاجئ لعضلة القلب، سيبلغك جيرانك بالخبر وأنت في طريقك إلى عملك في المصحة النفسية، لن يُحرّك الخبر داخلك أي مشاعر، خصوصًا وأنك تعرفه مسبقًا، لقد بدّلت بالشريط المعتاد آخر له تأثير السحر، لقد تخلّصت من واحد ممن تركتْ بصماتهم أثرًا عميقًا غائرًا في خلايا قفاك العتيقة، لكنك تعرف أن القائمة ما زالت ممتلئة بآخرين لهم ذات البصمات ويستحقون ذات المصير.

مصطفى جمال هاشم، سيناريست وروائي مصري؛ صدرت له مجموعة قصصية بعنوان (جرجس وحواديت أخرى) في ٢٠١٣، كما قام بتأليف وإخراج عدد من الأفلام القصيرة المستقلة، وشارك في كتابة مسلسل (كلام على ورق)، وتعتبر الموت علي طريقة تارانتينو روايته الأولى.

fb/mashro3pdf